
اخترنا لك ٥٩
يوميات

اخترنا لك ..

٥٩

يوميات الجبرتي

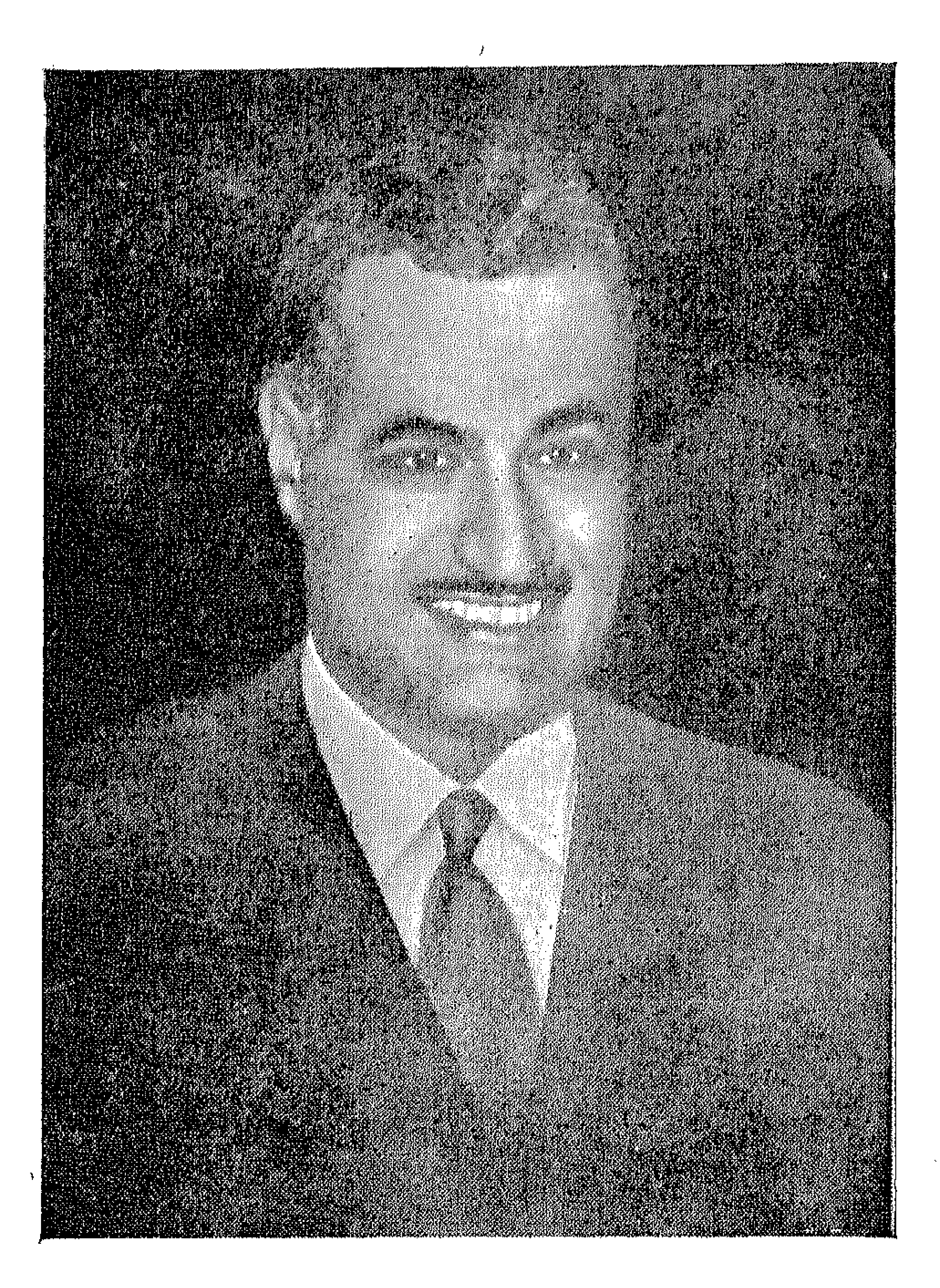
«مظهر التقديس بزوال دولة الفرنسيس»

تأليف

عبد الرحمن الجبرتي

الجزء الأول

دار المعارف بمصر



الرئيس جمال عبد الناصر

مقدمة

بقلم

محمد عطا

يعد هذا الكتاب الذى ينشر لأول مرة أول أثر للمؤرخ المصرى الشيخ عبد الرحمن الجبرتى فهو فى عداد الزمن سابق لتاريخه الكبير العام الذى يقع فى أربعة أجزاء ضخام ويسمى « عجائب الآثار فى التراجم والأخبار » .

وقد أطلقنا عليه « يوميات الجبرتى » لأن هذا العنوان يمثل أدق تمثيل طريقة الجبرتى فى كتابة التاريخ أو بالأحرى فى « مظهر التقديس بذهاب دولة الفرنسيس » إذ أنه أشبه بمذكرات يومية للحملة الفرنسية فيما بين سنة ١٢١٣ هـ (١٧٩٨) حتى سنة ١٢١٦ هـ وهى مذكرات تعكس وقع الحملة الفرنسية وصداها على الرأى العام المصرى آنذاك فهى ليست تاريخاً خالصاً مجرداً عن العواطف الدينية والوطنية ، فالمؤرخ يقف من الأحداث موقفاً موضوعياً يترك الحوادث هى التى تتكلم وهى التى تؤثر .

أما الجبرتى فى يومياته فلم يكن كما كان فى تاريخه العام أقرب إلى الموضوعية ، وقد فطن إلى ذلك بحق الدكتور محمد أنيس فى البحث

الذى نشره فى مجلة كلية الآداب[1] . ومما لا شك فيه فى الجبرتى فى تاريخه « عجائب الآثار » كان قد نضج تفكيره وتحدد أسلوبه ، وهدأت الثورة التى كانت تجيش بها نفسه فى أثناء الاحتلال الفرنسى .

ونحن قد نبهنا على بعض المواطن التى وصف بها بعض قادة الحملة فى مصر وصفاً قاسياً ثم عدل عن هذا الوصف فى « عجائب الآثار » .

وهذا الكتاب الذى ننشره عن النسخ الخطية المستعارة من دار الكتب المصرية ما هو فى جوهره بل فى أعمه الأغلب إلا بعض الجزء الثالث من تاريخه الذى يتحدث فيه عن الحملة الفرنسية عن مصر .

* * *

ومن المفارقات التى تراها بين مظهر التقديس وعجائب الآثار أن الجبرتى كان معنياً فى الأول بإيراد قصائد الشعراء التى قيلت فى المناسبات الوطنية وبخاصة ما قيل منها فى اندحار قوات الفرنسيين أمام مدينة عكا ثم التعقيب على هذه القصائد بما يدلنا على تمكنه فى صناعة الشعر ، وثقافته العربية إلى حد ما . أما فى عجائب الآثار فيكتفى ببضعة أبيات منها ، ومعنى هذا أن الجبرتى المؤرخ كان قد عرف طريقه فى التاريخ فى « عجائب الآثار » .

* * *

ومن المفارقات أيضاً هذه المقدمة التى قدم بها « مظهر التقديس »

(١) المجلد الثامن عشر — الجزء الأول ، مايو ١٩٥٦ ص ٥٩

وأشاد فيها بالدولة العثمانية إشارة لم تظهر فى « عجائب الآثار » . ولعل هذا مرده إلى أن الجبرتى مؤرخ الحملة الفرنسية لم يكن قد امتد به الزمن تحت الحكم العثمانى ولم يشهد آثاره السيئة ، وعواقبه الوخيمة كما شهدها بعد وتجلت له فى المظالم التى ناء تحت أعبائها المصريون بعد عودة هذا الحكم عقب الاحتلال الفرنسى .

المظالم التى تراءت له قبيل حكم محمد على وفى أثنائه . هذا الحكم الذى عمد إلى إلغاء شخصية المصرى إلغاء وإشعاره بأنه مستعبد وأن عليه أن يطيع ما يؤمر به . وإن يكن فوق طاقته ، وإن يكن على حساب قوته وقوت عياله بل على حساب كرامته .

هذا الحكم الذى تمخض عن جبروت محمد على وكتمه أنفاس الرأى العام المتمثل فى زعمائه الشعبيين من أمثال السيد عمر مكرم .

هؤلاء الزعماء الذين كانوا العامل الأول والأخير فى أن يستأثر بالحكم فى مصر ، وأن تكون له هذه المكانة وهذه المهابة لا فى المحيط المحلى فحسب بل فى المحيط الدولى .

ولا شك أن الجبرتى المصرى الصميم قد تأثر لاضطهاد المصريين وإلغاء ذواتهم وعدم الاكتراث لوجودهم فكان أن كتب تاريخه المحايد الذى لم يؤلفه إرضاء لأمير أو عظيم أو سلطان كما نص على ذلك فى مقدمة كتابه الخالد « عجائب الآثار » .

هذا التأثر أو هذه الثورة النفسية أو هذا التاريخ الصادق الذى نشره

على الناس جعله ضحية من ضحايا الجبروت والعسف التركى إذ أن محمد على أراد أن ينتقم منه انتقاماً قاسياً لأنه لم يكتب تاريخه إرضاء له ، وتمجيداً لطغيانه فكان انتقامه متمثلا فى تدبير قتل ولده ، قرة عينه ، وحبة سويداء قلبه . فبكاه والده الشيخ بكاء مراً ، وحزن عليه حزناً عميقاً أفقده نور بصره ثم ذهب بما بقى من عمره .

* * *

« ومظهر التقديس » الذى ضمن التاريخ العام يعد المرجع الأول للحملة الفرنسية من وجهة النظر المصرية الخالصة ، وهى النظرة الصادقة . والجبرتى على الرغم مما أوردناه من قبل يعتبر فيه مؤرخاً عملاقاً لأنه لا يؤرخ فيه تأريخاً أصم — كما فعل غيره من قبل ومن بعد — تاريخاً خالياً من المظالم الاجتماعية ، وما ينتاب الناس من ضيق ، وما يشعرون به من آلام وآمال بل يؤرخ تأريخاً يربط بين السياسة والاجتماع والاقتصاد ، تأريخاً لروح الشعب وكفاحه وعظمته النفسية وتضحياته الغالية ، تأريخاً يضم بين صفحاته الوثائق والمنشورات الخاصة بهذه الحملة .

* * *

وهو قد عنون له « بمظهر التقديس » لأنه اعتبر أن إجلاء الفرنسيين عن مصر واجب دينى مفروض له قدسيته وله روعته ، ولأن زعماء الشعب فى ذلك الوقت كانوا زعماء روحيين أو بالأحرى زعماء دينيين كان منهم نقيب الأشراف وشيخ الأزهر . . . و « مظهر التقديس » مظهر من

مظاهر ابتهاج المؤرخ بزوال الاحتلال ، ومشاركته الوجدانية لمواطنيه المصريين .

* * *

وأسلوب المؤرخ هو الأسلوب الغالب فى هذا العصر ، الأسلوب الذى يجمع بين العامية والعربية والتركية ، ويغلب عليه السجع .

ولم نشأ أن نغير من أسلوب المؤرخ إذ أن ذلك مما تقتضيه الأمانه العلمية وجعلنا نشره على جزءين تمشياً مع حجم سلسلة « اخترنا لك » .

ولعلنا بنشر هذا الأثر التاريخى العظيم تكون لجنة « اخترنا لك » قد أسهمت فى النهضة التاريخية فى العهد الحاضر الذى يعلى من كفاح الشعب ، ويذيع أمجاده التى طمستها العهود الماضية لمآرب فى نفسها ، ومحاولة منها لاطفاء الشعلة المقدسة ، شعلة الحرية التى هيهات أن تنطفئ .

والله يوفقنا ويسدد خطانا .

والله أكبر والعزة للعرب .

محمد عطا

بسم الله الرحمن الرحيم

حمداً لمن جعل كلمة الذين كفروا السفلى وكلمة الله هى العليا ، وجعل الدولة العثمانية ، والمملكة الخاقانية ، بهجة الدين والدنيا ، وصلاة وسلاماً على من نصر بالرعب والصبا ، وأشاد هذا الدين القويم بشبا السمهرية والظبا ، وعلى آله وأصحابه الداحضين لشوكة كل قامع متمرّد ، الفائزين ببذل نفيس نفوسهم بكل نصر بديع متجدد .

أما بعد فإن وقائع الأيام وخطوبها ، وحوادث الحادثات وكروبها ، لم تزل من حين خلق الله العالم متتالية ، وفى ضمن الليالى والأيام متوارية ، وهى بحسب اقتضاء التجليات ، ومظاهر الأسماء والصفات ، متنوعة إلى أنواع ، داخلة فى حيز الابداع والاختراع بما أودعه الله من الخصائص فى الآثار العلوية عند اقتران بعضها ببعض ، وارتباط المناسبات الخفية بينها وبين ما على وجه الأرض ، وذلك بحسب جرى العادة الإلهية له مسببات وحوادث يستدل عليها بتلك القرانات والمناظرات ، وقد أودع الله فى بعض خالصى النفوس البشرية ، والأرواح المجردة عن العلائق الجسمية ، والشهوات النفسية ، معرفة بعض تلك الحوادث إما بإلهام ، أو باكتساب ونظر فى علم الأحكام ؛ فبالنجم هم يهتدون وبالنظر فى ملكوت السموات والأرض يستدلون فيعرفون ، من غير أن ينسب لتلك

الآثار تأثيرات ، وإنما هى أسباب عادية وعلامات ؛ وأن من أعظم الدلائل على ما رُميت به مصر ، وحلّ به لأهلها تنوع البؤس والإصر ، بحلول كفرة الفرنسيس ؛ ووقوع هذا العذاب البئيس ؛ حصول الكسوف الكلىّ فى شهر ذى الحجة بطالع مشرق الجوزاء المنسوب إليه إقليم مصر ؛ وقد كان هؤلاء الأقوام وأمثالهم ممن لهم فى الخروج مشارك ولزوم الإفساد متربص متدارك ، كل يريد الحلول بأرضها ، والتفيؤ بظلال خصبها وروضها ؛ فيرجع بخفى حنين ، وتنقلب أمنيته منيةً وحين ؛ ولم تزل منذ وضع أساسها وأضاء فى ديجور الأقطار نبراسها ، محمية عن تطرّق أيدى المفسدين ، مصانة عن أن يطرق حماها عصابة المعتدين ، لا يطمع خارجىّ فى الحلول بساحتها ، ولا تحدثه نفسه بالتغلب على رياستها ؛ رهبة من سطو حماتها ، وأسود غيضاتها ؛ الذين كانوا من قديم الزمان كالشجى فى حلق العدو ، والحسام المجرّد فى وجوههم بحيث سلبهم الراحة والهدوء ؛ لا يتوجهون لجيش إلاّ هزموه ، ولا يحاربهم متغلب إلا غلبوه ؛ هؤلاء التتار قد استولوا على كل أرض ، وأنزلوا دولة كل ملك من شامخ إلى خفض ؛ كثيراً ما قهرتهم جند القاهرة ، وباءوا عند توجههم إليها بصفقة خاسرة ، بحيث لم تقم لهم بعد تلك الهزيمة دولة ، ولا تحقق منهم بعد تلك الغلبة صولة ؛ وذلك وقت أن كان الناس ناس والزمان زمان ، وجند أهل هذا القطر متيقظين لسداد الثغور بأبطال الرجال وعقبان الفرسان ؛ وأن الدولة العثمانية أبقاها الله وأشادها ، ووضع على

أساس العظمة والعزّ عمادها ؛ كانت وسدت أمور مصر لمن بها من الحكام ، اعتماداً على شهرة شجاعتهم وحماستهم السائرة بين الخاص والعام ؛ وتلك الحكام أيضاً اعتمدوا على سابق الشهرة ، وركنوا إلى الدهر ولم يأمنوا غدره ؛ فخربوا الثغور ، وأشادوا القصور ، واستبدلوا أبطال الرجال بربات الخدور والحجال وشجعان الفرسان ، بحيث أن الغلمان تسابقوا فى حلبة الكميت مع الخيلاء والزهور ؛ إلى ميدان كل خلاعة ولهو ؛ لا يردون إلاّ مورد مسرّة ، ولا يبالون بما أغفلوه من أسباب المضرّة ، غفل الدهر عنهم فناموا ، وظفروا بأمانيهم فترددوا فى جهالتهم وهاموا ، حتى قلقت مصر منهم واستقالت ، وللدولة العثمانية أبقاها الله شكت وقالت :

فليت لى بهم قوماً إذا ركبوا　　　شنوا الإغارة فرساناً وركبانا

وما دروا أن العدو لهم بمرصاد ، وأنه لا بدّ للدهر من يقظة يسترد بها ما وهب ويزداد ؛ وما هكذا تحفظ البلاد ، وتساس الرعايا والأجناد ؛ قال صاحبنا الآتى ذكره من قصيدة :

إنما هذه البلاد لأقوا　　　م حموها بالصارم المسلول
وأرى دولة المماليك مالت　　　لضروب اللذات بالتهبيل
واغتنوا عن تجريد سيف ورمح　　　بقوام لدن وطرف كحيل

ولما لم يقتفوا آثار من مضى من الدول ، وأضاعوا ما تعب فى

تأسيس قواعده الأول ؛ تطرّق الخلل لهذا القطر العظيم من كل جهة ، وأضحت وجوه محاسنه بما ابتدعوه مشوّهة ؛ فأصبح الغنيّ بالمصادرات فقير ، وعزّ بالتقرب إليهم من سفلة السعاة كل حقير ؛ ورغبوا عن الفضائل فدرست ، ومالوا إلى سفاسف الأمور فراج سوقها وربحت ؛ فقلت الفضلاء وكثرت الجهال ، وارتفع مقدار كل غنيّ فى كل حال ؛ ولقد كانت مصر مجمع الفضلاء ، ومركز النبلاء ، وقطب دائرة الفصحاء ومنشأ لبلغاء الكتاب والشعراء ؛ جمعت ما تفرق فى غيرها من المحاسن ، وورد أهلها من موارد اللذات شراباً غير آسن بها تخترع الصنائع البديعة ، ويشبط فيها كل نادرة رفيعة ؛ فلما دهمت الفرنسيس ثغرها الخالى ووقفت منه على طلل بالى ؛ سهل عليهم الحال فاقتحموه ، ودخلوا من باب الإقليم بدون أن يفتحوه ، وتقاعدت العساكر المصرية عن التسارع لاستنقاذ الثغر فعظم البلا ، وأخذ العدو يطوى بساط الأرض حتى إذا التقى الجمعان لم يسع القوم إلا الفرار فى الفلا ؛ فكم تركوا من جنات وعيون وزروع ، وأصبحوا مشتتين فى أقطار الأرض لا يقرّ لهم لب ولا روع ، وأناخت دولة الكفار بكلكلها على هذا القطر العظيم ، وانتشر فى أرجائه التتار انتشار السمّ فى جسد السليم ، فبالله من خطب فظيع ، وحادث جلل شنيع ؛ انمحقت به محاسن مصر الفريدة ، وتخلخلت قواعد مملكتها العتيدة ؛ فأصبحت مقهورة بعد أن كانت هى القاهرة ومطموسة المحاسن بعد أن كانت محاسنها لكل قطر باهرة شعر :

يلدة أوقاتها سحـــر   وصبا فى ذيله بلل
ونسيم عرفه أرج   ورياض غضها ثمل
ووجوه كلها غرر   وكلام كله مثل

وماذا يبلغ إطرائى ، أو يستوعب عقد ثنائى ؛ بعد ذكر الله لها فى آيات عديدة فى كتابه ، وتوصية النبىّ على أهلها لمعظم أصحابه ؛ ولم تزل أحاديث فضائلها على ألسنة المتقدمين والمتأخرين تتسلى ، وغرر محاسنها تتجدد فى كل وقت فلا تبيد ولا تبلى ، قد ملأت تلك الأحاديث أسفاراً ، وعمرت تلك المحاسن بلاداً وأقطاراً ؛ سحبت تلك المحاسن ذيل النسيان ، على غوطة دمشق وسغد سمرقند وشعب بوّان ؛ وجرى حديث نيلها المكرّر على كل لسان ، حتى كأن لم يكن ثمّ ذكر لسيحان وجيحان ، هذا وكم للناس فى وصف متنزهاتها ، وساحات مسراتها ما يجرى فى النفوس مجرى السلاف ، ويكون لرياض الأدب أبهى قطاف ؛ كقول موسى بن عيسى الهاشمى أمير مصر يصف جزيرة الحبش ، وقد خرج إلى الميدان الذى بطرف المقابر فقال لمن معه : أتتأملون لون ما أرى؟ فقالوا : وما الذى يرى الأمير ؟ فقال : أرى ميدان رهان ، وجنات نخل ، وبستان شجر ، ومنازل سكنى ، وذروة جبل ، وجبانة أموات ، ونهراً عجاجاً ، وأرض زرع ، ومراعى ماشية ، ومرتع خيل ، وساحل بحر ، وصائد نهر ، وقابض وحش ، وملاح سفينة ، وحادى إبل ، ومفازة رمل ؛ وسهلاً وجبلاً ؛ فهذه ثمانية عشر متنزهاً فى أقل من ميل ، وأنى

هذه الأوصاف من وصف بعضهم قصر أنس بالبصرة فى قوله :

زر وادى القصر نعم القصر والوادى ... لا بد من زورة فى غير ميعاد
زره فليس له شىء يشاكله ... من منزل حاضر إن شئت أو بادى
تلقى به السفن والأفراح حاضرة ... والنون والضب والملاح والحادى

ولقد كادت تعمّ الرزية ، وتصير القضية أندلسية ؛ لولا عناية من أيده الله بالنصر والتمكين ، ويلى عسكره المنصور مهما توجه لمعقل آية الفتح المبين ؛ وهو الملك الأعظم ، والسلطان الأفخم ؛ غياث المسلمين ، ملاذ المؤمنين ؛ رقاب الأمم ، ملجأ العرب والعجم ، حافظ ناموس الشريعة الغرّاء بقوة سطوته ، باسط بساط العدل والإحسان على كامل رعيته ؛ قامع الطغاة المعتدين ، مبيد الفجرة المتمردين ؛ سيف الله المسلول على كل طاغى ، قاطع أصل شجرة كل مفسد وباغى ؛ غيث الندى ، مجيب الندا ، قمر الهدى ، ليث العدا ؛ المحتف بعناية الرب الكريم ، مولانا السلطان الغازى سليم ، اللهم أدم مُلكه ، واجعل الدنيا بأسرها ملكه ؛ ولا تدع له عدواً إلاّ قصمته ، ولا مخالفاً إلا أهلكته ؛ واجعل اللهم رءوس الكفار حصيد السيوف عساكره ، وبلادهم داخلة تحت نواهيه وأوامره ، مخدومة عساكره بالعز والنصر أينما توجهت ، مقترنة بالظفر والفوز أينما سلكت ؛ فتوجهت انتصاراً للإسلام عزيمته ، وتسلمت لاستنقاذ مصر من أيدى أولئك الأشرار همته ، فوجه إليها بوجوه دولته ،

وعساكر حمايته ؛ من كل رئيس بصير بأمور العواقب ، مدبر الأمور على أوفق رأى صائب فطن بقوانين السياسة ، خبير بمراسم الرياسة ، حائز لكل فضيلة بقدر ، غرة فى جبهة الدهر ؛ وأضاء مصباح أذهانهم فى إيراد القضايا وإصدارها إذا أشكل الأمر :

هم القوم إن قالوا أصابوا وإن دعوا ... أجابوا وإن أعطوا أصابوا وأجزلوا
ولا يستطيع الفاعلون فعالهم ... وإن أحسنوا فيما أتوه وأجملوا

عصابة بذلوا نفوسهم فى تشييد الدين وتأييده ، واقتناء الذكر الحسن وتخليده ؛ وتشددوا فى إجراء الشريعة وإنفاذها ، وبددوا أرواح من خالفها لاستنقاذها :

قوم إذا لم يقبل الحق منهم ... ويمرضوه؟ عاذوا بالسيوف القواضب

أولئك النجوم الطوالع ، والغيوث الهوامع ؛ تزينت بهم سماء الممالك ، وأنارت بهم للرشاد مسالك ، ومولانا الوزير أيده الله شمس تلك السما ، وأساس افتخار أولئك الرؤساء ؛ صاحب السيف والقلم ، معدن العلم والحكم ؛ رافع علم الإسلام ، مشيد الشريعة والأحكام ؛ حائز أشتات الفضائل ، تاج الرؤساء والأماثل ؛ بهى الدين والدنيا ، مرتقى ذروة الشرف العليا ، سيف السلطنة المجرد لقمع الأعداء ، نبراسها المضىء فى سائر الأقطار والأرجاء ، مدبر بصائب رأيه قوانين المملكة ، منقذ الأمة المحمدية من التردى فى كل مهلكة :

إن عدّ أيام اللقاء فإنهـــا يومان : يوم ندى ويوم طعان
يكسو الأسرة والمنابر بهجة ويزينهـــا بفصاحة وبيان
تمضى أسنته ويسفر وجهه فى الحرب عند تغير الألوان

ألقت صعاب الحصون مقاليدها ليده ، وأصبح الدهر فى عداد عدته وعدده ؛ فيمينه الغراء ملثم شفاه الجبابرة ، وغمامة الكرم المغيثة الماطرة :

فباطنها للنـــدى وظاهرها للقبل
ونائلهـــا للغنى وسطوتها للأجل

وماذا عسى أن أصف من محاسنه الكريمة ، وأعدد من غرر فضائله الجسيمة ؛ وهو تاج المجاهدين الذين عليهم الحق قد أثنى ، ووعدهم فى مقابلة بيع نفوسهم فى مرضاته بالحسنى ؛ له المنة العظمى على المسلمين ، باستنقاذهم من أسر الكفرة المعتدين ؛ وردّ النوم إلى أجفانهم ، والأمن إلى أوطانهم ؛ بعد أن سلبوا نوماً وأمناً ، واستبدلوا بالسرور ذلا وحزناً :

إذا الوزير لنا جادت يداه ندى لم يحمد الأجودان البحر والمطر
وإن أضاءت لنا أنوار غرّتـــه تضاءل النيران الشمس والقمر
من لم يبت حذراً من خوف سطوته لم يدر ما المزعجان السيف والحذر
ينال بالظن ما يعيا العيـــان به والشاهدان عليه العين والأثـــر
كأنـــه وزمام الملك فى يـــده يرى عواقب ما يأتى وما يذر

اللهم اجعل أيامه كلها سعيدة ، ومفاخره مشيدة عتيدة ؛ والنصر حيث سار يقدمه ، والعز أينما توجه يخدمه ؛ بالغاً بمزيد الإجلال أمانيه ، مشكوراً على ألسنة العالم مساعيه ؛ محموداً فى إيراده وإصداره ، ممدوحاً فى علانيته وأسراره ؛ منقادة إليه من الأمور أسبابها ، مذللة لديه صعابها ؛ تنشده كل يوم ألسن المعالى ، على ممرّ الأيام والليالى :

بقيت بقاء الدهر يا كهف أهله   وهذا دعاء للبرية شامل

ثم من الاتفاقات التى يتفطن لها الأريب ، وينقاد لحكمتها اللبيب أن مصر إذا شوّهت محاسنها ، وغصت بشرار الدولة مساكنها ؛ لا يكون نظيرها من أرجاسها وإعادة ما ذهب من بهجتها وإيناسها ؛ إلا بمن تسمى بهذا الاسم الشريف أعنى يوسف ، فهو الذى بهذه المنقبة ينعت ويوصف ؛ وهذا من السرّ البديع الذى أودعه الله فى المسمى به ، وارتباط الخصوصية بينه وبين إصلاح حال مصر وأنه إذا حلّ بها دولة خاسرة فى الغالب لاتزال إلا بمن اسمه يوسف ، ووجود الخصوصيات ، والارتباط بالمناسبات الطبيعية ، والأسرار الفلكية ، أمر شوهد من بعضه ما لا يصح معه أن ينكر باقيه ؛ فإن الله قد جعل فى كل شىء من المخلوقات خصوصيات فى نفسه ، وخصوصيات يقع الارتباط بها بينه وبين بعض الأشياء المشاكلة له حتى الألفاظ كما هو معلوم ، لكن تلك الخصوصيات لا يطلع عليها إلا من أحاط بكل شىء علماً ، وقد أطلعنا الله على

بعضها ، منها الخصوصية فى هذا الاسم ، والشاهد على ذلك أن أول يوسف أصلح حال مصر وبنى فيها إقليماً كبيراً ، وهو إقليم الفيوم ، ووضع مقياساً للنيل ، وحفر الخليج المسمى الآن ببحر يوسف ، ونصب الجسور ، ودبر معاش الناس فى الجدب المتوالى سبع سنين ، ولولا ذلك التدبير لهلكوا ، وهو يوسف الصديق عليه السلام ، ويوسف صلاح الدين هو الذى استنقذها من الفواطم ، وأزال البدعة ، وأظهر السنة ، وبنى قلعة الجبل ، وجدد دولة الأكراد التى هى من خير الدول وكذلك لما قدم المغفور له السلطان سليم الأكبر إلى مصر كان وزيره يسمى يوسف باشا ، فتوفى قبل دخوله إلى مصر ، فحزن السلطان عليه حزناً شديداً حتى قال : ما نصنع بمصر من غير يوسف ؟ ومولانا الوزير أبقاه الله هو ثالث من ملك مصر ممن تسمى بهذا الاسم وانفرد بهذه الخصوصية ، لأنه أزال دولة الكفار ، وجدد دولة الأخيار ، وعادت به بهجة مصر بعد انمحاقها ، وأشرقت شمس طلعته على آفاقها ؛ فانصلح بعد الفساد حالها ورد إليها بعد التشوه جمالها ، وإلى هذا المعنى يشير صاحبنا الآتى ذكره :

يوسف الصديق النبىء إليه ملك مصر من بعد فرعون صارا
فأزال الشقاء عنها وفاقت كل قطر نضارة ونضـــارا
وصلاح للدين يوسف قد أذ هب من دولة الفواطم عسارا
وبه دولة الكرام من الأك راد شادوا للدين فيها منارا

ثم قد جاءها الوزير مزيلاً — للفرنسيس حتى أضلوا الديارا
وأذاقوا أبناءها كأس ذلّ — واستباحــوا المحرمات جهارا
فأزيلت بعزمه دولة الكفـ — ـر ونجم السرور فيها استنارا
أصبح الحقّ ظاهراً بالعوالى — يتسامى وضـــده يتوارى
يا لهـــا نفرة بها كمل السعـ — ـد وشادت للمسلمين فخارا
فجزاه الديان خـــير جزاء — وحباه مهما يؤم انتصارا

ولما استقر بمصر ركابه الشريف ، وأعاد المسلمين بعد انحطاط رتبتهم لمقامهم المنيف ؛ واستنارت بمقدمه البلاد ، وابتهج بالسرور جميع العباد ؛ فعاد لمصر بعد الهرم شبابها ، ورتعت فى ميادين المسرّة صحابها ؛ وطلعت شمسها المنيرة بعد الظلام ، وردّ إليها ما سلبته من محاسنها الأيام

كان ذلك — ولله الحمد — مصداق قوله تعالى وهو أصدق القائلين : (إن الأرض لله يورثها من يشاء من عباده والعاقبة للمتقين) .

ونعم العاقبة لمصر بحلول ركاب مولانا الوزير فيها ، وطلوع نجم عساكره فى آفاق نواحيها ؛ فابتهجت بهم مصر وأضاءت ، وتاهت على سائر الأقاليم وباهت .

ولقد كنت سطرت ما حصل من الوقائع ، من ابتداء تملك الفرنسيس لأرض مصر إلى أن دخلها مولانا الوزير فى أوراق ، غير منظومة فى سلك الاجتماع والاتفاق ، وكثيراً ما كان يخطر ببالى ، وإن لم يكن ذلك من

شأن أمثالى ؛ أن أجمع افتراقها ، وأكسبها بالترصيف اتساقها ؛ ليكون ذلك تاريخاً مطلعاً للبيب على عجائب الأخبار ، وغرائب الآثار ؛ تذكرة بعدنا لكل جيل، وإحاطة بهذا الخطب الجليل ؛ فيتأسى إذا لحقه مصاب ، ويتذكر بحوادث الدهر (إنما تذكر أولوا الألباب) ؛ فإن هذه الحوادث غريبة فى بابها، متنوعة فى عجابها ؛ وكان ممن اعتنى أيضاً بجمع بعض تلك الأخبار ونقل غرائب هاتيك الآثار ؛ قطب الفضلاء ، تاج النبلاء؛ ذو الذكاء المتوقد ، والفهم المسترشد ؛ الناظم الناثر ، الآخذ من العلوم العقلية والأدبية بحظ وافر ؛ صاحبنا العلامة حسن بن محمد الشهير بالعطار ، نظمنا الله وإياه فى سلك الأخيار ؛ فضممت ما نحقه مع بعض من منظومه ومنثوره بحسب المناسبة إلى هذا السفر ، لينتظم معنا فى سلك حسن الذكر ؛ وسميناه (مظهر التقديس بذهاب دولة الفرنسيس) .

وإنا لنرجو ممن اطلع عليه ، وحل بمحل القبول لديه ، ألا ينسانا من صالح دعواته ، وأن يغضى عما عثر عليه من هفواته .

مقدمة

اقتضت الحكمة الربانية ، والأسرار الإلهية ، نصب خليفة به يرتبط للعالم نظامه ، وتجرى عليه بحسب مطابقة قوانين الشرع أوامره وأحكامه ؛ أن النوع الإنسانىّ بحسب ما أودع فيه من فضيلة العقل ، وكمال الحدس ، وسرّ النطق ، ما فضل به على سائر الحيوانات ، وامتاز به عن العجماوات والجمادات ، وكل لتدبير نفسه فى معاشه ومعاده ، واحتاج لمخالطة أبناء جنسه ، للتعاون على قضاء أغراضه ولوازمه ؛ ومعلوم أن الأغراض متخالفة ، والعقول متباينة ، والطباع متنوعة وكل ذلك يستدعى اتفاقاً بين الخلائق فى أمور ، وافتراقاً فى أخرى وإنقاذ غرض عن غرض؛ وقد وضع الله الشريعة المطهرة قانوناً تجرى عليه جزئيات الأفعال الصادرة عنا لتنتظم الأفعال كلها فى سلك واحد، ولا بدّ من ذى سطوة وقوة يُجرى الناس على تلك القوانين الشرعية ، وينتظم به أمر هذا النوع لئلا يهلك الضعيف بالقوى ، ويغلب الشريف على الوضيع ؛ وترجع الناس إلى تحسين عقولها ، والمشى مع أغراضها ، وما وافق طباعها ، فيختل نظامهم ، وتخف أحلامهم ؛ فيلحقون بمهملات البهائم ، وراتعات السوائم .

وكان أول خليفة جعل فى الأرض آدم عليه السلام ، بمصداق

قوله تعالى : (إنى جاعل فى الأرض خليفة) ، ثم توالت الرسل بعده ، لكنها لم تكن عامة الرسالة ، بل كل رسول أرسل إلى فرقه ، فهؤلاء الرسل عليهم السلام مقدرون شرائع الله بين عباده ، وملزموهم بتوحيده وامتثال أوامره ونواهيه ، ليترتب على ذلك انتظام أمور معاشهم فى الدنيا ، وفوزهم بالنعيم السرمدى إذا امتثلوا فى الأخرى .

ثم جاء بعدهم الرسول الأكبر ، والنبى الأعظم ؛ سيدنا محمد صلى الله عليه وسلم فكان خاتمهم ، وناسخاً لكل شريعة تقدمته ، بل هم فى الحقيقة نوابه ، بشهادة قوله تعالى : (وإذ أخذ الله ميثاق النبيين لما آتيتكم من كتاب وحكمة ثم جاءكم رسول مصدق لما معكم ليؤمنن به ولتنصرنه قال أأقررتم وأخذتم على ذلكم إصرى قالوا أقررنا قال فاشهدوا وأنا معكم من الشاهدين) . فبعث صلى الله عليه وسلم والناس مختلفة فى أديانهم ، ضالة عن طريق الحق ، عاكفة على أوثانهم ، فهو (الذى أرسله الله بالهدى ودين الحق ليظهره على الدين كله) وأمره بالصدع به والإعلان ، وتطهيره من عبادة الأوثان ، وأرجاس الشيطان ؛ وآمن به الكثير من الصحابة رضوان الله عليهم (وعزروه ونصروه وأتبعوا النور الذى أنزل معه أولئك هم المفلحون) .

فلم يزل هذا الدين القويم من حين بعث النبى صلى الله عليه وسلم يزيد وينمو ، ويتعالى ويسمو ، حتى تم ميقاته ، وقربت من النبى وفاته ؛ فأنزل الله عليه وهو واقف بعرفه آخر وقفة وقفها : (اليوم أكملت

لكم دينكم وأتممت عليكم نعمتى ، ورضيت لكم الإسلام ديناً) .

ولما قبض صلى الله عليه وسلم قام بالأمر بعده أبو بكر الصديق رضى الله عنه ، ثم عمر ، ثم عثمان ، ثم علىّ ، ولم تصف له الخلافة بمغالبة معاوية رضوان الله عليهم أجمعين فى الأمر ؛ وبموت علىّ رضوان الله عليه تمت مدة الخلافة التى نصّ عليها النبىّ صلى الله عليه وسلم بقوله : الخلافة بعدى ثلاثون سنة ، ثم تكون ملكاً عضوضاً وبخلافة معاوية عليه السلام كان ابتداء دولة الأمويين ؛ وانقرضت بظهور أبى مسلم الخراسانى وإظهاره دولة بنى العباس وقتل مروان الحمار ؛ فكان أول دولة بنى العباس السفاح وظهرت دولتهم الظهور التام ، وبلغت القوة الزائدة ، والضخامة العظيمة بحيث أنه لم يبق فى زمن الخليفة هارون الرشيد كافر إلا أدى الجزية ، ثم أخذت فى الانحطاط بتغلب الأتراك وظهورهم وقتلهم المتوكل وتغلبهم على الخلفاء ، وضعف أمرهم بالديلم والسلجوقية ، ولم تزل منحطة حتى خرج هولاكو فأباد العالم وملك بغداد ، وقتل الخليفة المستعصم ، وهو آخر خلفاء بنى العباس ببغداد ، وفى مدة ضعف الخلافة تغلب على النواحى كل متملك لها ، وانفرد ابن طولون بمملكة مصر والشام وذريته من بعده ، ثم الإخشيد وبعده كافور ممدوح المتنبىّ ، ثم قدم جوهر القائد من المغرب بعد موت كافور من قبل المعزّ فملكها من غير ممانع ، وأسس القاهرة والجامع الأزهر ، وقدم سيده المعزّ ، وهو أول الفواطم ، فملكوا نيفاً ومائتين من السنين إلى أن ضعف أمرهم

فى أيام العاضد وسوء سياسة وزيره شاور فتملكت الإفرنج بلاد السواحل الشامية ، وظهر بالشام نور الدين محمود بن زنكى ، فبذل همته فى الجهاد ، واستنقذ منهم عدة من البلاد التى استولوا عليها ، وكانت الحرب بينهم وبينه سجالا ، وقد كانت الإفرنج فى زمن العاضد إلى بلبيس وصلت ، ولإقليم مصر أرهبت وأزعجت ، وضربت على أهله الضرائب ، ووقعت الحروب بين الفريقين تكون الغلبة فيها على المصريين لسوء تدبير مشير الدولة ، ثم أنه أشار بحرق الفسطاط ، فأمر الناس بالجلاء عنها ، وأرسل عبيده بالشعل والنفوط ، فأوقدوا فيها النار فاحترقت عن آخرها ، واستمرت النار بها أربعة وخمسين يوماً ، وأرسل الخليفة العاضد يستنجد نور الدين الشهيد ، وبعث إليه بشعور نسائه ، فأرسل إليه جنداً كثيفاً وعليهم أسد الدين شيركوه وأخوه الناصر يوسف صلاح الدين ، فحصل النصر ، وارتحل الإفرنج عن البلاد وقبض أسد الدين على الوزير وصلبه ، ولم يزل هو وأخوه يعملان الحيلة فى المملكة وإظهار السنة وإخفاء البدعة ، واستوزر الخليفة العاضد أسد الدين ، فتوفى ، وأقام عوضه فى الوزارة الناصر يوسف ، فبذل همته فى مقصده ، وظهر أمره لخليفته ، فأثار فتنة فى جنده ليتوصل بها إلى هزيمة الأكراد وإخراجهم من بلاده ، فتفاقم الأمر ، وانشقت العصا ، ووقعت حروب بين الفريقين أبلى فيها الناصر يوسف وأخوه شمس الدولة بلاء حسناً ، وانجلت الحروب عن نصرتهما ، وخذلان العسكر الفاطمى ، فعند ذلك ملك الناصر القصر ،

وضيق على الخليفة وحبس أقاربه وأولاده وقتل أعيان دولته وأخذ أموالهم ، واحتوى على ما فى القصور من الذخائر والأموال وصرفها فى الغزو والجهاد ومصالح المسلمين ، وهلك العاضد قهراً ، وأظهر الناصر يوسف الشريعة المحمدية ، وطهر الإقليم من البدع والتشييع والعقائد الفاسدة ، وأظهر عقائد أهل السنة والجماعة وهى عقائد الأشاعرة والماتريدية ، وبعث إليه أبو حامد الغزالى بكتاب ألفه له فى العقائد ، فحمل الناس على العمل بما فيه ، ومحا من الإقليم مستنكرات الشرع ، وأظهر الهدى .

ولما توفى نور الدين الشهيد انضم إليه ملك الشام وواصل الجهاد وأخذ فى استخلاص ما تغلب عليه الكفار من السواحل وبيت المقدس ، وحارب من خالفه من ملوك الأطراف ، واتسع ملكه ، وافتتح الفتوحات الكثيرة ، وأخذ البلاد الفراتية وديار بكر وغيرها ، ولم يزل على ذلك إلى أن توفى إلى رحمة الله تعالى ، وأنفق جميع ماله فى الغزو حتى قيل : إنه لم يترك إلا أربعين درهماً ؛ ولما مات استقر الأمر لأولاده وأولاد أخيه العادل ، وحضر الإفرنج أيضاً إلى مصر فى أيام الملك الكامل أبى العادل ، وملكوا دمياط وهدموها ، فحاربهم شهوراً حتى أجلاهم ، وعمرت بعد ذلك دمياط هذه الموجودة الآن فى غير مكانها ، وكانت تسمى بالمنشية ؛ وحضروا أيضاً فى دولة الملك الصالح ، نجم الدين أيوب الكردى من أولاد العادل ، فملكوا دمياط أيضاً ، وزحفوا إلى فارسكور ، واستمر الملك الصالح يحاربهم أربعة عشر شهراً وهو مريض ، وانحصر

جهة الشرق، وأنشأ المدينة المعروفة بالمنصورة ؛ وثقل مرضه ومات ، وأخفت زوجته شجر الدر موته ، ودبرت الأمور حتى حضر ولده توران شاه من حصن كيفا ؛ وكانت الكفار قد انهزمت قبل مجيئه شر هزيمة ، وأسر ملكهم ، وكانت الفرنج هم طائفة الفرنسيس ، والملك الصالح هو أول من اشترى المماليك وأمرّهم بمصر ، وبنى لهم قلعة الروضة ، وأعدهم للجهاد، وسمّاهم المماليك البحرية ؛ وبعد هزيمة الفرنج استوحش المماليك من ابن سيدهم ، فغدروه وقتلوه ، وآل الأمر لتملكهم، فكان أولهم أيبك التركمانى ، ولما مات ولوا ابنه المظفر علىّ ، فوقعت حادثة التتار ، فخلع المظفر لصغره، وتولى قطز ، فحارب التتار وظهر عليهم بعد أن كانوا ملكوا بغداد ومعظم المعمور من الأرض وقهروا كلّ ملك ، ثم تولى الملك الظاهر بيبرس أبو الفتوحات البند قدارى وأولاده ثم الملك المنصور صاحب الخيرات قلاوون الألفى .وأولاده : منهم الأشرف خليل ، والملك الناصر محمد وطالت مدته ، وتولى من أولاده بمصر اثنى عشر سلطاناً، وفى أيام ابن ابنه الملك الأشرف شعبان بن حسين حضرت الفرنج إلى الإسكندرية على حين غفلة وملكوها ونهبوا أموالها وأسروا نساءها ، ووصل الخبر إلى مصر ، فتجهز الأشرف وسار بعساكره ، فوجدهم قد ارتحلوا عنها وتركوها ، ولهذه الواقعة تاريخ اطلعت عليه فى مجلدين ؛ ويقال : أن الفرنساوى الذى يكون فى أذنه قرط أمه أصلها من النساء المأسورات فى تلك الوقعة .

ثم كانت دولة الجراكسة ، وأولهم الملك الظاهر برقوق الشمالى من مماليك الملك الناصر حسن بن محمد بن قلاوون ، فاستمر الملك فيهم وفى بنيهم إلى أن كان آخرهم الملك الأشرف قانصوه الغورى ، فلم يزل فى الملك إلى أن كان ما كان بينه وبين السلطان الأكبر ، والملك الأفخم السلطان المجاهد المغازى ، قامع كلّ عدو وله على مخالفته مجازى (مولانا السلطان سليم خان) ووقع بينه وبين الأشرف الغورى ما هو مسطر فى محله ؛ ولما استقر أمره بملك مصر عفا عن الكثير من الجراكسة وأبنائهم ، ورتب الخيرات والعلوفات ، وقدر مرتبات الأوقاف وغلال الحرمين والأنبار ، ورتب علوفات الأيتام والمشايخ والمتقاعدين ، ومصارف القلاع والمرابطين ؛ وأبطل المظالم ، ورفع المكوس والمغارم ؛ وغير ذلك مما تقصر عنه العبارة ، ويعلم بعضها من المعنى والإشارة ؛ حتى قيل : إنه لم يصحب من مصر شيئاً سوى اكتساب جميل الذكر ونفاذ الهمة ، واتساع المملكة :

إن الأسود أسود الغاب همتها يوم الكريهة فى المسلوب لا السلب

ولما انتقل إلى رحمة مولاه ، وتولى بعده الملك الأعظم ، والخاقان الأعظم ؛ صاحب المناقب المشهورة ، والمآثر الحميدة المنشورة ؛ حضرة السلطان المغازى سليمان ، عليه الرحمة والرضوان ؛ فأسس القواعد ، وتمم المقاصد ، ونظم الممالك ، وأنار الحوالك ؛ ورفع منار الدين ، وأخمد نيران الكافرين ؛ وسيرته الجميلة غنية عن التعريف ، وتراجمه مشحونة

بها التصانيف ؛ ولم يزل هذا شأنهم أدام الله أيامهم من عهد جدهم الأعلى غازى عثمان دائماً إن شاء الله تعالى لآخر الزمان ؛ باقية دولتهم ، قائمة دعوتهم ، قوية شوكتهم ، وافرة حرمتهم ، نافذة سطوتهم ، مفروضة طاعتهم ؛ فإنهم من خير من تقلد أمور الأمة بعد الخلفاء المهديين ، وأشد من ذب عن الدين ، وأعظم من جاهد فى المشركين ؛ فلذلك اتسعت ممالكهم ، بما فتحه الله على أيديهم وأيدى نوابهم ؛ وملكوا أحسن المعمور من الأرض ، ودانت لهم الممالك فى الطول والعرض ؛ هذا مع عدم إغفالهم الأمور ، وحفظ النواحى والثغور ؛ وإقامة الشعائر الإسلامية ، والسنن المحمدية ؛ وتعظيم العلماء وأهل الدين وخدمة الحرمين الشريفين والتمسك فى الأحكام والوقائع ، بالقوانين والشرائع ؛ فتحصنت دولتهم ، وطالت مدتهم ؛ وهابتهم الملوك ، وانقاد لهم الممالك والملوك .

وقد استمر ملك مصر متشرفاً بانتظامه فى ممالك الدولة العثمانية أبقاها الله تعالى إلى وقتنا هذا وما فيها من الحكام فنوابهم وخدامهم .

ثم إن من اطلع على كتب التواريخ وطالع أخبار الدول ، يرى أن كل دولة لابد أن يتحقق فيها شىء من البدع يخالف الشرع ؛ فإن فى ، دولة الأمويين كان يسب سيدنا على على المنابر ، حتى أبطله عمر بن عبد العزيز وجعل بدله فى الخطبة : (إن الله يأمر بالعدل والإحسان) .

وفى دولة العباسيين ظهر القول بخلق القرآن ، وامتحن بسبب ذلك كثير من العلماء وأعاظم المجتهدين حتى بطل فى زمن الواثق ؛ وأما دولة

الفواطم فكانت كلها بدع ومساوى ، وكذلك كل دولة تنمو ، فى أولها وتضعف فى آخرها ، وقد برأ الله تعالى دولة آل عثمان أبقاها الله عن كل من هذين ، وهذه منقبة مختصة بملكهم ، وكذلك لم تزل قوتها متزايدة ، وعماد قواعدها إلى ذروة العز والشرف متصاعدة :

ويزيدها مرّ الليالى جدة   وتقادم الأيام حسن شباب

أيدها الله بأسود أجناد أينما سلكوا ملكوا ، وآبوا بالغنائم التى أثمرها النصر ؛ ولم يتفق أنه من حين تملكهم لمصر تطرق إليها شرار أشرار ، أو للدخول فيها عصابة كفار ، سوى هذه الحادثة التى وقعت ، ولكنها غير فادحة فى محاسن حيازتهم ، وضخامة صيانتهم ، وقوة شوكتهم ، وسرعة نصرتهم ؛ فإن المقضىّ واقع ، والمقدر ليس له دافع ؛ وما زالت الأيام تأخذ وتعطى ، وسهام التدبير تصيب وتخطئ ؛ والحروب سجال والمقدور بآجال ؛ والعبرة فى الأمور بعواقبها ، وكانت العاقبة لكونها للمتقين بحمد الله حميدة ؛ وقد مضت والشكر لله الأيام المنحوسة ، وأقبلت الأيام السعيدة ؛ شعر :

سعد الزمان وساعد الإقبال   ودنا المنى وأجابت الآمال

على أن ما وقع من هؤلاء الأشرار ، وخسرة الكفار ؛ خلسة مغافل ، وغدر عدو جاهل ؛ وسارق وجد أبواب الدار مفتحة فدخلها ، ولو كان

ثم حارس لما سلكها ؛ وقد انقشعت سحابة صيفهم ، وتدفق عليهم من عارض ما توسموه شآبيب حنقهم (فغلبوا هنالك وانقلبوا صاغرين) ، (وأصبحوا على ما أسروا فى أنفسهم نادمين) .

فصل

وأول شرح القضية أنه فى يوم الأحد العاشر من شهر محرم الحرام افتتاح سنة ثلاث عشرة ومائتين وألف ، وردت مصر مكاتبات على يد السعاة من ثغر الإسكندرية مضمونها أن فى يوم الخميس ثامن الشهر المذكور حضر إلى الثغر عشر مراكب من مراكب الإنجليز ووقفوا على البعد بحيث يراهم أهل الثغر ، وبعد قليل حضر خمسة عشر مركباً أيضاً ، فانتظر أهل الثغر ما يريدون وإذا بقايق صغير واصل من عندهم وفيه عشرة أنفار ، فوصلوا البرّ واجتمعوا بكبار البلد والرئيس إذ ذاك فيها والمشار إليه بالإبرام والنقض السيد محمد كريم الآتى ذكره فكلموهم واستخبروهم عن غرضهم ، فأخبروا أنهم انجليز حضروا للتفتيش على الفرنسيس لأنهم خرجوا بعمارة عظيمة يريدون جهة من الجهات ولا ندرى أين قصدهم ، فربما هجموكم فلا تقدروا على دفعهم ولا تتمكنوا من منعهم ، فلم يقبل السيد محمد كريم منهم هذا القول وظن أنها مكيدة ، وجاوبوهم بكلام خشن ؛ فقالت رسل الإنجليز لهم : نحن نقف بمراكبنا

فى البحر محافظين على الثغر وتمدونا بماء وزاد بثمنه ، فلم يجيبوهم لذلك وقالوا : هذه بلاد السلطان ، وليس للفرنسيس ولا غيرهم عليها سبيل ؛ فاذهبوا عنا ، فعندها عادت رسل الإنجليز وأقلعوا فى البحر ليمتاروا من غير الإسكندرية وليقضى الله أمراً كان مفعولا ثم أن أهل الثغر أرسلوا إلى كاشف البحيرة ليجمع العربان ويحضر لمحافظة الثغر ، فلما قرئت هذه المكاتبات بمصر وقع بها اللغط الكثير بين الناس وتحدثوا بذلك فيما بينهم وكثرت القالة ولاحت لوائح الأراجيف .

ثم ورد فى ثالث يوم بعد ورود المكاتيب الأول مكاتبات مضمونها أن المراكب التى وردت الثغر عادت راجعة ، فأطمأن الناس ، وبطل القيل والقال ؛ وأما الأمراء فلم يهتموا بشىء فى ذلك ولم يكترثوا به اعتماداً على قوتهم ، وزعمهم أنه إذا جاءت جميع الفرنج لا يقفون فى مقابلتهم وأنهم يحطمونهم بسنابك الخيول ، ويحصدون رءوسهم ببوارق السيوف .

فلما كان يوم الأربعاء العشرون من الشهر المذكور وردت مكاتبات من الثغر ومن رشيد ودمنهور بأن فى يوم الأثنين ثامن عشر جاءت مراكب للفرنسيس كثيرة فأرسوا فى البحر وأرسلوا جماعة يطلبون القنصل وبعض أهل البلد ، فنزلوا لهم ، وعوقوهم فى المراكب وفى الليل تحولت مراكب جهة العجمى وأنزلوا آلات الحرب والعساكر ، فلم يشعر أهل الثغر فى وقت الصباح إلا والعساكر كالجراد المنتشر حول البلد ، فعندها خرج أهل الثغر وما انضم إليهم من كاشف البحيرة والعربان المجتمعة معه ،

فلم يستطيعوا مدافعتهم ، ولا أمكنهم ممانعتهم ؛ فانهزم كاشف البحيرة وما « من »معه من العربان ، ورجع أهل الثغر إلى التترس فى البيوت والحيطان ؛ ودخلت الفرنج البلد ، وانبث فيها الكثير من ذلك العدد ؛ كل ذلك وأهل البلد لهم بالرمى بالبنادق يدافعون ، وعن أنفسهم وأهليهم يقاتلون ويمانعون ؛ فلما أعياهم الحال ، وعلموا أنهم مأخوذون بكل حال ؛ وليس ثم عند أهل البلد للقتال استعداد ، لخلو الأبراج من آلات الحرب والبارود وكثرة العدو وغلبته ، طلب أهل الثغر الأمان فأمنوهم ، ورفعوا عنهم القتال ومن حصونهم أنزلوهم ؛ ونادى الفرنسيس بالأمان فى البلد ورفع بنديراته عليها ، وطلب أعيان الثغر ، فحضروا بين يديه : فألزمهم بجمع السلاح واحضاره ، وأن يضعوا الجوكار فى صدورهم فوق ملبوسهم ؛ والجوكار ثلاث قطع من الجوخ أو الحرير أو غير ذلك مدورة فى قدر الريال سوداً وحمراً وبيضاً ، يوضع بعضها فوق بعض بحيث تكون كل دائرة أقل من التى تحتها حتى تظهر الألوان الثلاثة كالدوائر المحيط بعضها ببعض وطلبوا الكلف والمال .

ولما وردت هذه الأخبار مصر حصل للناس الانزعاج ، وعول أكثرهم على الفرار والهجاج ؛ وأما ما كان من حال الأمراء فإن إبراهيم بك ركب لقصر العينى ، وحضر عنده مراد بك من الجيزة لأنه كان مقيماً بها ، وحضر بقية الأمراء والقاضى والعلماء ، وتكلموا فى شأن هذا الأمر الذى وهم المسلمين ، فاتفق الرأى على أنهم يرسلون مكاتبة للدولة

بخبر هذه الحادثة ، فأرسلها باشا مصر إذ ذاك وهو بكر باشا على يد قاصد من جهة البرّ ، ويجهزون عسكراً يكون كبيره مراد باك وانفضّ المجلس على ذلك ، فأخذت العساكر فى الاستعداد للسفر وجمع مهمات الحرب ، فمكثوا نحو خمسة أيام يجهزون الأقوات والبارود وغير ذلك من القرب والخيم ، ومصر فى كرب زائد من هذا الأمر ومما ورد عليهم من الخبر ، فإن العساكر لم يكن عندهم استعداد لمثل هذا ، ولم تسمح نفوسهم ببذل الأموال فى هذا المهم ، فصاروا يصادرون الناس ويأخذون أغلب ما يحتاجونه بدون ثمن .

ثم ارتحل مراد بك بعد صلاة الجمعة وبرز خيامه ووطاقه إلى الجسر الأسود ، فمكث به يومين حتى تكامل ما «من» معه من العسكر وهم صناجعة وعلى باشا الطرابلسى وناصف باشا فإنهما كانا من أخصّائه ومقيمين معه بالجيزة ، وأخذ معه عدة كثيرة من المدافع والبارود وسافر فى البر مع العساكر الخيالة ؛ وأما الرجالة وهم الالعناشات ؟ والغليونجية والمغاربة فإنهم سافروا فى البحر مع الغلايين الصغار التى كان صنعها مراد باك ؛ ولما ارتحل من الجسر الأسود أرسل إلى مصر يأمر بعمل سلسلة من الحديد فى غاية الثخن والمتانة طولهامائة وثلاثون ذراعاً ، تنصب عند بوغاز رشيد عند برج منيزل من البر الشرقى للغربى لتمنع من عبور مركب الفرنسيس لبحر النيل ، وذلك بإشارة على باشا ، وأن يعمل عندها جسر من المراكب ويعمل عليها متاريس ومدافع ظناً منهم أن الفرنج لا يقدرون على مقاتلتهم

فى البرّ ، وأنهم يعبرون بالمراكب فى بحر النيل ، ويقاتلونهم وهم فى المراكب ، وأنهم يصابرونهم ويطاولونهم فى القتال حتى تأتيهم النجدة ؛ وكان الأمر بخلاف ذلك ، فإن الفرنسيس عند ما ملكوا الإسكندرية تجهزوا سريعاً للتوجه إلى مصر من جهة البرّ بحيث أنهم التقوا مع مراد بك عند الرحمانية كما سيأتى :

وفى أثناء خروج مراد بك بالعساكر وسفره بدت الوحشة فى الأسواق، وكثر الهرج بين الناس والإرجاف ، وانقطعت الطرق ، وأخذت الحرامية فى كل ليلة تطرق أطراف البلد وتنقطع الطرق من المغرب ، فلا تكاد تجد أحداً يمشى ، فنادى الأغا والوالى بفتح الأسواق والقهاوى ليلاً وتعليق القناديل على البيوت والدكاكين ، وذلك لأمرين : الأول إذهاب الوحشة من القلوب وحصول الاستئناس ، والثانى الخوف من الدخول فى البلد .

وفى يوم الاثنين وردت الأخبار بأن الفرنسيس وصلوا إلى دمنهور ورشيد ، وخرج معظم أهل تلك البلاد على وجوههم ، فذهبوا إلى « فوّا » ونواحيها والبعض أقام ببلده وطلب الأمان فأمن ؛ وقد كانت الفرنسيس حين حلولهم بالإسكندرية كتبوا مكتوباً وطبعوه ، وأرسلوا منه نسخاً إلى البلاد التى يقدمون عليها تطمينا لهم ومكيدة لئلا تعص البلاد وتحاربهم فأوهموهم فيه أنهم قدموا من طرف السلطان وأنهم جاءوا ليزيلوا عنهم الظلم ووصل المكتوب مع جملة من الأسارى الذين وجدوهم بمالطة فإنهم

أحضروهم معهم ، وقبل الحرب الذى وقعت بإنبابة بيوم أرسلوا هؤلاء الأسارى فى مراكب لبولاق حيث عرضوا على إبراهيم بك ومعهم عدة نسخ من هذا المكتوب ومعهم جواسيس من كفار مالطة متزيين بزىّ الأسارى لأن كفار مالطة يعرفون العربية ويتكلمون بلغة المغاربة ، فلا يكادون يمتازون عن الأسارى ؛ فكانت هذه أيضاً من المكايد الحربية حيث أرسلوا الأسارى الذين معهم لمن ببولاق توصلا لإخفاء الجواسيس فيهم ، وليقع فى أوهام الناس أنهم لا يأسرون أحداً لأنهم قد خلصوا الأسارى وصارت الجواسيس الذين على هيئة الأسارى من المالطية توسوس للناس ، وتحل عزائمهم عن القتال ؛ وتتبع حال المرضى ، ثم فى يوم الحرب خفى الكثير من هؤلاء الأسارىِ فلا يدرى أنى ذهب وما ذهب فى الحقيقة إلا إلى « عرضى » الفرنسيس ليخبرهم بما شاهد .

ونص المكتوب المرسل : بسم الله الرحمن الرحيم لا إله إلا الله لا ولد له ولا شريك فى ملكه ، من طرف الجمهور الفرنساوى المبنى على أساس الحرية والتسوية السر عسكر الكبير بونابارت أمير الجيوش الفرنساوية يعرف أهالى مصر جميعهم أن من زمان مديد السناجق الذين يتسلطنون فى البلاد المصرية يتعاملون بالذل والاحتقار فى حق الملة الفرنساوية ويظلمون تجارها بأنواع البلص والتعدى ، فحضر الآن ساعة عقوبتهم وأحسرنا من مدة عصور طويلة هذه ألزمها المماليك المجلوبين من بلاد الأبازا والكرجستان « يفسدوا » فى الإقليم الأحسن الذى لا يوجد فى كرة

الأرض كلها ، فأما رب العالمين القادر على كل شىء فقد حتم انقضاء دولتهم ، يأيها « المصريين » : قد يقولوا لكم إننى ما نزلت بهذا الطرف إلا بقصد إزالة دينكم ، فذلك كذب صريح فلا تصدقوه وقولوا للمفترين إننى ماقدمت إليكم إلا لكيما أخلص حقكم من يد الظالمين وأننى أكثر من المماليك أعبد الله سبحانه وتعالى وأحترم نبيه محمداً والقرآن العظيم . وقولوا أيضاً لهم : إن جميع الناس « متساوين » عند الله ، وأن الشىء الذى يفرقهم من بعضهم بعضاً فهو العقل والفضائل والعلوم فقط ، وبين للمماليك ما العقل والفضائل والمعرفة التى تميزهم عن الآخرين ، وتستوجب أنهم يتملكوا وحدهم كلما يحلوا به حياة الدنيا حيثما توجد أرض مخصبة فهى مختصة للمماليك والجوارى الأجمل ، والخيل الأحسن ، والمساكن الأشهى ، فهذا كله لهم خاصاً إن كانت الأرض المصرية التزام للمماليك « فاليورونا » الحجة التى كتبها لهم الله ، فليكن رب العالمين هو « رءوفا » وعادل على البشر بعونه تعالى من اليوم فصاعداً لا يستثنى أحداً من أهالى مصر عن الدخول فى المناصب السامية وعن اكتساب المراتب العالية فالعقلاء والفضلاء والعلماء بينهم سيدور الأمور ، وبذلك يصلح حال الأمة كلها سابقاً فى الأراضى المصرية كانت المدن العظيمة والخلجان الواسعة ، والمتجر المتكاثر ، وما أزال ذلك كله إلا الطمع وظلم المماليك ، أيها القضاة والمشايخ والأئمة ، ويأيها الشرباجية وأعيان البلد قولوا لأمتكم أن الفرنساوية هم أيضاً مسلمين خالصين وإثباتاً لذلك قد نزلوا فى رومة

الكبرى وضربوا فيها كرسى البابا الذى كان يحث دائماً النصارى على محاربة الإسلام، ثم قصدوا جزيرة مالطة وطردوا منها الكواللرية الذين يزعمون أن الله تعالى يطلب منهم مقاتلة المسلمين ومع ذلك الفرنساوية فى كل وقت من الأوقات صاروا المحبين الأخلصين لحضرة السلطان العثمنلى ، وأعدى أعدائه ، أدام الله ملكه وبالمقلوب المماليك امتنعوا من طاعة السلطان ، غير متمثلين لأمره، فما أطاعوا أصلا إلا لطمع أنفسهم ، طوبى ثم طوبى لأهالى مصر الذين يتفقوا معنا بلا تأخير فيصلح حالهم ويعلى مراتبهم ، طوبى أيضاً للذين « يقعدوا » فى مساكنهم غير مائلين لأحد من الفريقين المحاربين فإذا يعرفونا بالأكثر « يتسارعوا » إلينا بكل قلب ، لكن الويل ثم الويل للذين يتحدون مع المماليك « ويساعدوهم » فى الحرب علينا ، فما يجروا طريق الخلاص ، ولا يبقى منهم أثر .

المادة الأولى

جميع القرى الواقعة فى دائرة قريبة بثلاثة ساعات عن المواضع التى يمر بها العسكر الفرنساوى فواجب عليها أن ترسل للسر عسكر بعض وكل من عندها لكيما يعرفوا المشار إليه أنهم طاعوا ، وأنهم نصبوا السنجاق الفرنساوى الذى أبيض « وحكى » أحمر .

المادة الثانية

كل قرية التى تقوم على العسكر الفرنساوى تحرق بالنار .

المادة الثالثة

كل قرية التى تطيع للعسكر الفرنساوى الواجب عليها نصب السنجاق الفرنساوى وأيضاً نصب سنجاق السلطان العثمنلى محبنا دام بقاه

المادة الرابعة

المشايخ فى كل بلد ليختموا حالا جميع الأرزاق والبيوت والاطلاع بتاع المماليك ، وعليهم الاجتهاد الزائد لكيلا يضيع أدنى شىء منها .

المادة الخامسة

الواجب على المشايخ والقضاة والأئمة أنهم « يلازموا » وظائفهم وعلى كل واحد من أهالى البلد أنه يبقى فى مسكنه مطمئن ، وكذلك تكون الصلاة قائمة فى الجوامع على العادة والمصريين بأجمعهم ليشكروا فضل الله سبحانه وتعالى من انقراض دولة المماليك قائلين بصوت عال : أدام الله

إجلال السلطان العثمنلى ، أدام الله إجلال العسكر الفرنساوى لعن الله المماليك ، وأصلح حال الأمة المصرية ؛ تحريراً بمعسكر اسكندرية فى ١٣ شهر مسيدور سنة ١٢١٣ من إقامة الجمهور الفرنساوى يعنى فى أواخر شهر محرم سنة هجرته انتهى منقولا بالحرف .

تفسير بعض ما أودعه هذا المكتوب من الكلمات المفككة والتراكيب الملعبكة

قوله : « بسم الله الرحمن الرحيم لا إله إلا الله لا ولد ولا شريك فى ملكه » فى ذكر هذه الجمل الثلاث إشارة إلى أنهم موافقون للملل الثلاث ، ومخالفون لهم ، بل ولجميع الملل موافقون للمسلمين فى ذكر التسمية ونفى الولد والشريك ، ومخالفون لهم فى عدم الإتيان بالشهادتين وجحد الرسالة ، ورفض الأقوال والأفعال الشرعية المعلومة من الدين بالضرورة وموافقون للنصارى فى غالب أقوالهم وأفعالهم ، ومخالفون لهم فى القول بالتثليث وجحد الرسالة أيضاً ، ورفض دياناتهم ، وقتل القسوس ، وهدم الكنائس ، وموافقون لليهود فى التوحيد فإن اليهود لا تقول بالتثليث ، وإنما هم مجسمة مخالفون لهم فى دياناتهم ، والذى تحرر من عقائدهم أنهم لا يقفون على

دين ولا يتفقون على ملة ، بل كل واحد منهم ينحو ديناً يخترعه بتحسين عقله ، ومنهم الباقى على نصرانيته المتكتم لها ، وفيهم فرق من اليهود الحقيقيين ، لكن كل ذى دين منهم ما نزله مصر عليه ، موافق للجمهور فى ضلالهم المصرين عليه .

قوله : « فأما رب العالمين » كلام مستأنف .

قوله : «القادر على كل شىء » ومن قدرته الباهرة وآياته الظاهرة جلب هؤلاء الشياطين ، إلى مراتع الملوك والسلاطين ، ورجوع الكرة عليهم ، وقطع دابرهم ونواصيهم .

وقوله : « قد حتم هذا تحكم على الغيب ، وما بعد الكفر عيب » .

قوله : « إننى ما قدمت لكم إلا لكيما أخلص حقكم من يد الظالمين » هذه أول كذبة ابتدرها وفرية ابتكرها ؛ ثم ترقى إلى ما هو أعظم من ذلك ، رماه الله فى المهالك بقوله :

« وإننى أكثر من المماليك أعبد الله » إلى آخره ؛ لا شك أن هذا خبل فى العقل ، وغلو فى الجهل ، أى عبادة فضلا عن كثرتها مع كفر غطى على فؤاده ، وحجبه عن الوصول إلى طريق رشاده ؛ وفى الكلام تقديم وتأخير ، والأصل وإننى أعبد الله أكثر من المماليك ، ويحتمل ألا تقديم ولا تأخير ، وأن المعنى إننى أكثر من المماليك عدداً ، فحذف التمييز ، ويكون قوله « أعبد الله » كلاماً مستأنفاً وكذبة مستقلة .

قوله : « وأحترم نبيه » معطوف على ما قبله من عطف الكذب على

الكذب ، لأنه لو احترمه لآمن به وصدقه وأحترم أمته .

قوله : « والقرآن العظيم » معطوف على نبيه ، أى وأحترم القرآن العظيم ؛ وهذا كذب أيضاً فإن احترام القرآن تعظيمه ، وتعظيمه بالتصديق بما فيه ، وهو من آيات النبي الدالة على صدقه ، وإنه نبي آخر الزمان ، وأن أمته أشرف الأمم ؛ وهؤلاء لجميع ذلك نافون ، وفيما عدوه كاذبون ، وكأين من آية فى السموات والأرض يمرون عليها وهم عنها معرضون ؛ وأما التعظيم الحسى فهو فرض مأمور به بقوله تعالى : (لا يمسه إلا المطهرون) فيحرم على المحدث والجنب مس آية من القرآن وهؤلاء قد شوهد الكثير منهم يتغوط ويمسح بأوراق المصاحف ويرميها ملطخة فى الطريق ومحل النجاسات ، فإنهم لا يستنجون بالماء البتة ، وجليلهم وحقيرهم يستعمل ما يجده من الأوراق. ودخل بعض الناس داراً من دورهم فوجد باب المهنة مسنوداً بمصحف كبير ، فأخذه وفتحه فوجده ختمة شريفة مكلفة ، فتأثر واغتم ، وطلب أن يفتديه بدراهم ، فامتنع صاحب الدار من بيعه إلا بمبلغ كذا ، فسعى الرجل حتى استرضى خاطره واستنقذ الختمة ، وهم فى كل ذلك يضحكون ، ويعدون الرجل كأنه مجنون ؛ فأين أعزك الله التعظيم الذى يزعمه هذا المفترى ؟

قوله : «إن جميع الناس متساويين عند الله تعالى» هذا كذب وجهل وحماقة ، كيف وقد فضل الله بعضهم على بعض ، وشهد بذلك أهل السموات والأرض .

قوله : « ما العقل » مبتدأ وخبر ، والاستفهام للإنكار ؛ وفى الكلام حذف أى لهم ؛ فالمعنى لا عقل للمماليك.

قوله : « فليورّونا » هذه كلمة عامية خارجة عن الطريقة العربية .

قوله : « الحجة التى كتبها الله لهم » هذا من الجهل والكفر بمكان فإن الله لا يملك الناس شيئاً بحجة يكتبها لهم ، غايته أن الناس يتداولون البلاد عن أسيادهم كهولا ، أو عن أسلافهم ، أو بالغلبة والقهر .

قوله : « فى المناصب السامية » أى المرتفعة ، فيه احتراز عن دفع اللوم عنهم بتقليدهم مناصب الأحكام الجليلة للأسافل والرعاع ، كجعلهم برطلمين الطنجى ، وهو المسمى عند العامة بفرط الرمان ، كتخدا مستحفظان .

قوله : « وبذلك يصلح حال الأمة » نعم بتدبير العقلاء والفضلاء ينصلح حال الأمة، ولكنهم لم يفعلوا ذلك .

قوله : « وضربوا كراسى البابا » بهذه الفعلة خالفوا النصارى كما سبقت الإشارة إليه ، فهؤلاء القوم خالفوا النصارى والمسلمين ، ولم يتمسكوا من الأديان بدين ؛ فتراهم دهرية معطلون، وللمعاد والحشر منكرون، وللنبوة والرسالة جاحدون ؛ ويقولون بقدم العالم وتأثير العلوية ، وللحوادث الكونية بالحركات الدورية ، وظهور الملل ، وانتقال الدول ، بموجب طبع القرانات ، وامتزاج المناظرات ؛ وربما اعتقدوا تناسخ

الأرواح ، إلى غيرها من الأشباح ؛ ومثل ذلك من الخيالات ، وأنواع الضلالات ؛ وعقيدتهم السالكون فيها تحكيم العقل وما تستحسنه النفوس بحسب الشهوات ، ولا يبالون بكشف العورات ، مع قبحه فى العقل والنقل فمتى دعت أحدهم الحاجة تعناها فى أى مكان اتفق ولو بمرأى من الناس ، ويذهب كما هو فى غير استنجاء ولا استجمار ، وتارة يمسح المحل بما يجده ولو ورقة مكتوبة ، ويطأون على ما تيسر لهم من النساء ، ويحلقون لحاهم وشواربهم معا ، ومنهم من يبقى شعر عارضيه فقط ولا يحلقون رءوسهم ولا عاناتهم ، ويخلطون فى مأكولهم ومشروبهم ، ولا يخلعون نعالاتهم أبداً ويطأون على الفرش الثمينة ، ويمخطون ويبصقون على الفراش ويمسحون بالمداس .

قوله : « مطمئن » صوابه مطمئناً ، لأنه حال ، فعدوله إلى الرفع فى غير موضعه إشارة إلى أن رفعتهم باستملاك مصر غلطة من الدهر ، وأنهم فى نفسهم مخفوضون ، لا ينتصبون ولا يرتفعون ثم ليست هذه أول لحنة ، فإن جميع كلمه ملحون ، ومنشئه ملعون عجل الله لهم الوبال والنكال وأخرس منهم عضو المقال ؛ وفرق جمعهم ، وشتت شملهم ، وأفسد رأيهم ، وأخمد أنفاسهم ، وهدم أساسهم ، إنه على ذلك قدير ، وبالإجابة جدير انتهى .

وفى يوم الخميس الثامن والعشرون من الشهر وردت الأخبار بأن فى يوم الجمعة التاسع والعشرون من شهر محرم التقى العسكر المصرى مع

الفرنسيس ، فلم تكن إلا ساعة وانهزم مراد بك ومن معه ولم يقع قتال صحيح ، وإنما هى مناوشة من طلائع العسكرين بحيث لم يقتل إلا القليل جداً من الفريقين ، واحترقت مركب مراد بك بما فيها من الجبخانة والآلات الحربية ، واحترق بها رئيس الطبجية خليل الجردلى ، وكان قد قاتل فى البحر قتالاً عجيباً هو ومن انضم إليه من الغليونجية وبقية العسكر والمشاة الذين فى المراكب مع مراكب الفرنسيس . وأقدم إقدام الأسد ، فقدر الله أن علقت نار بالقلع فنزل البعض منها إلى البارود الذى فى المركب فاحترقت فمات هو ومن بالمركب من المحاربين ، فلما عاين ذلك مراد بك ولى منهزماً وترك الأثقال والمدافع ، وتبعته عساكره ، والمشاة نزلت فى المراكب وانفصل الفريقان بدون طائل .

وقد كانت العلماء عند توجه مراد بك للقتال تجتمع فى الأزهر كل يوم لقراءة البخارى وغيره من الدعوات ، وكذلك مشايخ فقراء الأحمدية والسعدية والرفاعية وغيرهم من طوائف الفقراء وأرباب الأشاير كل يوم يذهبون للأزهر فيجلسون للأذكار وتجتمع أطفال الكتاتيب للدعاء وتلاوة اسمه تعالى لطيف ، وكل هذا حصل بسببه النفع العظيم ، فهو وإن لم يدفع دخول الفرنسيس مصر لكونه امراً مقضياً محتماً لا يرد بالدعاء لكن وقع اللطف بسبب هذه الدعوات ، واجتماع القلوب بمجالس الذكر والاستغفار وآثار اللطف التى حصلت مشاهدة ، ولا تنكر ولله الحمد .

ولما وصل خبر الهزيمة لمصر انزعجت الناس إنزعاجاً شديداً ، وركب

إبراهيم باك إلى ساحل بولاق . وحضر الباشا والعلماء ورءوس الناس وأعملوا رأيهم فى هذا الحادث العظيم فأجمع الرأى على عمل متاريس من بولاق إلى شبرا . ويتولى الإقامة ببولاق إبراهيم بك وأمراؤه وكشافهم .

وفى يوم الاثنين حضر إبراهيم باك إلى بر انبابة وشرع فى عمل متاريس هناك من بشتيل إلى آخر أنبابة . وتولى ذلك هو وصناجقه وأمراؤه وجماعة من خشداشيته . واحتفل فى ترتيب ذلك وتنظيمه بنفسه هو وعلى باشا الطرابلسى ونصوح باشا . واحضر المراكب الكبار والغلايين التى أنشأها بالجيزة ، واوقفها على ساحل انبابة ، وشحنها بالعساكر والمدافع ، فصار البر الشرقى والغربى مملوءين بالعساكر والمتاريس والخيالة والمشاة ، ومع ذلك فقلوب الأمراء لم تطمئن بذلك فإنهم من حين وصول الخبر لهم من الإسكندرية شرعوا فى نقل أمتعتهم من البيوت الكبار المشهورة المعروفة للبيوت الصغار التى لا يعرفها أحد ، وصاروا طول الليل فى نقل الأمتعة وتوزيعها عند معارفهم وثقاتهم ، وإرسال البعض منها لبلاد الأرياف وأخذوا أيضاً فى تشهيل الأحمال والاستحضار لدواب الشيل وأدوات السفر ، وما ذاك إلا للتعويل على الهزيمة ؛ فلما رأى أهل مصر ذلك منهم داخلهم الخوف الكثير والفزع بحيث أن الأغنياء منهم استعدوا أيضاً للهروب ، ولولا أن الأمراء منعوهم من ذلك لما بقى من الأغنياء ومن له قدرة على الهروب بمصر منهم أحد قبل دخول الفرنسيس بأيام ، لكن قد منع إبراهيم بك الناس من النقلة من مصر ، وهدّد من أراد فعل ذلك منهم .

وفى يوم الثلاثاء نادوا بالنفير العام وخروج الناس للمتاريس ، وصاروا يكررون المناداة كل يوم ، فأغلق الناس الدكاكين والأسواق ، وخرج الجميع لبر بولاق ، فكانت كل طائفة من طوائف أهل الصناعات يجمعون الدراهم من بعضهم وينصبون خياما ، أو يجلسون فى مكان خرب أو مسجد ، ويرتبون لهم فيما يصرف عليهم ما يحتاجون له من الدراهم التى جمعوها من بعضهم وبعض الناس يتطوع بالإنفاق على البعض الآخر ، ومنهم من يجهز جماعة من المغاربة أو الشوام بالسلاح والأكل وغير ذلك بحيث أن جميع الناس بذلوا وسعهم وفعلوا ما فى قوتهم وطاقتهم وسمحت نفوسهم ببذل أموالهم ؛ فلم يشح فى ذلك الوقت أحد بشىء يملكه ، ولكن لم يساعدهم الدهر ، وخرجت الفقراء وأرباب الأشاير بالطبول والزمور والأعلام والكاسات وهم يضجون ويصيحون ، ويذكرون بأذكار مختلفة ، وصعد نقيب الأشراف السيد عمير للقلعة فأنزل منها بيرقاً كبيراً أسمته العامة البيرق النبوى فنشره من القلعة إلى أن وصل به إلى بولاق وهو راكب ومعه ألوف من العامة بالنبابيت والعصى يهللون ويكبرون ويكثرون من الصياح وبصحبته طبول وزمور وغير ذلك .

وأما مصر فإنها بقيت خالية الطرق لا تكاد تجد بها أحداً سوى النساء فى البيوت والصغار وضعفاء الرجال الذين لا يقدرون على الحركة فإنهم مستترون مع النساء فى بيوتهم والأسواق مجفرة ، والطرق معفرة ، من عدم الكنس والرش ، وغلا سعر البارود والرصاص ، بحيث بيع الرطل البارود

بستين نصفاً ، والرصاص بتسعين ، وغلا السلاح وقل وخرج معظم الرعايا بالنبابيت والعصى ، ومكث المشايخ والعلماء بزاوية على بك ببولاق يدعون ويبتهلون إلى الله بالنصر ، وأقام غيرهم من الرعايا البعض بالبيوت ، والبعض بالزوايا ، والبعض فى الخيام ؛ ومحصل الأمر أن جميع ما بمصر من الرجال تحول لبولاق وأقام بها من حين نصب إبراهيم بك العرضى هناك إلى وقت الهزيمة سوى ناس قليل لا تجد لهم مأوى ، فيرجعون لبيوتهم يبيتون بها ثم يصبحون ببولاق؛ وأرسل إبراهيم بك إلى العربان المجاورة لمصر ورسم لهم أن يكونوا فى المقدمة بنواحى شبرا وما والاها ، وكذلك اجتمع عند مراد بك الكثير من عرب البحيرة والجيزة والصعيد والخبيرى وغيرهم ، وفى كل يوم يتزايد الجمع ويعظم الهول ويضيق الحال بالفقراء الذين يحصلون قوت يوم بيوم لتعطل الأسباب واجتماع الناس كلهم فى صعيد واحد وتنقطع الطرق ويعدو الناس بعضهم على بعض لعدم التفات الحكام واشتغالهم بما دهمهم من هذا الأمر العظيم وأما بلاد الأرياف فإنها قامت على ساق يقتل بعضهم بعضاً ، وينهب بعضهم بعضاً وكذلك العرب تغير على الأطراف والنواحى ، وصار قطر مصر من أوله إلى آخره فى قتل ونهب وإخافة طريق وقيام شر وإغارة على أموال الناس وإفساد مزارع ، وغير ذلك من أنوع الفساد التى لا تحصى ، وطلب أمراء مصر الإفرنج الذين هم تجار بمصر فحبس بعضهم بالقلعة ، وبعضهم بأماكن الأمراء ، وصاروا يفتشون فى محلات الافرنج على الأسلحة وغيرها ، وكذلك

يفتشون بيوت النصارى الشوام والأقباط والأروام والكنائس والأديرة على الأسلحة والعامة لا ترضى إلا أن يقتلوا النصارى واليهود . فيمنعهم الحكام عنهم ، ولولا ذلك المنع لقتلهم العامة فى وقت الفتنة .

ثم فى كل يوم تكثر الإشاعة بقرب الفرنسيس إلى مصر وتختلف الناس فى الجهة التى يأتون منها ، فمنهم من يقول : يأتون من البر الغربى ، ومنهم من يقول : من البر الشرقى ومنهم من يقول : يأتون من الجهتين ؛ هذا وليس لأحد من كبراء العسكرين همة أن يبعث جاسوساً أو يرسل طليعة تناوشهم القتال قبل دخولهم ، بل كل من إبراهيم بك ومراد بك جمع عسكره ومكث بمكانه لا ينتقل عنه ينتظر ما يفعل به ، وهذا من سوء التدبير وإهمال أمر العدو .

ولما كان يوم الجمعة سادس الشهر وصل الفرنسيس إلى الجسر الأسود وأصبح يوم السبت فوصلوا إلى أم دينار فعندها اجتمع العالم العظيم من الجند والرعايا والفلاحين المجاورة بلادهم لمصر ولكن الأجناد متنافرة قلوبهم منحلة عزائمهم ، مختلفة آراؤهم ، حريصون على حياتهم وتنعمهم ورفاهيتهم مختالون فى زينتهم ، مغترون بجمعهم ، محتقرون شأن عدوهم ، مرتبكون فى رويتهم ، مغمورون فى غفلتهم ؛ وهذا كله من أسباب ما وقع من خذلانهم وهزيمتهم : وقد كان الظن بالفرنسيين أن يأتوا من البرين فلم يأتوا إلا من البر الغربى .

ولما كان وقت القائلة من ذلك اليوم ركب جماعة من العساكر التى

بالبر الغربى وتقدموا إلى ناحية بشتيل وهى بلدة مجاورة لأنبابة . فتلاقوا مع مقدمة الفرنسيس وكروا عليهم بالخيول ، فضربهم الفرنسيس ببنادقهم المتتابعة الرمى ، وأبلى الفريقان . وفى هذه الكرة استشهد أيوب بك الصغير وعبد الله كاشف الجرف . وكان عبداً أسود جسيما معروفاً بالشجاعة والإقدام . ومات أيضاً عدة من كشاف محمد بك الألفى ومماليكه ، وتبعهم طابور من الإفرنج فى نحو الستة آلاف سرى عسكرهم ديزيه الذى ولى على الصعيد بعد تملكهم ، وأما بونابرت فلم يشاهد الموقعة ، بل حضر بعد الهزيمة ، وكان بعيداً عن هؤلاء بكثير ؛ ولما قرب طابور الفرنسيس من متاريس مراد بك ترامى الفريقان بالمدافع ، ورمت عسكر الغليونجية التى فى الغلايين البحرية بالمدافع أيضاً ؛ وكان قد قدم فى صبح هذا اليوم عدة من عسكر الأرناؤوط من دمياط ، وطلعوا انبابة ، وانضموا للمشاة من الغليونجية والالضاشات والمغاربة وانتظموا معهم فى المتاريس ، فلما وقع الحرب مات معظمهم ولم ينتقل عن مكانه ، ولم يثبت من هذه الطوائف كلها إلا هذه الفرقة بحيث لم ينج منها إلا القليل ، ولم تتزلزل عن مكانها ولا تسلم فى أنفسها . وهكذا الرجال ، رضى الله عنهم .

فلما رأى عسكر البر الشرقى القتال ركب جماعة من الأمراء الذين به وشرعوا فى التعدية إلى البر الغربى فى المراكب ، فتزاحموا على المعادى لكون التعدية من محل واحد ، والمراكب قليلة جداً ، فلم يتمكن الجميع من الوصول إلا وقد انهزم العسكر الغربى ؛ هذا والريح النكباء قد اشتدت

فى هبوبها ، وأمواج البحر فى قوة اضطرابها ، والرمال يعلو غبارها ، وتسفيها للريح فى وجوه العسكر فلا يقدر أحد أن يفتح عينيه من شدة الغبار ، وكون الريح فى جهة العدو وفى وجوه المقاتلين ، وذلك من أعظم أسباب الهزيمة كما هو منصوص عليه .

ثم آن الطابور الذى تقدم لقتال مراد بك انقسم على كيفية معلومة عندهم فى الحرب ، وتقارب من المتاريس بحيث صار محيطاً بالعسكر من خلفه وأمامه ودق طبوله وأرسل بنادقه المتتالية والمدافع ، واشتد هبوب الريح وانعقد الغبار ، وأظلمت الدنيا من دخان البارود وغبار الرياح وصمت الأسماع من توالى الضرب بحيث خيل للناظر أن الأرض تزلزلت والسماء عليها سقطت ؛ فاستمر القتال نحو ثلاثة أرباع ساعة ، ثم كانت الهزيمة على العسكر الغربى ، فغرق الكثير من الخيالة فى البحر لإحاطة العدو بهم وظلام الدنيا والبعض وقع أسيراً فى يد الفرنسيس ، وملكوا المتاريس وفر مراد بك ومن بقى معه إلى الجيزة ، فصعد إلى قصره وقضى بعض أشغاله فى نحو ربع ساعة ثم ركب وذهب إلى الجهة القبلية وبقيت القتلى والثياب والأمتعة والأسلحة ملقاة ببر أنبابة تحت الأرجل ، وكان من جملة من ألقى نفسه فى البحر سليمان بك المعروف بالأغا وأخوه إبراهيم بك فأما سليمان بك فنجا وغرق إبراهيم بك المعروف بالصغير ؛ ولما انهزم العسكر الغربى حوّل الفرنسيس المدافع والبنادق على البر الشرقى وضربوها ، فقامت صيحة عظيمة ببولاق وركب إبراهيم بك والباشا والأمراء والعسكر والرعايا ،

وتركوا جميع الأثقال والخيام كما هى لم يأخذوا منها شيئاً ؛ فأما إبراهيم بك والباشا والأمراء فذهبوا إلى جهة العادلية ، وأما الرعايا فهاجوا إلى جهة المدينة ودخلوها أفواجاً أفواجاً وهم فى غاية ما يكون من الخوف والفزع وترقب الهلاك ، وهم يضجون بالعويل والنحيب ، ويبتهلون إلى الله من شر هذا اليوم العصيب ؛ والنساء يصرخن بأعلى أصواتهن فى البيوت وقد كان ذلك قبل الغروب ، فلما استقر إبراهيم بك بالعادلية أرسل فأخذ حريمه ، وكذلك من كان معه من الأمراء ، فأركبوا النساء بعضهن على الخيول ، وبعضهن على البغال والبعض على الحمير والجمال ، والبعض ماش كالجوارى والخدم ، واستمر معظم الناس طول الليل خارجين من مصر ، البعض بحريمه ، والبعض ينجو بنفسه ، وليس أحد مع أحد ، بل كل واحد مشغول بنفسه عن أبيه وابنه ؛ فخرج من تلك الليلة معظم أهل مصر البعض لبلاد الصعيد ، والبعض لجهة الشرق ، وهم الأكثر ، وأقام بمصر كل مخاطر بنفسه لا يقدر على الحركة ممتثلا للقضاء ، متوقعاً للمكروه ، وذلك لعدم قدرته ، وقلة ذات يده وما ينفقه على حمل عياله وأطفاله ، ويصرفه عليهم فى القرية ، فاستسلم للمقدور ، ولله عاقبة الأمور ؛ والذى أزعج قلوب الناس وهيجهم على الترحال بالأكثر أن فى عشاء تلك الليلة شاع فى الناس أن الفرنج عدوا إلى بولاق وأحرقوها ، وكذلك الجيزة ، وأن أولهم وصل إلى باب الحديد يحرقون ويقتلون ويفجرون بالنساء ، وكان السبب فى هذه الإشاعة أن بعض الغليونجية من عسكر مراد بك الذى

كان فى الغليون بمرساة أنبابة لما تحقق الكسرة أضرم النار فى الغليون الذى هو فيه ، وكذلك مراد بك لما رحل من الجيزة أمر بانجرار الغليون الكبير من قبالة قصره ليصحبه معه إلى جهة قبلى فمشوا به قليلا ، ووقف لقلة الماء فى الطين ، وكان به عدة وافرة من آلات الحرب والجبخانة ، فأمر بحرقه أيضاً ، فصعد لهيبه إلى عنان السماء ، فلما عاين الناس بالمدينة لهيب النار من ناحية الجيزة وبولاق ظنوا بل أيقنوا أنهم حرقوا البلدين ، فماجوا واضطربوا زيادة عما هم عليه من الفزع والروع والجزع ، وخرج أعيان الناس وأفندية الوجاقات وأكابرهم ونقيب الأشراف وبعض المشايخ القادرين ، فلما عاين العامة والرعية ذلك اشتد ضجرهم وخوفهم وتحركت عزائمهم للهروب واللحاق بهم ، والحال أن الجميع لا يدرون أى طريق يسلكون ، وأى جهة يذهبون ، وأى محل به يستقرون ، فتلاحقوا وتسابقوا ، وخرجوا من كل حدب ينسلون ، وبيع الحمار الأعرج أو البغل الضعيف بأضعاف ثمنه ، وخرج أكثرهم ماشياً أو حاملا متاعه على رأسه وزوجته حاملة طفلها ، ومن قدر على مركوب أركب زوجته أو ابنته ومشى هو على أقدامه وخرج غالب النساء ماشيات حاسرات وأطفالهن على أكتافهن يبكين فى ظلمة الليل ، واستمروا على ذلك بطول ليلة الأحد وصبحها ، وأخذ كل إنسان ما قدر على حمله من مال ومتاع . فلما خرجوا من أبواب البلد وتوسطوا الفلاة تلقتهم العربان والفلاحون فأخذوا متاعهم ولباسهم وأحمالهم بحيث لم يتركوا لمن صادفوه ما يستر عورته ، أو يسد جوعته ،

فكان ما أخذته العرب شيئاً كثيراً يفوت عن الحصر بحيث أن الأموال والذخائر التى خرجت من مصر فى تلك الليلة أضعاف ما بقى بها بلا شك، لأن معظم الأموال عند الأمراء والأعيان وحريمهم وقد أخذوه صحبتهم وغالب مساتير الناس وأصحاب المقدرة خرجوا أيضاً بما عندهم ؛ والذى أقعده العجز : وكان عنده ما يقدر عليه من مال أو متاع أعطاه لجاره أو صديقه الراحل ومثل ذلك أمانات وودائع للحجاج من المغاربة والمسافرين، فذهب ذلك جميعه ، وربما قتلوا من قدروا عليه أو دافع عن نفسه ومتاعه وعروا ثياب النساء وفضحوهن وهتكوهن وفيهم الخوندات والأعيان فمنهم من رجع من قريب ، وهم الذين تأخروا فى الخروج وبلغهم ما حصل للسابقين ، ومنهم من جازف متكلا على كثرته وعزوته وخفارته فسلم أو عطب ، وكانت ليلة وصباحها فى غاية الشناعة جرى فيها ما لم يتفق مثله ولا سمعنا بما يشابه بعضه فى تواريخ المتقدمين وما راء كمن سمع .

ولما أصبح يوم الأحد المذكور والمقيمون لا يدرون ما يفعل بهم ومتوقعون حلول الفرنسيس ووقوع المكروه ورجع الكثير من الفارين وهم أسوأ حال من العرى والفزع فتبين أن الفرنج لم يعدّوا إلى البر الشرقى وأن الحريق كان فى المراكب المتقدم ذكرها ؛ فاجتمع فى الأزهر بعض العلماء والمشايخ وتشاوروا ، فاتفق رأيهم على أن يرسلوا مراسلة إلى الفرنج وينظروا ما يكون من جوابهم ؛ ففعلوا ذلك وأرسلوها صحبة شخص مغربى يعرف لغتهم وآخر صحبته ، فغابا وعادا وأخبرا أنهما قابلا كبير القوم وأعطياه

الرسالة فقرأها عليه ترجمانه ، ومضمونها الاستفهام عن قصدهم ، فقال على لسان الترجمان : وأين عظماؤكم ومشايخكم؟ لمَ تأخروا عن الحضور إلينا لنرتب لهم ما يكون فيه الراحة وطمنهم وبش فى وجوههم ، فقالوا نريد أماناً منكم ؛ فقال قد أرسلنا لكم سابقاً يعنون الكتاب المذكور فقالوا أيضاً لأجل اطمئنان الناس ، فكتبوا لهم ورقة أخرى مضمونها من معسكر الجيزة خطاباً لأهل مصر إننا أرسلنا لكم فى السابق كتاباً فيه الكفاية وذكرنا لكم أننا لم حضرنا إلا بقصد إزالة المماليك الذين يستعملون الفرنساوية بالذل والاحتقار ، وأخذوا مال التجار ومال السلطان ولما حضرنا إلى البر الغربى خرجوا إلينا فقابلناهم بما يستحقون وقتلنا بعضهم وأسرنا بعضهم عندنا وهرب بعضهم ونحن فى طلبهم حتى لم يبق منهم أحد بالقطر المصرى وأما المشايخ والعلماء وأصحاب المرتبات والرعية فيكونوا مطمئنين ، وفى مساكنهم مرتاحين إلى آخر ما ذكر .

ثم قال لهم : لازم أن المشايخ والشرباجية يأتون إلينا لنرتب منهم ديواناً ننتخبه من سبعة أشخاص عقلاء يدبرون الأمور .

ولما رجع الجواب بذلك اطمأن الناس وركب الشيخ مصطفى الصاوى والشيخ سليمان الفيومى وآخرون إلى الجيزة فتلقاهم وضحك لهم وقال : أنتم المشايخ الكبار ، فأعلموه أن المشايخ الكبار خافوا وهربوا ؛ فقال : لأى شىء يخافون ؟ اكتبوا لهم بالحضور ونعمل لكم ديواناً لأجل الراحة فكتبوا منه عدة مكاتبات بالحضور والأمان ثم انفصلوا من عندهم بعد العشاء ،

وبقى الناس فى وجل وخوف على غيابهم وأصبحوا فأرسلوا الأمانات إلى المشايخ فحضر الشيخ السادات والشيخ الشرقاوى ومن انضم إليهما من الناس الفارين من ناحية المطرية ؛ وأما عمر أفندى نقيب الأشراف فإنه لم يطمئن ولم يحضر وكذلك الروزنامجى والأفندية . وفى ذلك اليوم اجتمعت الجعيدية وأوباش الناس ونهبوا بيت إبراهيم بك ومراد بك بقيسون وأحرقوه ، ونهبوا أيضاً عدة بيوت من بيوت الأمراء وأخذوا ما فيها من فرش ونحاس وأمتعة وغير ذلك وباعوه بأبخس الأثمان .

وفى يوم الثلاثاء عدت الفرنسيس إلى بر مصر وسكن بونابرت ببيت محمد بك الألفى بالأزبكية بخط الساكت ، وكان عمره محمد بك المذكور سنة تاريخه وزخرفه وصرف عليه أموالاً عظيمة وفرشه بالفرش الفاخرة ، وعند تمامه وسكناه فيه حصلت هذه الحادثة فأخلوه وتركوه بما فيه فكأنه كان يبنيه للفرنسيس ، وكذلك حصل فى بيت حسن كاسف جركس بالناصرية .

وفى يوم الخميس ثالث عشر صفر طلبوا المشايخ والوجاقية عند بعض رؤسائهم ، وعينوا عشرة أنفار من المشايخ للديوان ، وهم الشيخ عبد الله الشرقاوى والشيخ خليل البكرى والشيخ مصطفى الصاوى والشيخ سليمان الفيومى والشيخ محمد المهدى والشيخ موسى السرسى والسيد مصطفى الدمنهورى والشيخ أحمد العريشى والشيخ يوسف الشبرخيتى والشيخ محمد الدواخلى ؛ وحضر ذلك المجلس أيضاً مصطفى بيك كتخدا الباشا والقاضى وعملوا محمد أغا المسلمانى أغاة مستحفظان وعلى أغا الشعراوى زعيم مصر

وحسن أغا محرم أمين احتساب وذلك بإشارة أرباب الديوان ، فإنهم كانوا ممتنعين من تقليد المناصب لجنس المماليك فعرفوهم أن سوقة مصر لا يخافون إلا من الأتراك ولا يحكمهم سواهم وهؤلاء الجماعة من أرباب البيوت القديمة وقلدوا زين « ذو » الفقار كتخدا ومحمد بك الألفي كتخدا بونابرت ومن أرباب المشورة موسى كافوا وكلوى الفرنساويين ووكيل الديوان حنا بينو وفيه اجتمع أرباب الديوان عند رئيسه فذكر لهم ما وقع من نهب البيوت فقالوا له : هذا فعل الجعيدية وأوباش الناس ، فقال : لأى شيء يفعلون ذلك وقد أوصيناكم بحفظ البيوت والختم على متاع المماليك ؟ فقالوا : هذا الأمر لا قدرة لنا على منعه وإنما ذلك من وظيفة الحكام ، فأمروا الوالى والأغا بأن ينادوا بالأمان وفتح الدكاكين والأسواق والمنع من النهب ، فلم يستمعوا ولم ينتهوا ، واستمرت الدكاكين مغلقة والأسواق على حالها معفرة ، والناس غير مطمئنين وقلوبهم مرقرقة ، وصدورهم ضيقة والتفت جماعة الفرنسيس إلى فتح البيوت التى للأمراء فصاروا يفتحون الدار ويدخلونها ويأخذون منها ما يليق بخاطرهم ويخرجون ويتركون الأبواب مفتحة فيدخل بعدهم طائفة الجعيدية ويتأصلون الباقى ؛ واستمروا على ذلك عدة أيام ، ثم أنهم تتبعوا بيوت الأمراء وأتباعهم وختموا على بعضها وسكنوا بعضها ، فكان الذى يخاف على داره من جماعة الوجاقية أو من أهل البلد يعلق له بيرقاً على باب داره ويأخذ له ورقة من الفرنسيس لا يعرف ما فيها ويلصقها على بابه .

وفيه قلدوا برطلمين العسكرى الرومى النصرانى وهو الذى تسميه العامة فرط الرمان جعلوه كتخدا مستحفظان ، والمذكور من أسافل نصارى الأروام العسكرية القاطنين بمصر وكان طبجياً عند محمد بك الألفى وله حانوت بخط الموسكى يبيع فيه القواوير الزجاج أيام البطالسة ، فلما قلدوه المنصب نزل بموكب من بيت بونابرت وراكب فرس بقلاعية وأمامه عدة وافرة من طوائف الأجناد البطالين مشاة بين يديه وعلى رأسه خشيشة من الحرير ولابس فروة بزعارة وبين يديه الخدم بالحراب المفضضة ، ورتب له بيوك باشى وقلقات عينوا لهم مراكز بأخطاط المدينة يجلسون بها وسكن اللعين المذكور ببيت يحيى كاشف الكبير بحارة عابدين واحتوى عليه بما فيه من فرش ومتاع وجوارى وغير ذلك ، وقلدوا إفرنجياً آخر وجعلوه أمين البحرين وآخر جعلوه أغاة الرسالة وجعلوا الديوان ببيت قائد أغا بالأزبكية بالقرب من الرويعى وسكن به رئيس الديوان وسكن دبوى قائم مقام مصر ببيت إبراهيم بيك الوالى على بركة الفيل ، وسكن شيخ البلد ببيت إبراهيم بك الكبير ومجلون سكن ببيت مراد بك على رصيف الخشاب والرزنامجى سكن ببيت الشيخ البكرى القديم ويجتمع عنده النصارى القبط كل يوم وطلبوا الدفاتر من الكتبة وكذلك قلدوا دفتر داراً إفرنجياً .

ثم أن عساكرهم صارت تدخل إلى المدينة شيئاً فشيئاً حتى امتلأت منهم الطرقات وسكنوا فى البيوت وجافت منهم الحارات ، ولكن لم يشوشوا على أحد ، ويأخذون المشتروات بزيادة عن ثمنها وهذه من أعظم المكايد

لأجل إضلال عقول العامة ، وانهمكوا على أنواع المأكولات مثل الكلاب السعرانين ففجر السوقة وصغروا الخبز وطحنوه بترابه وباعوا البيضة بنصف فضة بعد أن كانوا يبيعون كل أربع بيضات بنصف ، وفتح الناس عدة دكاكين بجوارهم يبيعون فيها أصناف المأكولات كالفطير والكعك والسمك المقلى واللحوم والفراخ المحمرة وغير ذلك ، وفتح نصارى الأروام عدة دكاكين لبيع المسكرات وعدة خمامير وقهاوى ، وطافت جماعة من النصارى فى الأسواق تبيع العرقى كسقاة الماء وصاروا ينادون به فى الأسواق بلغتهم وفحش ذلك جداً .

وفيه تشفع أرباب الديوان فى أسرى المماليك فقبلوا شفاعتهم وأطلقوهم فدخلوا الجامع الأزهر وهم فى أسوأ حال وعليهم الثياب الزرق المقطعة ، فمكثوا به يأكلون من صدقات الفقراء المجاورين به ، ويتكففون المارين ، وفى ذلك عبرة للمعتبرين .

وفى يوم السبت اجتمعوا بالديوان وطلبوا دراهم سلفة وهى مقدار خمسمائة ألف ريال من التجار المسلمين والنصارى القبط والشوام وتجار الإفرنج أيضاً ؛ فسألوا التخفيف فلم يجابوا فأخذوا فى تحصيلها .

وفيه نادوا على من أخذ شيئاً من نهب البيوت يحضر به إلى بيت قائم وإلا يحصل له مزيد الضرر ، ونادوا أيضاً على نساء الأمراء بالأمان وأنهن يسكن بيوتهن وإن كان عندهن أشياء من متاع أزواجهن يظهرنه ، فإن لم يكن عندهن شيء من متاع أزواجهن يصالحن على أنفسهن ويأمن

فى دورهن فظهرت الست نفيسة زوجة مراد بك وصالحت على نفسها وأتباعها من نساء الأمراء والكشاف بمائة وعشرين ألف ريال فرانسية وأخذت فى تحصيل ذلك من نفسها وغيرها ، ووجهوا عليها الطلب ، وكذلك بقية النساء بالوسائط فجمعوا شيئاً كثيراً فصار الديوان عبارة عن قطع الجرائم وعمل المصالحات وكتب أمانات للغز والأجناد المختفين والغائبين بالقرى بحضورهم ومصالحتهم عن أنفسهم ، فانتفع كثير من الوسائط المتداخلين فى ذلك كنصارى الشوام والإفرنج البلديين ، وغيرهم ، فصاروا يعملون ارهاصات على الناس وتخويفات وتخيلات وغير ذلك مما يطول شرحه استجلاباً للأموال .

وفى يوم الأحد طلبوا الخيول والجمال والسلاح فجمعوا شيئاً كثيراً حتى الأبقار والثيران ، وحصل فى ذلك مثل ما حصل فى المصالحات وجمعوا من ذلك شيئاً كثيراً ، وأشاعوا التفتيش بسبب ذلك ، وكسروا عدة دكاكين بسوق السلاح وغيره ، وأخذوا ما وجدوه فيها من السلاح من غير ثمن . هذا وفى كل يوم ينقلون على الجمال والحمير من الأمتعة والفرش والصناديق والسروج وغير ذلك من البيوت ما لا يحصى ، ويستخرجون الخبايا ويأخذون البنائين والمهندسين والخدم الذين يعرفون بيوت أسيادهم ليدلوهم على محلات الخبايا والدفائن وفيه قبضوا على شيخ الجعيدية ومعه آخر وتبرقوا عليهما ببركة الأزبكية ثم على آخرين أيضاً بالرميلة ، وأحضروا شيئاً كثيراً من المنهوبات .

وفى يوم الثلاثاء طلبوا أهل الحرف من التجار بالأسواق وقرروا عليهم جملة يعجزون عنها من المال ، ويزعمون أنها سلفة إلى ستين يوماً فضجوا واستغاثوا وذهبوا إلى الجامع الأزهر والمشهد الحسينى واستشفعوا بالمشايخ ، فتكلموا لهم ، فأضعفوها إلى النصف ، ووسعوا لهم فى أيام المهلة وفيه شرعوا فى تكسير الدروب والبوابات النافذة ، وخرج عدة من عساكرهم يخلعون ويكسرون أبواب الدروب والعطف والحارات . واستمروا على ذلك عدة أيام ، وعند وقوع هذه الأمور داخل الناس من الفرنسيس خوف شديد ، وتجسم عندهم الفزع وغلب عليهم الوهم وفساد المخيلة ، ووسوست لهم نفوسهم بمعان نطقوا بها وتصوروا حقيقتها وتناقلوها فيما بينهم ، كقولهم إن عساكر الفرنسيس عازمون على قتل المسلمين وهم فى صلاة الجمعة ، ومنهم من يقول غير ذلك وذلك بعد أن كان حصل عندهم بعض اطمئنان وفتحوا بعض الدكاكين ، فلما حصلت هاتان النكتتان انكمش الناس ثانياً .

وفى عشرينه حضرت مكاتيب الحجاج من العقبة فذهب أرباب الديوان إلى باش عسكرى وأعلموه بذلك وطلبوا منه أماناً لأمير الحاج ، فامتنع وقال : لا أعطيه ذلك إلا بشرط أن يأتى من غير مماليك ولا عسكر ويكون كآحاد الناس ؛ فقالوا له : ومن يوصل الحجاج ؟ فقال : يرسل لهم أربعة آلاف من العساكر يوصلونهم إلى مصر فكتبوا لأمير الحاج مكاتبة بالملاطفة ، وأن يحضر بالحجاج إلى الدار الحمراء وبعد ذلك يحصل الخير ، فلم تصلهم الجوابات حتى كاتبهم إبراهيم بك يطلبهم للحضور إلى جهة

بلبيس . فعرجوا على بابيس ، وأقاموا هناك أياماً وكان إبراهيم باك ومن معه ارتحل من بابيس إلى الصوة وأرسلوا الحريم إلى القرين .

وفى ثالث عشرينه خرجت طائفة من العسكر الفرنساوى إلى جهة العادليةوصاروا فى كل يوم تخرج طائفةبعدأخرى يذهبون إلى جهة الشرق .

فلما كان ليلة الأربعاء سادس عشرينه خرج باش العسكر وكانت أوائلهم وصلت إلى الخانكة وأبو زعبل فطلبوا كلفة من أبو زعبل فامتنعوا فقاتلوهم وضربوهم وكسروهم ونهبوا البلد وأحرقوها وانتقلوا إلى بابيس .

وأما الحجاج فإنهم نزلوا بلبيس واكترت حجاج الفلاحين من العرب فأوصلوهم إلى بلادهم من الغربية والمنوفية والقليوبية وغير ذلك ، وكذلك فعل ذلك غير الفلاحين الكثير من الناس الحجاج ، فتفرقوا فى البلاد بحريمهم ، ومنهم من أقام ببلبيس .

وأما أمير الحاج صالح بك فإنه لحق بإبراهيم باك وصحبته جماعة من التجار وغيرهم .

وفى ثامن عشرينه ملك الفرنج مدينة بلبيس و بها من بقى من الحجاج ، فلم يشوشوا عليهم وأرسلوهم إلى مصر وصحبتهم جماعة من عساكرهم .

فلما كان ليلة الأحد غايته جاء الرائد إلى الأمراء بالصوة وأخبرهم أن الفرنج قادمون عليهم فركبوا نصف النهار وترفعوا إلى جهة القرين ، وتركوا التجار وأصحاب الأثقال ، فلما طلع النهار حضر إليهم جماعة من العربان واتفقوا معهم على أن يوصلوهم إلى القرين ، وعاهدوهم أن لا يخونوهم ،

فلما توسطوا بهم الطريق نقضوا عهدهم وخانوهم ونهبوا حمولهم وتقاسموا متاعهم ، وعرّوهم من ثيابهم ، وفيهم كبير التجار السيد أحمد بن المحروقى وكان ما يخصه نحو ثمان ألف ريال فراسنة نقوداً ومتجراً من جميع الأصناف الحجازية ، وصنعت العرب معهم ما لا خير فيه ، ولحقهم عسكر الإفرنج ، فذهب السيد أحمد المحروقى ولاقى صارى عسكر وصحبته جماعة من العرب المنافقين فشكا له ما حل به وبإخوانه فلامهم على تنقلهم وركونهم إلى المماليك والعرب ، ثم قبض على أبو خشبة شيخ بلد القرين وقال له : عرفنى عن مكان المنهوبات فقال : أرسل معى جماعة إلى القرين فأصحب معه جماعة من العسكر فلما دخل إلى القرين ومعه الجماعة دلهم على بعض الأحمال فأخذها الإفرنج وتقاسموها ثم تبعوه إلى محل آخر فأوهمهم أنه يدخل ويخرج لهم أحمالا كذلك فدخل وخرج من مكان آخر ولم يرجع ، فرجع أولئك العسكر بحمل ونصف لا غير وقالوا : هذا الذى وجدناه والرجل فرّ من أيدينا ؛ فقال صارى العسكر : لا بد من تحصيل ذلك فطلبوا منه الإذن فى التوجه إلى مصر ، فأصحب معهم عدة من عسكره أوصلوهم إلى مصر وهم فى أسوأ حال وصحبتهم أيضاً جماعة من النساء اللاتى كنّ خرجن ليلة الحادثة وهم أيضاً فى حالة تكسب عند مشاهدتهن العبرات ويتقطع القلب من توالى الحسرات .

شهر ربيع الأول

(شهر ربيع الأول) فى ثانيه وصل الإفرنج إلى نواحى القرين ، وكان إبراهيم بك ومن معه وصلوا إلى الصالحية وأودعوا حملتهم وحريمهم هناك وضمنوا عليهم العربان وبعض الجند فأخبر بعض العرب الإفرنج بمكان الحملة فركب صارى عسكر وأخذ معه الخيالة وقصد الإغارة على الحملة وعلم إبراهيم بك بذلك أيضاً فركب هو وصالح بك وعدة من الأمراء والمماليك وتلاقوا مع الفرنسيس الخيالة الذين كانوا مع صارى عسكر وتحاربوا ساعة أشرف فيها الإفرنج على الهزيمة والدمار لكون خيالة الإفرنج لاقدرة لهم على قتال المماليك وإذا الخبر وصل إلى إبراهيم بك بأن العرب مالوا على الحملة وقصدهم نهبها ، فرجع على أثره بمن معه وترك قتال الفرنسيس ولحق بالعرب وجلاهم عن متاعه وقتل منهم عدة أشخاص وارتحل إلى قطيا ورجع صارى عسكر الفرنسيس إلى مصر وترك عدة من عساكره متفرقين فى البلاد فدخل مصر ليلا وذلك ليلة الخميس رابعه .

وفى يوم الجمعة خامسه الموافق لثلاث عشر مسرى القبطى كان وفاء النيل المبارك فأمر كبير الإفرنج بالاستعداد لذلك وتزيين العقبة كالعادة وكذلك عدة مراكب وغلايين ، ونادوا على الناس بالخروج والتنزه فى النيل والمقياس والروضة على عادتهم هذا مع ما هم عليه مما دهمهم من

الفردة والحث فى طلبها ونهب البيوت وإزعاج النساء والجوارى وغيرهن وأخذهم وحبسهم وعمل المصالحات الخارجة عن الحد وأرسل صارى عسكر أوراقاً لكتخدا الباشا والقاضى وأرباب الديوان وأصحاب المشورة ومتولين المناصب وغيرهم بالحضور فى صبحها .وركب معهم بموكبه وزينته وعساكره وطبوله وزموره إلى مصر قنطرة السد ، وكسروا الجسر بحضرتهم وعملوا شنك مدافع ونفوط حتى جرى الماء فى الخليج وركب وهم صحبته حتى رجع إلى داره ، ولم يخرج أحد من الناس فى تلك الليلة للتنزه فى المراكب على العادة سوى النصارى الشوام والقبط والإفرنج ونساؤهم ، وقليل من الناس البطالين حضروا فى صبحها بقلوب منكسرة ونفوس ضعيفة وفيه تواترت الأخبار بحضور عدة مراكب من الإنجليز إلى ثغر الإسكندرية وحاربوا مراكب الفرنسيس بالمينا ، وكانت أشيعت هذه الأخبار من مدة أيام ، وتحدث بها الناس فصعب ذلك على الإفرنج وشق عليهم ، واتفق أن بعض النصارى الشوام نقل عن رجل شريف يقال له السيد أحمد الزرد من تجار وكالة الصابون بخط الجمالية أن تحدث بذلك ، فأمروا بإحضاره ، وذكروا له ذلك ، فأنكر وقال أنا سمعت من فلان النصرانى ، فأحضروه أيضاً وأمروا بقطع لسانهما أو يدفع كل واحد مائة ريال فرانسية فتشفع المشايخ فلم يقبلوا ؛ فقال بعضهم : أطلقوهم ونحن نأتيكم بالدراهم فلم يمكن فأرسل الشيخ مصطفى الصاوى وأحضر مائتى ريال فرانسية ودفعهم فى الحضرة ، فلما قبضوها ردوها إليه وقال : فرّقوها على

الفقراء ، فأظهر أنه فرفها كما أشار وردّها إلى صاحبها فانكف الناس عن التكلم فى شأن ذلك . والواقع أن الإنجليز حضروا فى أثرهم إلى الإسكندرية وحاربوا مراكبهم فنالوا منهم وحرقوا قايقهم الكبير المسمى بنصف الدنيا ، وكان به أموالهم وذخائرهم ، واستمر الإنجليز بمراكبهم قبالة الإسكندرية يغدون ويروحون يرصدون الفرنسيس ، وفى ذلك اليوم سافر عدة من عساكرهم إلى بحرى وإلى الشرقية ، فلما جرى الماء فى الخليج أمر بسد قنطرة الأزبكية ومنعوا الماء من دخوله إلى البركة بسبب وطاقهم ومدافعهم التى بها . وفيه سأل صارى عسكر عن المولد النبوى ولم لم يعملوه كعادتهم ، فاعتذر الشيخ البكرى بتوقف الأحوال وتعطل الأمور وعدم المصروف ، فلم يقبل وقال : لا بد من ذلك ، وأعطى للشيخ البكرى ثلاثمائة ريال فرانسة يستعين بها ، فعلقوا حبالاً وقناديل ، واجتمع الفرنسيس يوم المولد ولعبوا ودقوا طبولهم ، وأحرقوا حراقة فى الليل وسواريخ تصعد فى الهواء ونفوط .

وفى ذلك اليوم ألبس الشيخ البكرى فروة وتقلد نقابة الأشراف ونودى فى المدينة بأن من كان له دعوى على شريف فليرفعها للنقيب .

وفيه ورد الخبر بأن إبراهيم بك والأمراء المصرية استقروا بغزة .

وفى خامس عشرة سافر عدة كبيرة من عسكر الفرنج إلى جهة الصعيد وعليهم صارى عسكر متولى على الصعيد اسمه ديزيه ، وبصحبتهم يعقوب القبطى ليدبر لهم الأمور ، ويعمل لهم أنواع المكر والخداع ويطلعهم على

المخبآت ، ويصنع لهم التحيلات ، فمنها أنه كان يرسل الجماعة من الأفرنج لقبض الأموال أو طلب الكلف ، ويلبس البعض منهم ملابس العثمانيين ويكتب لهم التحذير من المخالفة ويذكر لهم أن هذا أمر سلطانى ، فيروج ذلك على كثير من أهل البلاد ويمتثلون الأوامر .

وفيه حضر القاصد الذى كان أرسله الفرنج بمكاتبة وهدية إلى أحمد باشا الجزار بعكا ، وذلك عند استقرارهم بمصر وصحبة اثنان أو ثلاثة من نصارى الشوام فى صفة تجار ، ومعهم جانب أرز . وكان من خبرهم على ما نقل أنهم من ثغر دمياط فى مركب أحمد باشا ، فلما وصلوا إلى عكا وعلم بهم أحمد باشا أمر بذلك الإفرنجى فنقلوه إلى بعض النقاير ولم يقابله ولم يأخذ منه شيئاً ، وأمره بالرجوع من حيث جاء ، وعوّق عنده النصارى الشوام الذين كانوا بصحبته . وفيه حضر جماعة من الإفرنج إلى بيت رضوان كاشف بباب الشعرية وصحبتهم مهندس ، فانزعجت زوجته وكانت قبل ذلك بأيام صالحت على بيتها ونفسها بألف وثلاثمائة ريال ، وأخذت منهم ورقة لصقتها على باب دارها ، وردت ما كانت وزعته من الأمتعة واطمأنت ، فلما حضر إليها هؤلاء الجماعة قالت لهم : ما تريدون؟ وقد علقت ما صالحتكم عليه ، فقالوا لها : بلغنا أن عندك أسلحة وملابس للمماليك فأنكرت ذلك ، فقالوا : لازم من التفتيش ؛ فقالت : دونكم فطلعوا إلى مكان وفتحوا مخبأة فوجدوا بها أربعة وعشرين سروالا من ملابس الغزو يلكات وأمتعة وغير ذلك ، ووجدوا فى أسفلها مخبأة أخرى بها عدة

كثيرة من الأسلحة والبنادق والطبنجات وصناديق بارود وغير ذلك ، فاستخرجوا ذلك جميعه ، ثم نزلوا إلى تحت السلالم وفحروا الأرض وأخرجوا منها دراهم وحجاب ذهب فى داخله دنانير ، فأخذوا ذلك جميعه ، ثم أنزلوا صاحبة الدار ومعها جارية بيضاء فأخذوهما مع جواريهما السود وذهبوا بهن ، فأقمن عندهم ثلاث ليال ، ونهبوا ما وجدوه من فرش وأمتعة ، ثم قرروا عليها أربعة آلاف ريال أخرى قامت بدفعها وأطلقوها ورجعت إلى بيتها وبسبب هذه الحادثة شددوا فى طلب الأسلحة ونادوا بذلك ، وأنهم بعد ثلاثة أيام يفتشون البيوت ، وكل من وجدوا عنده سلاحاً قتلوه ؛ فخاف الناس من تفتيش البيوت وقالوا هذه حيلة على نهب البيوت ، ثم بطل ذلك .

وفى عشرينه قلدوا مصطفى بك كتخدا الباشا على إمارة الحاج فحضر إلى المحكمة ولبس من هناك بحضرة مشايخ الديوان ، والتزم بونابرته بتشهيل مهمات الحج وعمل محمل جديد .

وفيه سأل أصحاب حصص الالتزام التصرف فى حصصهم فطلبوا حلوانا زائداً عن القانون فلم يرتضوا بذلك فواعدوهم لتمام التحرير والإملاء وقالوا : كل من كان له التزام وتقسيطه ناطق باسمه يحضره ، وعليه ففعلوا ذلك فى عدة أيام والحال على حاله .

وفيه قطعوا كلف وتقارير على البلاد وكتبوا بذلك أوراقاً وذكروا فيها أنها تحسب من المال ، ورتبوا لذلك الصيارف من القبط نزلوا فى البلاد

كالحكام ، وبلغوا أغراضهم فى المسلمين بالضرب والحبس والإهانة والتشديد فى الطلب والتخويف بإحضار عساكر الفرنج إن لم يدفعوا المقرر بسرعة ، وكل ذلك بترتيب القبط ومكرهم .

وفى يوم الخميس خامس عشرينه قتل الفرنسيس رجلا شريفاً من أهل الإسكندرية بالرميلة يقال له السيد محمد كريم بضم الكاف وفتح الراء وتشديد الياء وسكون الميم .

وخبر هذا المقتول أنه كان فى أول أمره قبانياً يزن البضائع فى حانوت بالثغر وعنده خفة فى الحركة وتودد فى المعاشرة ، فلم يزل يتقرب إلى الناس بحسن الود ويستجلب خواطر حواشي الدولة وغيرهم من تجار المسلمين والنصارى ومن له وجاهة وشهرة فى أبناء جنسه حتى أحبه الناس واشتهر ذكره فى ثغر الإسكندرية ورشيد ومصر واتصل بصالح بك حين كان وكيلا لدار السعادة وله الكلمة النافذة فى ثغر رشيد وتملكها وضواحيها واسترق أهلها وقلد أمرها لعثمان خجا ، فاتحد به وبمخدومه السيد محمد المذكور ، واتصل بمراد بك فتقرب إليه ووافق منه الغرض ورفع شأنه على أقرانه وقلده أمر الديوان والجمارك بالثغر ونفذت أحكامه وتصدر لغالب الأمور ، وزاد فى المكوسات والجمارك ومصادرات التجار خصوصاً الإفرنج ، ووقع بينه وبين السيد أحمد أبو شهبة الحادثة التى أوجبت له الاختفاء بالصهريج وموته فيه فلما حضر الفرنسيس ونزلوا الإسكندرية قبضوا على السيد محمد المذكور وطالبوه بالمال وضيقوا عليه وحبسوه فى

مركب ، ولما حضروا إلى مصر وطلعوا إلى قصر مراد بك وجدوا مكاتيبه إليه فى مجلس مراد بك وفيها مطالعته بأخبارهم و بالحث والاجتهاد على حربهم وتهوين أمرهم ، فاشتد غيظهم عليه وأرسلوا فأحضروه إلى مصر وحبسوه ، فتشفع فيه أرباب الديوان عدة مرار فلم يمكن ، إلى أن كانت ليلة الخميس حضر إليه مجلون الملعون وقال له : المطلوب منك كذا وكذا من المال قدر يعجز عنه وأجله اثنتى عشرة ساعة وإلا يقتل بعد مضيها إن لم يدفع .

فلما أصبح أرسل إلى المشايخ و إلى السيد أحمد المحروقى فحضر إليه بعضهم وترجاهم وتدخل عليهم واستغاث وصار يقول : اشترونى يا مسلمين وليس بيدهم ما يفتدونه به ، وكل إنسان مشغول بنفسه ، ومتوقع لشىء يصيبه ، فلما كان قريب الظهر وقد انقضى الأجل أركبوه حماراً واحتاط به عدة من العسكر وبأيديهم السيوف المسلولة ويقدمهم طبلهم يضربون عليه ، وشقوا به الصليبة إلى أن ذهبوا إلى الرميلة وكتفوه وربطوه مشبوحاً ، وضربوا عليه بالبنادق كعادتهم فيمن يقتلوه ، ثم قطعوا رأسه ورفعوها على نبوت وطافوا بها جهات الرميلة ، والمنادى يقول : هذا جزاء من يخالف على الفرنسيس ؛ ثم أن أتباعه أخذوا رأسه ودفنوها مع جثته ، وانقضى أمره

وفيه طلب صارى عسكر بونابرته المشايخ فلما استقروا عنده نهض بونابرته من المجلس ورجع وبيده طيلسانات ملونة بثلاثة ألوان ، كل طيلسان أبيض وأحمر وكحلى ، فوضع منهم واحداً على كتف الشيخ

الشرقاوى ، فرمى به إلى الأرض واستعفى وتغير لونه فقال الترجمان : يا مشايخ أنتم صرتم أحباب صارى عسكر ، وهو قصده تعظيمكم وتشريفكم بزيه وعلامته ، فإنكم إذا تميزتم بذلك عظمتكم العساكر والناس وصار لكم منزلة فى قلوبهم ؛ فقالوا له ، لكن قدرنا ينحط عند الله وعند إخواننا المسلمين ، فاغتاظ لذلك ، ورطن بلسانه ، وبلغ عنه بعض التراجمين أنه قال عن الشيخ عبد الله هذا لا يصلح للرياسة ونحو ذلك ، فلاطفوه بقية الجماعة واستعفوه من تلك الشالات فقال : إن لم يكن ذلك فلازم من وضعكم الجوكار فى صدوركم وهى العلامة التى يقال لها الوردة فقالوا : أمهلونا حتى نتروى فى ذلك واتفقوا على اثنى عشر يوماً .

وفى ذلك الوقت حضر الشيخ السادات باستدعاء فصادفهم منصرفين ، فلما استقر به الجلوس بش إليه وضحك له صارى عسكر ، وتملق بين يديه بلطيف القول الذى يعد به الترجمان ، وصار يقبل يده تارة وركبته أخرى ، ويظهر له المحبة والصداقة ؛ وأهدى له خاتماً الماساً وكافه للحضور عنده من الغد ، وقام وانصرف وفى ذلك اليوم نادى جماعة القلقات على الناس بوضع العلامات المعروفة بالوردة ، وهى عبارة عن ظهور أمارة الطاعة والمحبة عندهم ، فأنف غالب الناس من ذلك وبعضهم رأى أن ذلك لا يخل بالدين إذ هو مكروه ويترتب على عدم الامتثال مزيد الضرر فوضعها .

ثم فى عصر ذلك اليوم نادوا بإبطالها من العامة ، وألزموا بعض الأعيان

ومن يريد الدخول عندهم لحاجة من الحاجات بوضعها ، فكانوا يضعونها إذا حضروا عندهم ويرفعونها إذا انفصلوا عنهم ، وذلك أياماً قليلة وحصل ما يأتى ذكره فتركت .

وفى أواخره شرع الفرنسيس فى عمل عيد لهم ببركة الأزبكية ، وسبب هذا العيد أنهم لما قتلوا سلطانهم وظهرت بدعتهم التى ابتكروها وخرجوا بها عن الطريق والملل ، جعلوا ذلك اليوم عيداً وتاريخاً وهو موافق لاعتدال الخريف ، وهو انتقال الشمس لبرج الميزان ، فنقلوا أخشاباً ، وحفروا حفراً ، وأقاموا صارياً عظيماً «بالآلات» ، وبنى بوسط بركة الأزبكية وردموا حوله تراباً كثيراً عالياً مقدار قامة وعملوا فى أعلاه قالباً من الخشب مجدد الأعلى مربع الأركان ولبسوا باقيه على سمت القالب قماشاً ثخيناً طلوه بالحمرة المجزعة وعملوا أسفله قاعدة نقشوا عليها تصاوير سواد فى بياض ؛ وصنعوا مقابل باب الهواشة بوابة كبيرة عالية من خشب متغص ؟ وكسوها بالقماش المدهون مثل لون الصارى ، وفى أعلى القوصرة طلاء أبيض وبه تصاوير بالأسود مصور فيه مثال حرب المماليك المصرية معهم ، وهم فى شبه المنهزمين بعضهم واقع على بعض ، وبعضهم ملتفت خلف ظهره وعلى موازاة ذلك من الجهة الأخرى بناحية قنطرة الدكة التى يدخل منها الماء إلى البركة مثال بوابة أخرى على غير شكلها لحارة البرود ، وأقاموا أخشاباً كثيرة منتصبة مصطفة منها إلى البوابة الأخرى شبه الدائرة متسعة محيطة بمعظم فضاء البركة بحيث صار الصارى الكبير فى المركز ، وربطوا بين

تلك الأخشاب حبالا ممتدة وعلقوا بها صفين من القناديل وتماثيل بنى ذلك لحراقة البارود أيضاً ؛ وأقاموا فى هذا العبث عدة أيام .

شهر ربيع الثانى

استهل بيوم الأربعاء فيه وردت الأخبار بأن مراد بك ومن معه لما بلغهم ورود الفرنسيس عليهم رجعوا إلى جهة الفيوم وأن عثمان بك الأشقر عدّى إلى البر الشرقى وذهب من خلف الجبل إلى عند سيده بغزة ، وخرج جماعة من الإفرنج إلى جهة الشرق ومعهم عدة جمال وأحمال ، فخرج عليهم الغز والعرب الذين يصحبونهم فأخذوا منهم عدة جمال بأحمالهم ولم يلحقوهم .

وفى ثالثه حضرت المكاتبة من إبراهيم بك خطاباً للمشايخ وغيرهم ، مضمونها أن تكونوا مطمئنين ومحافظين على أنفسكم والرعية ، وإن حضرة مولانا السلطان وجه لنا عساكر ، وإن شاء الله عن قريب تحضر عندكم .

فلما وردت تلك المكاتبة وقد كان سأل عنها بونابرته ، فأرسلوها له وقرئت عليه فقال : المماليك كذابون ، ووافق أيضاً أنه حضر أغا رومى كان معوّقاً بالإسكندرية فمرّ بالشارع وذهب لزيارة المشهد الحسينى ، فشاهده الناس ، فاستغربوا هيئته ، وفرحوا برؤيته وقالوا هذا اجى حضر من عند مولانا السلطان بجواب للفرنسيس يأمرهم بالخروج من مصر ،

واختلفت رواياتهم وآراؤهم ، وتجمعوا بالمشهد الحسينى ، وتبع بعضهم بعضاً وصادف أن بونابرته فى ذلك الوقت بلغه مما نقل وتناقل بين الناس أنه ورد مكتوب إلى المشايخ أيضاً وأخفوه ، فركب من فوره وحضر إلى بيت الشيخ السادات بالمشهد الحسينى فلما مر بعسكره وطوائفه فى ذلك الوقت ورآه الناس المتجمعة بخط المشهد الحسينى ، وشاهد الآخر جمعيتهم تحقق الناس ما توهموه وداخل الفرنسيس أمر من ذلك أيضاً ، وعند ما رأى العامة بونابرته خارجاً من بيت الشيخ السادات راكباً على فرسه وخلفه الخيالة بأيديها السيوف المسلولة كعادتهم صاحوا بأجمعهم وقالوا : الفاتحة بصوت عال ، فشخص إليهم وصار يسأل من معه عن ازدحامهم وصياحهم فلطفوا له القول ، وكان لما دخل دار الشيخ السادات نزل إليه الشيخ وواجهه بعد ما انزعج هو وعياله لورود هؤلاء عليهم فى وقت القائلة على حين غفلة فلما استقر به الجلوس سأل عن تلك المراسلة فأجابه بعدم علمه بشىء من ذلك ، فألح عليه فحلف له وتنصل فلم يصدق وقال له لعله وصل إلى غيرك فأحضروا الشيخ الشرقاوى وبعض المشايخ فجحدوا ذلك ثم قام فركب وذهب إلى داره وكانت نكتة غريبة ، وساعة اتفاقية عجيبة ، كاد ينشأ منها فتنة لولا الطاف الله تعالى .

وفيه شرعوا فى خلع البوابات والدروب غير النافذة أيضاً ونقلوها إلى بركة الأزبكية لأنهم جمعوا ما قلعوه من البوابات عند رصيف الخشاب ، والبوابة العظيمة يقطعونها نصفين ويدفعونها بالعتالين إلى هناك فاجتمع من

ذلك شيء كثير جداً وامتلأت من رصيف الخشاب إلى وسط البركة .
وفى يوم السبت حادى عشر ، كان يوم عيدهم الموعود به فضربوا فى صبيحة ذلك اليوم مدافع كثيرة ، ووضعوا على كل قائم بنديرة من بنديراتهم الملونة وضربوا طبولهم واجتمعت عساكرهم بالبركة الخيالة والرجالة واصطفوا صفوفاً على طرائقهم المعروفة بينهم ودعوا المشايخ وأعيان المسلمين والقبطة والشوام ؛ فاجتمعوا ببيت كبيرهم ، وصارى عسكرهم بونابرته وجلسوا حصة من النهار ولبس النصارى من القبط والشوام ملابس الافتخار فلبس جرجس الجوهرى كركه بطرز قصب على أكتافها إلى أكمامها ، وعلى صدرها شمسات قصب بأزرار ، وكذلك فلتيوس وتعمموا بعمائم كشميرى ، وركبوا البغال الفارهة واظهروا البشر والسرور فى ذلك اليوم إلى الغاية ثم نزل عظماؤهم وصحبتهم المشايخ والقاضى وكتخدا الباشا فركبوا وذهبوا للصارى الكبير الموضوع بوسط الأزبكية وكانوا فرشوا فى أسفله بسطاً كثيرة ، ثم أن العساكر لعبوا ميادينهم وعملوا هيئة حربهم وضربوا البندق والمدافع ، فلما انقضى ذلك اصطفت العساكر صفوفاً حول ذلك الصارى ، وقرأ عليهم كبير قسوسهم ورقة بلغتهم لا يدرى معناها إلا أهلها ولعلها كالوصية والنصيحة أو الوعظ ، ثم قاموا وانفض الجمع ، ورجع صارى عسكر إلى داره فمد سماطاً عظيماً للحاضرين ، فلما كان عند الغروب أوقدوا جميع القناديل التى على الحبال والتماثيل والأعمال التى على البيوت وعند العشاء عملوا حراقة بارود وسواريخ ونفوط وشبه سواقى

ودواليب من نار ومدافع كثيرة نحو ساعتين من الليل ؛ واستمرت القناديل موقدة حتى طلع النهار ، ثم فكوا الأحبال والتعاليق والتماثيل المصنوعة ، وبقيت البوابة المقابلة لباب الهواء والصارى الكبير وتحته جماعة ملازمون الإقامة عنده ليلا ونهاراً من عساكرهم لأنه شعارهم وإشارة إلى قيام دولتهم فى زعمهم ، عجل الله زوالها من جميع الأرض .

وفى ثانى ليلة منه ركب كبيرهم إلى بر الجيزة ، وسفر عساكر إلى الجهة التى بها مراد بك وكذلك إلى جهة الشرقية ، ومعهم مدافع على عجل .

وفيه أرسل اللعين دبوى قائم مقام إلى الست نفيسة وطلب زوجة عثمان بك الجوخدار ، فأرسلت إلى المشايخ تستغيث بهم ، فحضر إليها المهدى والسرسى وقصدوا منعها فلم يمكنهم ، فذهبوا صحبتها ونظروا فى قصتها ؛ والسبب فى طلبتها أنهم وجدوا رجلا فراشاً معه جانب دخان وبعض ثياب ، فقبضوا عليه وقرروه ، فأخبر أنه تابعها ، وأنها أعطته ذلك وواعدته بالرجوع أيضاً لتسلمه شكين دخان وفروة وخمسمائة محبوب ليوصل ذلك لسيده ، فهذا هو السبب فى طلبها ؛ فقالوا : وأين الفراش؟ فبعثوا لإحضاره وسألوها فأنكرت ذلك بالمرة فانتظروا حضور الفراش إلى بعد المغرب فلم يحضر ، فقال لهم المشايخ : دعوها تذهب إلى بيتها وفى غد تأتى ونحقق هذه القضية فقال الملعون : « نونو » ومعناه بلغتهم النفى أى لا تذهب ، فقالوا : ادعها هى تذهب ونحن نبيت عوضاً عنها ؛ فلم يرض أيضاً ،

وعالجوا فى ذلك بقدر طاقتهم ، فلما أيسوا تركوها ومضوا ، فباتت عندهم فى جهة من البيت ومعها جماعة من النساء المسلمات والنساء الإفرنجيات .

فلما أصبح النهار ركب المشايخ إلى كتخدا الباشا والقاضى ، فركبا معاً وذهبا إلى بيت صارى عسكر الكبير ، فأحضرها وسلمها إلى القاضى ، ولم يثبت عليها شيء من هذه الدعوى الباطلة ، وقرروا عليها ثلاثة آلاف ريال فرانسة ، وذهبت إلى بيت لها مجاور لبيت القاضى وأقامت فيه لتكون فى حمايته .

وفى يوم الخميس نادوا فى الأسواق بأن كل من كان عنده بغلة يذهب بها إلى بيت قائم مقام ببركة الفيل ويأخذ ثمنها ، وإن لم يحضرها بنفسه تؤخذ منه قهراً ويدفع ثلاثمائة ريال فرانسة وإن أحضرها باختياره يأخذ فى ثمنها خمسين ريالا قلت عن قيمتها أو كثرت ، فغنم صاحب الحسيس ، وخسر صاحب النفيس ، ثم ترك ذلك .

وفيه نادوا بوقود قناديل سهارى بالطرق والأسواق وأن يكون عل كل دار قنديل ، وعلى كل ثلاثة دكاكين قنديل ، وأن يلازموا الكنس والرش وتنظيف الطرق من العفوشات والقاذورات والقطط الميتة ، هذا مع ما هم فيه من القذارة فى بيوتهم وأزقة مساكنهم وكثرة الأتربة المسبخة ، وما يختلط بها من ريش الطيور ومصارين الحيوان وفضلات مآكلهم ، ورائحة شرابهم ، وحموضة مسكراتهم وبولهم وغائطهم بحيث إن المار يسد أنفه حتى يتجاوز عنهم .

وفيه نادوا على الأغراب من المغاربة وغيرهم والخدامين البطالين ليسافروا إلى بلادهم ، وكل من وجد بعد ثلاثة أيام يستاهل الذى يجرى عليه ، ثم كرروا المناداة بذلك وأجلوهم أربعة وعشرين ساعة ، فذهب جماعة من المغاربة إلى صارى عسكر ، وقالوا : أردنا طريقاً للذهاب ، فإن طريق البرغير مسلوكة والإنكليز واقفون بطريق البحر يمنعون المسافرين ولا نقدره على المقام فى الإسكندرية من الغلاء وعدم الماء بها فتركهم .

وفيه جعلوا إبراهيم أغا المتفرقة المعمار قبطان السويس ، وسافر معه أنفار ببيرق فرنساوى ، فخرج عليهم العربان فى الطريق فنهبوهم وقتلوا إبراهيم أغا المذكور ومن بصحبته ، ولم يسلم منهم إلا القليل .

وفيه أهمل أمر الديوان الذى يحضره المشايخ ببيت قايد أغا فأقاموا أياماً يذهبون فلا يأتيهم أحد ، فتركوا الذهاب فلم يطلبوا .

وفيه شرعوا فى ترتيب ديوان آخر وسموه محكمة القضايا وكتبوا فى شأن ذلك طومارا وشرطوا فيه شروطاً بألفاظ يعافها الطبع ، ويمجها السمع ، ورتبوا به ستة من القبطة وستة من تجار المسلمين وقاضيه الكبير ملطى القبطى الذى كان كاتباً عند أيوب بك الدفتر دار ، وفوضوا إليهم القضايا فى أمور التجار والعامة والمواريث والدعاوى ؛ وجعلوا لذلك الديوان قواعد من الخبث وأساساً من الكفر ودعائم من الظلم وأركاناً من البدع السيئة ، وكتبوا نسخاً من ذلك كثيرة أرسلوا منها إلى الأعيان ، وألصقوا نسخاً فى مفارق الطرق ورءوس العطف وأبواب المساجد ، وشرطوا فى ضمنه شروطاً ،

وفى ضمن تلك الشروط شروطاً أخر ، وذلك بتعبيراتهم الكثيفة ،وألفاظهم السخيفة ، محصلها التحيل على سلب أموال الناس ونزع ما بأيديهم من مال وعقار وميراث وغير ذلك كقولهم وما يفهم بعد التأمل الكثير فى عبارتهم بأنأصحاب الأملاك يأتون بحججهموتمسكاتهم الشاهدة لهم بالتمليك فإذا أحضروها وبينوا وجه تملكهم لها إما بالبيع أو الانتقال لهم بالإرث عن أسلافهم لا يكتفى بذلك ، بل يؤمر بالكشف عليها فى السجلات ويدفع على ذلك الكشف دراهم بقدر عينوه فى تلك الطومار ، فإن وجد تمسكه مقيداً بالسجل طلب منه بعد ذلك الثبوت ، فإن أثبته بشهادة البينة وقبلرها دفع مقرراً آخر على ذلك الإشهاد ، وكتب بذلك تصحيحاً ، ثم يكتب له بعد ذلك تمكين ، وينظر بعد ذلك فى قيمته ويدفع على كل مائة اثنين فإن لم يكن له حجة ، أو كانت ولم تكن مقيدة بالسجل أو مقيدة ولم يثبت ذلك التقييد فإنها تضبط لديوان الجمهور وتصير من حقوقهم .

وهذا من أخبث التحيل على نزع الأملاك والعقارات من أيدى أربابها ، وذلك أن الناس إنما وضعوا أيديهم على أملاكهم إما بالشراء ، أو بأياولتها لهم من مورثهم أو نحو ذلك بحجة قريبة أو بعيدة العهد ، أو لحجج أسلافهم وموّرثيهم ، فإذا طولبوا بإثبات مضمونها وسجلاتها تعسر أو تعذر لحادث الموت أو الأسفار ، أو ربما حضرت الشهود فلم تقبل ، فإن قبلت فعلت به ما ذكر ومن الشروط مقررات على المواريث والموتى ، ومقاديرها متنوعة فى القلة والكثرة كقولهم إذا مات الميت يشاور عليه ،

ويدفعون قدراً للمشاورة ويفتحون تركته بعد أربع وعشرين ساعة ، فإن بقيت أكثر من ذلك ضبطت للديوان أيضاً ، ولا حق فيها للورثة وأن فتحت على الرسم بإذن من الديوان يدفع على ذلك الإذن مقرراً ، وكذلك على ثبوت الورثة ، ثم عليهم بعد قبض ما يخصهم مقرر ، وذلك بزيادة كثيرة ، وكذلك من يدعى دينا على الميت ليثبته بديوان الحشريات ! ! ويدفع على إثباته مقرراً ويأخذ له ورقة يستلم بها دينه ، فإذا استلمه دفع المقرر الزائد .

ومثل ذلك فى الالتزام والرزق والأطيان بشروط وأنواع وكيفية أخرى غير ذلك والهبات والمبيعات والدعاوى والمنازعات والمشاجرات والإشهادات الجزئيات والكليات والمسافر كذلك لا يسافر إلا بورقة ويدفع عليها مقرراً ، وكذلك المولود إذا ولد ويقال له إثبات الحياة وكذلك المؤجرات وقبض أجر الأملاك وغير ذلك .

وفيه نادى أصحاب الدرك على العامة بترك الفضول والكلام فى أمور الدولة وإذا مر عليهم جماعة من العسكر مجروحين أو منهزمين لا يسخرون بهم ، ولا يصفقون عليهم كما هى عادتهم .

وفيه نهبوا أمتعة عسكر الغليونجية الذين كانوا عسكراً عند الأمراء ، فنهبوا ما كان بوكالة على بك بساحل بولاق وبالجمالية ، وأخذوا متاعهم ومتاع شركائهم محتجين بأنهم قاتلوهم مع المماليك وهربوا معهم .

وفيه أحضروا محمد كتخدا أبو سيف الذى كان سرداراً بدمياط من

طرف الأمراء ، وكان سابقاً كتخدا حسن بك الجداوى ، فلما حضر حبسوه بالقلعة وحبسوا معه فراشاً لأبراهيم بك . .

وفيه أمروا سكان القلعة بالخروج من منازلهم والنزول إلى المدينة ليسكنوا بها ، فنزلوا ، وأصعدوا إلى القلعة مدافع ركزوها بعدة مواضع ، وهدموا بها أبنية كثيرة وشرعوا فى بناء حيطان وكرانك وأسوار وهدموا أبنية عالية وأعلوا مواطىء منخفضة ، وبنوا على بدنات باب العزب بالرميلة وغيروا معالمها وأبدلوا محاسنها ومحوا ما كان بها من معالم السلاطين وآثار الحكماء والعظماء ، وسلبوا ما كان بأبوابها العظام ، وإيواناتها الفخام ، من الأسلحة والورق والبلط والخوذات والحراب الهندية واكر الفداوية ، وهدموا قصر يوسف صلاح الدين ، ومحاسن الملوك والسلاطين ؛ ذوات الأركان الشاهقة ، والأعمدة الباسقة ، وكذلك ما بها من المساجد ، والزوايا والمشاهد ؛ وشوّهوا المسجد العظيم ، والجامع المشيد الفخيم ، الذى أنشأه صاحب المفاخر ، محمد بن قلاوون الملك الناصر ، فقلعوا منبره ، وشعثوا إيوانه ، وأخذوا أخشابه ، وزعزعوا أركانه ، وأزالوا المقصورة الحديد البديعة الإتقان ، التى كان يصلى بداخلها السلطان ؛ وحسبنا الله ونعم الوكيل .

وفيه عينت عساكر إلى مراد بك وذهبوا إليه ببحر يوسف .

وفى يوم الخميس سادس عشر ، نودى بأن كل من تشاجر مع نصرانى أو يهودى أو تشاحن معه نصرانى أو يهودى يشهد أحد الخصمين

على الآخر ويطلبه لبيت صارى عسكر .

وفيه قتلوا شخصين وطافوا برءوسهما ينادون عليهما ويقولون : هذا جزاء من يأتى بمكاتيب من عند المماليك أو يذهب إليهم بمكاتيب .

وفيه نبهوا على الناس بالمنع من دفن الموتى بالترب القريبة من المساكن كتربة الأزبكية والرويعى ، ولا يدفنون الموتى إلا بالقرافات البعيدة ، والذى ليس له تربة بالقرافة يدفن ميته فى ترب المماليك ، وإذا دفنوايبالغون فى تسفيل الحفر .

ونادوا أيضاً بنشر الثياب والأمتعة والفرش بالأسطحة عدة أيام وتبخير البيوت بالبخورات المذهبة للعفونة ، كل ذلك خوفاً من حصول الطاعون وعدواه ، ويقولون إن العفونة تستجن بأغوار الأرض ، فإذا دخل الشتاء وبردت الأغوار بسريان النيل والأمطار والرطوبات خرج ما كان مستجناً بالأرض من الأبخرة الفاسدة فيتعفن الهواء ويفسد ، فيحدث الوباء والطاعون .

ومن قولهم أيضاً إنه إذا مرض مريض لا بد من الإخبار عنه ، فيرسلون من جهتهم حكيما للكشف عليه إن كان بالطاعون أو غيره ، ثم يرون رأيهم فيه بعد ذلك .

وفى يوم السبت ثامن عشره ذهب جماعة من القواسة الذين يخدمون الفرنسيس وشرعوا فى هدم التراكيب المبنية على المقابر بتربة الأزبكية وتمهيدها بالأرض ، فشاع الخبر بذلك وتسامع أصحاب الترب

بتلك البقعة ، فخرجوا من كل حدب ينسلون وأكثرهم النساء الساكنات بحارات المدابغ وباب اللوق وكوم الشيخ سلامة والفوالة والمناصرة وقنطرة أمير حسين وقلعة الكلاب إلى أن صاروا كالجراد المنتشر ، ولهم صياح وضجيج ، واجتمعوا بالأزبكية ووقفوا تحت بيت صارى عسكر ، فنزل له التراجمون واعتذروا بأن صارى عسكر لا علم له بذلك الهدم ولم يأمر به وإنما أمر بمنع الدفن فقط ؛ فرجعوا إلى أماكنهم ورفع الهدم عنهم.

وفيه كتبوا من المشايخ كتاباً ليرسلوه إلى السلطان وآخر إلى شريف مكة ثم إنهم بصموا منه عدة نسخ ولصقوها بالطرق والمفارق وصورته ملخصاً بعد الصدر وذكر ورودهم وقتالهم مع المماليك وهروبهم ، وإن جماعة من العلماء ذهبت إليهم بالبر الغربى فأمنهم ، وكذلك الرعية دون المماليك وذكر فيه أنه من أخصاء السلطان وأعدى أعدائه وأن السكة والخطبة باسمه وشعائر الإسلام مقامة على ما هو عليه وباقى الكلام المموه الذى ذكروه بمعنى الكلام السابق من كذبهم وقولهم إنهم مسلمون ، ويحترمون النبي والقرآن ، وأنهم أوصلوا الحجاج المشتتين وأكرموهم ، وأركبوا الماشى وأطعموا الجوعان وسقوا الظمآن واعتنوا بيوم الزينة يوم جبر البحر وعملوا له شناناً ورونقاً استجلاباً لسرور المؤمنين ، وأنفقوا أموالا برسم الصدقة على الفقراء ، وكذلك اعتنوا بالمولد النبوى ، وأنفقوا أموالا فى شأن انتظامه وعلو شأنه ، واتفق رأينا ورأيهم على لبس حضرة الجناب المكرم مصطفى أغا كتخدا بكر باشا والى مصر حالاً ، فاستحسنا ذلك لبقاء علقة الدولة

العلية ، وهم أيضاً مجتهدون فى إتمام مهمات الحرمين وأمرونا أن نعلمكم بذلك إلى آخره والسلام .

وفيه وقعت حادثة جزئية من جملة الجزئيات وهو أن رجلا صيرفياً بخط الجمالية بجوار حارة الجوانية وقع من لفظه أنه قال : السيد أحمد البدوى بالشرق والسيد إبراهيم الدسوقى بالغرب يقتلان كل من يمر من النصارى ، وكان هذا الكلام بمحضر من النصارى الشوام ، فجاوبه بعضهم وأسمعه قبيح القول ووقع بينهما التشاجر ، فقام النصرانى وذهب إلى دبوى وأخبره بالقصة فأرسل فقبض على ذلك الصيرفى وحبسه وسمر حانوته وختم على دارين له ؛ فتشفع فيه المشايخ عدة مرار فأطلقوه بعد يومين وأرسلوه إلى بيت البكرى ليؤدب هناك بالضرب أو يدفع خمسمائة ريال فرانسة ، فضرب فى بيت البكرى ماية سوط وأطلق سبيله ، وكذلك أفرجوا عن بقية المسجونين .

وفى يوم الاثنين (طافوا) طاف أصحاب الدرك على الأخطاط والوكايل فكتبوا أسماءها وأسماء البوابين وأمرهم أن لا (يسكنون) يسكنوا أحداً من الأغراب ولا يطلقوا أحداً يسافر إلا بإذن من أغاة مستحفظان .

وفى يوم الثلاثاء عمل المولد الحسينى وكان العزم تركه فى هذا العام فدس بعض المنافقين دسيسة عند الإفرنج ، وذلك أنه وقعت المذاكرة بأن من المعتاد أن يحل مولد الحسين بعد مولد النبى فقال بونابرته : ولماذا لم يعملوه ؟ فقال ذلك المنافق غرض الشيخ السادات عدم عمله إلا إذا حضر

المسلمون ، فبلغ الشيخ السادات ذلك فشرع فى عمله على سبيل الاختصار ، وحضر صارى عسكر وشاهد الوقدة ، ورجع إلى داره بعد العشاء .

وفيه حضر علماء الاسكندرية وأعيانها وكذلك رشيد ودمياط وبقية البنادر باستدعاء صارى عسكر ليحضروا الديوان الشارعين فيه لترتيب النظام الذى سبقت الإشارة إليه .

وفيه سافر أيضاً جماعة من الفرنسيين إلى جهة مراد بك ومن معه والتقوا معهم وتراموا ساعة ، ثم انهزموا عنهم وأطمعوهم فى أنفسهم فتبعوهم إلى أسفل جبل اللاهون ، ثم خرجوا عليهم على مثل حالهم رحالا ، وتراموا معهم ارسالا ، وكانوا رتبوا عساكرهم طوابير ، وأكمنوا كميناً مخبورين ؟ مشاهير ، فلما تلاقى الفئتان ، وترامى الفرقتان ، وعلا بينهما الغبار ، واسود وجه النهار كبست عند ذلك الطوابير بالسيوف ، فأذاقوهم كأس الحتوف ؛ وأثخنوهم قتلا ذريعاً ، وتركوا أكثرهم صريعاً فولوا على أدبارهم إلى جهة البحر منهزمين ، وللنجاة طالبين ، فخرج عليهم ذلك الكمين فقطع منهم الأعناق وتركهم طرحى فى الأملاق ؛ والذى نجا منهم بالسياحة والهرب ، تلقته طائفة العرب ؛ فاستأصلوا شأفتهم ، وأهلكوا كافتهم ؛ فلم يفلت منهم إلا ما ندر ، وغبروا فيمن غبر ؟ فلما تواتر هذا الخبر ، وتناقل حديثه الناس واشتهر سر الناس باطناً لخذلان أهل الكفر وفرحوا واستبشروا بيدء خذلانهم وانشرحوا .

وفى ذلك اليوم سقطت البوابة المصنوعة ببركة الأزبكية المقابلة لباب الهوا التى كانوا وضعوها فى عيدهم وتقدم شرحها ووصفها فتفاءل الناس بسقوط دولتهم أيضاً . وسبب سقوطها أنهم لما منعوا الماء من دخوله للبركة وسدّوا القنطرة كما تقدم رشح الماء فى أرض البركة وتخلخلت الأرض فسقطت تلك البوابة .

وفى يوم الجمعة رابع عشرينه نبهوا على المشايخ والأعيان والتجار ومن حضر من الأقطار بالحضور إلى الديوان العام ومحكمة النظام بكرة تاريخه وذلك ببيت مرزوق بيك بحارة عابدين فلما أصبح يوم السبت أعادوا التنبيه بحضورهم بالديوان القديم ببيت قايد أغا بالأزبكية فتوجه المشايخ المصرية والذين حضروا من الثغور والبلاد ، وحضر الوجاقات وأعيان التجار ونصارى القبط والشوام ومدبرو الديوان من الفرنسيس وغيرهم جمعاً موفوراً .

فلما استقر بهم الجلوس شرع ملطى القبطى الذى عملوه قاضى فى قراءة فرمان الشروط وفى المناقشة فابتدر كبير المديرين فى إخراج طومار آخر وناوله للترجمان فنشده وقرأ ملخصه ؛ ومضمونه الإخبار بأن قطر مصر هو المركز الوحيد وأنه أخصب البلاد ، وكان يجلب إليها المتاجر من البلاد البعيدة وأن العلوم والصنائع والقرآن والكتابة التى يعرفها الناس فى الدنيا أخذت على أجداد أهل مصر الأول ، ولكون قطر مصر بهذه الصفات طمعت الأمم فى تملكه ، فملكه أهل بابل واليونانيون والعرب والترك إلا أن الدولة الأشد خراباً له هم الترك ، فإنهم إذا حصلوا الثمرة قطعوا أصولها

فكذلك لم يبقوا بأيدى الناس إلا النزر اليسير ، وصار الناس لأجل الناس مختفين تحت حجاب الفقر وقاية لأنفسهم من سوء ظلمهم أن الطائفة الفرنساوية بعد ما تمهد أمرهم وبعد صيتهم بقيامهم بقيام الحرب اشتاقت أنفسهم لاستخلاص مصر مما هى فيه وإراحة أهلها من تغلب هذه الدولة المنعمة جهلا وغباوة ، فقدموا وحصل لهم النصرة ، ومع ذلك فعلم يتعرضوا لأحد من الناس ، ولم يعاملوا الناس بقسوة وأن غرضهم تنظيم أمور مصر وإجراء خلجانها التى دثرت ويصير لها طريقان : طريق إلى البحر الأسود ، وطريق إلى البحر الأحمر ، فيزداد خصبها وريعها ، ومنع القوى من ظلم الضعيف ، وغير ذلك استجلاباً لخواطر أهلها ، وإبقاء للذكر الحسن ، فالمناسب من أهلها ترك الشغب وإخلاص المودة ، وإن هذه الطوائف المحضرة من الأقليم يترتب على حضورها أمور جليلة لأنهم أهل خبرة وعقل ، فيسألون عن أمور ضرورية ويجيبون عنها ، فينتج لصارى عسكر من ذلك ما يليق صنعه إلى آخر ما سطروه من الكلام المطول المحرف ، والقول المعوج المزخرف .

قلت : ولم يعجبنى فى هذا التركيب إلا قوله : المنعمة جهلا وغباوة بعد قوله : اشتاقت أنفسهم لاستخلاص مصر ، ومن جهله وغباوته أيضاً وكذبه الصريح قوله بعد ذلك : ومع ذلك فلم يتعرضوا لأحد إلى آخر العبارة

ثم قال الترجمان : نريد منكم يا مشايخ أن تختاروا شخصاً منكم يكون كبيراً ورئيساً عليكم ، تمتثلون أمره وإشارته ، فقال بعض الحاضرين

الشيخ الشرقاوى . فقال : « نو. نو» وإنما ذلك يكون بالقرعة، فعملوا قرعة بأوراق فطلع الأكثر الشيخ الشرقاوى، فقال حينئذ : يكون الشيخ عبد الله الشرقاوى هو الرئيس ، فما تم هذا الأمر حتى زالت الشمس فأذنوا لهم فى الذهاب ، وألزموهم بالحضور فى كل يوم .

وفيه وقعت كاينة الحاج محمد بن قيمو المغربى التاجر الطرابلسى ، وهو أنه كان بينه وبين بعض نصارى الشوام التراجمين منافسة ، فأنهى إلى عظماء الفرنسيس أنه ذو مال ، وأنه شريك عبد الله المغربى تابع مراد بلك فأرسلوا بطلبه، فذهب إلى بيت الشيخ عبد الله الشرقاوى لنسابة بينهما فقال الشيخ للقواسة بعد سؤالهم عن سبب طلبهم له ، فقالوا : الدعوة شرعية ، فقال لهم : فى غد احضروا خصمه ويتداعى معه ، فإن توجه الحق عليه ألزمناه بدفعه ، فرجعت الرسل وتغيب الرجل لخوفه فبعد مضى مقدار ساعة حضر نحو الخمسين عسكرياً من الفرنسيس إلى بيت الشيخ وطالبوه به ، فأخبرهم أنه هرب ، فلم يقبلوا عذره وألحوا فى طلبه ، ووقعت منهم أمور غير لائقة ، فركب المهدى والدواخلى إلى صارى عسكر وأخبروه بالقضية وبهروب الرجل ، فقال : ولأى شيء هرب ؟ فقالوا : من خوفه . فقال : لولا أن جرمه كبيراً ما هرب وأنتم غيبتموه وأظهر الحنق والغيظ ، فلاطفاه واستعطفا خاطر الترجمان فكلمه وسكن غيظه ثم سأل عن منزله ومخزنه ، فأخبروه عنهما ، فقال : يذهب معكما من يختم عليهما حتى يظهر فى غد ؛ فاطمأنوا لذلك ، ورجعوا عند الغروب ، وختموا على مخازنه ومنزله

واصبحوا فنهبوهما وما معهما من الجيران وأموال الشركاء والتجار ، وكانت عنده أمانات كثيرة للناس فإنه كان عهدة وملياً عند التجار .

وفى يوم الأحد ذهبوا إلى الديوان وعملوا مثل عملهم الأول حتى تمموا أسماء المنتخبين بديوان مصر والثغور من المشايخ والوجاقلية والقبط والشوام وتجار المسلمين ، وذلك الترتيب غير ترتيب الديوان السابق .

وفى يوم الاثنين اجتمعوا بالديوان ، ونادى المنادى فى ذلك اليوم بالأسواق على الناس بإحضارهم حجج أملاكهم إلى الديوان ، والمهلة ثلاثون يوماً ، فإن تأخر عن الثلاثين يضاعف المقرر ، ومهلة البلاد ستون يوماً ؛ ولما تكامل الجمع شرع ملطى فى قراءة المنشور وتعداد ما به من الشروط مسطور وذكر من ذلك أشياء : منها أمر المحاكم والقضايا الشرعية وحجج العقارات وأمر المواريث ، وتناقشوا فى ذلك حصة من الزمن ، وكتب هذه الأربعة أشياء أرباب ديوان الخاصة وهم يدبرون رأيهم فى ذلك وينظرون المناسب والأحسن وما فيه الراحة لهم وللرعية ثم يعرضون ما دبروه يوم الخميس وما بين ذلك لهم مهلة وانفض المجلس .

شهر جمادى الأولى

استهل بيوم الخميس الموعود واجتمعوا بالديوان ومعهم ما لخصوه واستصوبوه فى الجملة ، فأما أمر المحاكم والقضايا فالأولى بقاؤها على ترتيبها ونظامها وعرفوهم عن كيفية ذلك ومثل ذلك ما عليه أمر محاكم البلاد فاستحسنوا ذلك ، إلا أنهم قالوا : نحتاج إلى ضبط المحاصيل وتقريرها على أمر لا يتعدوه القضاة ولا نوابهم . فقرروا ذلك وهو إذا كانت عشرة آلاف فما دونها يكون على كل ألف ثلاثون ، وإذا كانت خمسين ألفاً فما دونها يكون على الألف عشرون وإذا كان المبلغ مائة يكون على الألف خمسة عشر فإن زاد على ذلك فعشرة ، واتفقوا على تقرير القضاة ونوابهم على ذلك .

وأما حجج العقارات فهذا أمر مشق طويل الذيل فالمناسب فيه والأولى أن تجعلوا عليها دراهم من بادىء الرأى ليسهل تحصيلها ويحسن عليها السكوت أعلى وأوسط وأدنى ، وبينوا القدر المناسب بتفصيل الأماكن وكتبوه وأبقوه حتى يروا الآخرون رأيهم فيه وانفض الديوان .

وفى ذلك اليوم نودى فى الأسواق بنشر الثياب والأمتعة خمسة عشر يوماً وقيدوا على مشايخ الأخطاط والحارات والقلقات بالفحص والتفتيش ، فعينوا لكل حارة امرأة ورجلين يدخلون البيوت للكشف عن ذلك فتطلع

المرأة إلى أعلى الدار وتخبرهم عن نشر الثياب ويعطوهم بعض دراهم ويذهبون بعد التأكيد على أهل المنزل وشدة التعنت وأنهم بعد أيام يأتى إليهم جماعة الإفرنج ويطلعون أيضاً يفتشون ، وكل ذلك حتى تذهب من الثياب رائحة الطاعون وكتبوا بذلك أوراقاً لصقوها بحيطان الأسواق على عادتهم فى ذلك.

وفيه حضر لبيت البكرى جم غفير من أولاد الكتاتيب والفقهاء والعميان المؤذنين وأرباب الوظائف والمستحقين من الممرورين والزمنى والمرضى بالمارستان المنصورى وأوقاف عبد الرحمن كتخدا وشكوا قطع رواتبهم وخبزهم ، فإن جميع الأوقاف تعطل إيرادها وانقطع راتبها واستولى على نظارة الأوقاف النصارى القبط والشوام ، وجعلوا ذلك مغنما لهم ؛ فلما اجتمعوا بضجتهم وصياحهم فواعدوهم على حضورهم الديوان وينهوا شكواهم ويتشفعوا لهم ؛ فذهبوا راجعين .

وفيه قدمت مراكب من جهة الصعيد وفيها عدة من العسكر مجاريح ومشوهون وفيه وضعوا على التلال المحيطة بمصر بيارق بيضاء فأكثر الناس من اللغط بسبب ذلك ولم يعلم أصل ذلك.وفى يوم الأحد اجتمعوا بالديوان وأخذوا فيما هم فيه ، فذكروا أمر المواريث ، فقال اللعين ملطى : يا مشايخ أخبرونا عما تصنعونه فى قسمة المواريث فأخبروه بفروض المواريث الشرعية فقال : ومن أين لكم ذلك فقالوا : من القرآن وتلوا عليهم بعض آيات المواريث ؛ فقال الإفرنج نحن عندنا لا نورّث الولد ونورّث البنت ، ونفعل كذا وكذا بحسب تحسين عقولهم لأن الولد أقدر على التكسب من

البنت فقال مخاييل كحيل الشامى وهو من أهل الديوان أيضاً : نحن والقبطة يقسم لنا مواريثنا المسلمون ، ثم التمسوا من المشايخ أن يكتبوا لهم كيفية القسمة ودليلها فسايروهم وواعدوهم بذلك وانفضوا . وفى ذلك اليوم عزلوا محمد أغا المسلمانى أغاه مستحفظان وجعلوه كتخدا أمير الحاج ، واستقروا بمصطفى أغا تابع عبد الرحمن أغا مستحفظان سابقاً عوضاً عنه ، ونودى بذلك .

وفى يوم الاثنين عملوا الديوان وكتبوا لهم كيفية قسمة المواريث وفروض القسمة الشرعية وحصص الورثة والآيات المتعلقة بذلك ، فاستحسنوا ذلك .

وفى يوم السبت عاشر جمادى الأولى عملوا الديوان ، وأحضروا قائمة تقررات الأملاك والعقار فجعلوا الأعلى ثمانية فراسنة والأوسط ستة والأدنى ثلاثة ، وما كان أجرته أقل من ريال فى الشهر فهو معاف . وأما الوكايل والخانات والحمامات والمعاصر والسيارج والحوانيت فمنهم من جعلوا عليه ثلاثين وأربعين ، وكل شىء بحسبه ، وكتبوا بذلك مناشير على عادتهم ولصقوها بالمفارق والطرق وأرسلوا منها نسخاً للأعيان ، وعينوا المهندسين ومعهم أشخاص لتمييز الأعلى من الأدنى ، وشرعوا فى الضبط والإحصاء ، وطافوا ببعض الجهات لتمييز الأعلى من الأدنى وتقييد الأسماء . ولما أشيع ذلك فى الناس كثر لغطهم واستعظموا ذلك والبعض استسلم للقضاء ، فانتبذ جماعة من العامة وتناجوا فى ذلك ووافقهم على ذلك بعض المتعممين الذين لم ينظروا فى عواقب الأمور ، ولم يتفكر أنه فى القبضة مأسور وأن

الملاعين الكفار ، ما لكون القلاع والأسوار ، ومحصنون الجميع ، بآلات الحرب المنيع فتجمع الكثير من الغوغاء من غير رئيس يسوسهم ، ولا قائد يقودهم ، وأصبحوا يوم الأحد متخربين وعلى الجهاد عازمين ، وأبرزوا ما كانوا أخفوه من السلاح وآلات الحرب والكفاح ، وحضر السيد بدر وصحبته حشرات الحسينية وزعر الحارات البرانية ، ولهم صياح عظيم وهول جسيم ويقولون بصياح فى الكلام : نصر الله دين الإسلام ؛ فذهبوا إلى بيت قاضى العسكر وبه من سبقهم ممن على شاكلتهم نحو الألف والأكثر فخاف القاضى العاقبة وأغلق أبوابه ، وأوقف حجابه فرجموه بالحجارة والطوب ، وطلب الهروب فلم يمكنه الهروب ؛ وكذلك اجتمع بالجامع الأزهر ، العالم الأكبر ؛ وفى ذلك الوقت حضر اللعين ديوى بطائفة من فرسانه وعساكره وشجعانه فمر بشارع الغورية ، وعطف على خط الصنادقية ؛ وذهب إلى بيت الشرقاوى فلم يجده ، فذهب إلى بيت القاضى فوجد ذلك الزحام ، فخاف وخرج من بين القصرين وباب الزهومة ، وتلك الأخطاط بالخلائق مزحومة ، فبادروا إليه وضربوه ، وأثخنوا جراحاته وقتلوه ، وقتل الكثير من فرسانه ، وأبطاله وشجعانه ؛ وذهبوا إلى السعير ، وبئس المصير .

فعند ذلك أخذ المسلمون حذرهم وخرجوا يهرعون ، وفى كل حدب ينسلون ، ومسكوا الأطراف الدائرة بمعظم أخطاط القاهرة ، كبابى الفتوح وباب النصر والبرقية ، إلى باب زويلة وباب الشعرية ؛ وجهة البندقانيين

وما حازاها ، ولم يتعدوا جهة سواها ؛ وهدّموا مصاطب الحوانيت ، وجعلوا أحجارها متاريس للكرنكة ، لتعوق هجوم العدو فى وقت المعركة ، ووقف دون كل متراس ، جمع عظيم من الناس .

وأما الجهات البرانية ، والنواحى الفوقانية فلم يفزع منهم فازع ، ولم يتحرك منهم أحد ولم يسارع ؛ وكذلك شذ عن الوفاق ، مصر العتيقة وبولاق ؛ وعذرهم الأكبر ، قربهم من مساكن العسكر ؛ ولم تزل طائفة المحاربين ، فى الأزقة متترسين ؛ فوصل جماعة من الفرنساوية ، وظهروا من ناحية المناخلية ؛ وبندقوا على متراس الشوّايين ، وبه جماعة من مغاربة الفحامين ؛ فقاتلوهم حتى أجلوهم ، وعن المناخلية أزالوهم ؛ وعند ذلك زاد الحال ، وكثر الرجف والزلزال ؛ وخرجت العامة عن الحد ، وبالغوا فى القضية بالعكس والطرد ؛ وامتدت أيديهم إلى النهب ، والخطف والسلب ؛ فهجموا على حارة للجوانية ، ونهبوا دور النصارى الشوام والأروام ، وما جاورهم من بيوت المسلمين على التحام ؛ وأخذوا الودائع والأمانات وسبوا النساء والبنات ؛ وكذلك نهبوا خان الملايات ، وما به من الأمتعة والموجودات ؛ واكثروا من المعابد ، ولم يفكروا فى العواقب ، وباتوا تلك الليلة سهرانين وعلى هذا الحال مستمرين .

وأما الإفرنج فإنهم أصبحوا مستعدين ، وعلى تلال البرقية والقلعة واقفين ؛ وأحضروا جميع الآلات ، من المدافع والقنابر والبنبات ؛ ووقفوا مستحضرين ، ولأمر كبيرهم منتظرين ؛ وكان كبير الفرنسيس أرسل إلى

المشايخ مراسلة ، فلم يجيبوه عنها ومل من المطاولة ؛ هذا والحرب والرمى متتابع من الجهتين ، وتضاعف الحال ضعفين ، حتى مضى وقت العصر وزاد القهر والحصر ؛ فعند ذلك ضربوا بالمدافع والبنبات ، على البيوت والحارات ؛ وتعمدوا بالخصوص الجامع الأزهر ، وحرروا عليه المدافع والقنبر ؛ وكذلك ما جاوره من الأماكن المحاربين ، كسوق الغورية والفحامين ؛ فلما سقط عليهم ذلك ورأوه ، ولم يكونوا فى عمرهم عاينوه ؛ نادوا : يا سلام ، من هذه الآلام ؛ يا خفى الألطاف ، نجنا مما نخاف ؛ وهربوا من كل سوق ودخلوا فى الشقوق ؛ وتتابع الرمى من القلعة والكيمان ، حتى تزعزعت الأركان ؛ وهدمت فى مرورها حيطان الدور ، وسقطت فى بعض القصور ؛ ونزلت فى البيوت والوكايل ، وأصمت الآذان بصوتها الهايل ؛ فلما عظم هذا الخطب ، وزاد الحال والكرب ؛ ركب المشايخ إلى كبير الفرنسيس ليرفع عنهم هذا النازل ، ويمنع عسكره من الرمى المتراسل ؛ ويكفهم كما انكف المسلمون عن القتال ، والحرب خدعة وسجال ؛ فلما ذهبوا إليه ، واجتمعوا عليه ؛ عاتبهم فى التأخير ، واتهمهم فى التقصير ؛ فاعتذروا إليه فقبل عذرهم ، وأمر برفع الرمى عنهم ؛ وقاموا من عنده ينادون بالأمان فى المسالك ، وتسامع الناس بذلك ؛ فردت فيهم الحرارة ، وتسابقوا لبعضهم بالبشارة ؛ واطمأنت منهم القلوب ، وكان الوقت قبيل الغروب ؛ وانقضى النهار وأقبل الليل وغلب على الظن أن القضية لها ذيل .

وأما أهل الحسينية ، والعطوف البرانية ؛ فإنهم لم يزالوا مستمرين ،

الرمى والقتال ملازمين ؛ ولكن خانهم المقصود ، وفرغ منهم البارود ، والإفرنج أثخنوهم بالرمى المتتابع ، بالقنابر والمدافع ؛ إلى أن مضى من الليل نحو ثلاث ساعات ، وفرغت من عندهم الأدوات ؛ فعجزوا عن ذلك وانصرفوا وكف عنهم القوم وانحرفوا ؛ وبعد هجعة من الليل دخل الإفرنج المدينة كالسيل ؛ ومروا فى الأزقة والشوارع ، لا تجدون لهم ممانع ؛ كأنهم الشياطين أو جند إبليس ، وهدموا ما وجدوه من المتاريس ؛ وذهبوا وجاءوا ، وبغضب الله باءوا ؛ ودخل طائفة من باب البرقية ، وشقوا إلى الغورية ؛ وكروا ورجعوا ، وترددوا وما هجعوا ؛ وعملوا باليقين ، أن لا دافع لهم ولا كمين ؛ وتراسلوا إرسالا ، ركباناً ورجالا ؛ ثم دخلوا أولئك الوعول ، إلى الجامع الأزهر وهم راكبون الخيول ؛ وولجوه من الباب الكبير وخرجوا من الباب الثانى حيث موقف الحمير ؛ وداس فيه المشاة بالنعالات وهم يحملون السلاح والبندقيات ؛ وتفرقوا فى صحنه ومقصورته ، وربطوا خيولهم بقبلته ؛ وعاثوا بالأورقة والبحرات ، وكسروا القناديل والسهارات ، وهشموا خزائن الطلبة ، والمجاورين والكتبة ؛ ونهبوا ما وجدوه من المتاع ، والأوانى والقصاع ؛ والودائع والمخبآت ، بالدواليب والخزانات ؛ ودشتوا الكتب والمصاحف ؛ وعلى الأرض طرحوها ، وبأرجلهم ونعالاتهم داسوها وأحدثوا بالمسجد وتمخطوا ، وبالواو تفوطوا ؛ وشربوا الشراب وكسروا أوانيه وألقوه بصحنه ونواحيه ؛ وكل من صادفوه به عرّوه ، ومن ثيابه أخرجوه ؛ ووجدوا فى بعض الأروقة إنساناً فذبحوه ، ومن الحياة أعدموه ، وفعلوا

بالجامع الأزهر ، ما ليس عليهم بمستنكر ، لأنهم أعداء الدين وأخصام متغلبون ، وغرماء متشمتون ؛ وضباع متكالبون ، وأجناس متباينون ، وأشكال متعاندون ، وأعطى تلك الليلة جيش الرحمن ، فسحة لجيش السلطان ، لرهن لزمه فأداه ، وقطع كان عليه فتعدّاه ؛ ولما أصبح يوم الثلاثاء اصطف منهم حزب بباب الجامع ، فكل من حضر للصلاة يراهم فيكر راجعاً ويسارع وتفرقت طوائفهم بتلك النواحى أفواجاً ، واتخذوا السعى والطواف بها منهاجاً ؛ وأحاطوا بها إحاطة السواد ، ونهبوا بعض الديار بحجة التفتيش على النهب ، وآلهة السلاح والضرب ؛ وخرجت سكان تلك الجهة يهرعون ، وللنجاة بأنفسهم طالبون ؛ وانتهكت حرمة تلك البقعة بعد أن كانت أشرف البقاع ، ويرغب الناس فى سكناها ، ويودعون عند أهلها ما يخافون عليه الضياع وجماعة الإفرنج لا يمرون إلا فى النادر ؛ ويحترمونها كغيرهم فى الباطن والظاهر ؛ فانقلب بهذه الحركة منها الموضوع وانخفض على غير القياس المرفوع ؛ ثم ترددوا فى الأسواق ووقفوا صفوفاً مثيتا وألوفاً ؛ فإن مرّ بهم أحد فتشوه، وأخذوا ما معه وربما قتلوه : ورفعت القتلى والمطروحين من الإفرنج والمسلمين ؛ ووقف جماعة من الفرنسيس، ونظفوا مراكز المتاريس ؛ وأزالوا ما بها من الأتربة ، والأحجار المتراكمة ؛ ووضعوها فى ناحية ، لتصير طرق المرور خالية ؛ وتخربت نصارى الشوام وجماعة أيضاً من الأروام ؛ الذين نهبت دورهم بحارة الجوانية ، يشكون لكبير الإفرنج ما لحقهم من الرزية ؛ واغتنموا الفرصة فى المسلمين ،

وأظهروا ما هو بقلوبهم كمين ؛ وضربوا فيهم الضارب ، وكأنهم شاركوا الإفرنج فى النوائب ، وما قصدهم المسلمون ونهبوا ما لديهم إلا لكونهم منسوبين إليهم ، مع أن المسلمين الذين جاوروهم ، نهبوهم الزعر أيضاً وسلبوهم ، وكذلك خان الملايات المعلوم ، الذى عند باب حارة الروم ؛ وفيه بضائع المسلمين ، وودائع الغائبين ؛ فسكت المصاب على غصّته ، واستعوض الله فى قضيته ؛ لأنه أن تكلم لا تسمع دعواه ، ولا يلتفت لشكواه وانتدب برطلمين الكافر للعسس على من حمل السلاح أو اختلس ؛ وبث أعوانه فى الجهات ، يتجسسون فى الطرقات ؛ فيقبضون على الناس بحسب أغراضهم ، وما ينهيه النصارى من إبغاضهم فيحكم فيه بمراده ، ويعمل برأيه واجتهاده ؛ ويأخذ منهم الكثير ، ويركب فى موكبه ويسير ، وهم موثقون بين يديه بالحبال ، ويسحبهم الأعوان بالقهر والنكال ؛ فيودعونهم السجونات ، ويطالبونهم بالمنهوبات ، ويقررونهم بالعقاب والضرب ، ويسألونهم عن السلاح وآلات الحرب ؛ ويدل بعضهم على بعض ، فيصفون على المدلول عليهم أيضاً القبض ؛ وكذلك فعل مثل فعله اللعين الأغا ، وتجبر فى أفعاله وطغى ؛ وكثير من الناس ذبحوهم ، وفى بحر النيل قذفوهم ؛ ومات فى هذين اليومين وما بعدها أمم كثيرة لا يحصى عدها ، وطال بالكفرة بغيهم وعنادهم ، ونالوا من المسلمين قصدهم ومرادهم ؛ وأصبح يوم الأربع ، فركب فيه المشايخ أجمع ؛ وذهبوا لبيت صارى عسكر وقابلوه ، وخاطبوه فى العفو ولاطفوه

والتمسوا منه أماناً كافياً ، وعفواً ينادون به باللغتين شافياً ؛ لتطمئن بذلك قلوب الرعية ، ويسكن روعهم من هذه الرزية ؛ فوعدهم وعداً مشوباً بالتسويف ، وطالبهم بالتبيين والتعريف ، عمن تسبب من المتعممين فى إثارة العوام ، وحرضهم على الخلاف والقيام ، فغالطوه عن تلك المقاصد فقال على لسان الترجمان نحن نعرفهم بالواحد ، فترجوا عنده فى إخراج العسكر ، من الجامع الأزهر فأجابهم لذلك السؤال ، وأمر بإخراجهم فى الحال ، وابقوا منه نحو السبعين أسكنوهم بالخطة كالضابطين ، ليكونوا للأمور مراصدين ، وبالأحكام متقيدين .

ثم أنهم فحصوا عن المتهمين فى إثارة الفتنة ، فطلبوا الشيخ سليمان الجوسقى شيخ طائفة العميان ، والشيخ أحمد الشرقاوى ، والشيخ عبد الوهاب الشبراوى ، والشيخ يوسف المصيلحى ، والشيخ إسماعيل البراوى وحبسوهم ببيت البكرى .

وأما السيد بدر فإنه تغيب وسافر إلى جهة الشام ، وفحصوا عليه فلم يجدوه ، وتردد المشايخ لتخليص الجماعة المعوقين فخولطوا ، وأتهم أيضاً إبراهيم افندى كاتب البهار ، بإنه جمع له جمعاً من الشطار ، وأعطاهم الأسلحة والمساوق ، وكان عنده عدة من المماليك المخيفين ، والرجال المعدودين ؛ فقبضوا عليه وحبسوه ببيت الأغا .

وفى يوم الأحد ثانى عشره توجه الشيخ السادات وباقى المشايخ إلى بيت صارى عسكر الفرنسيس وتشفعوا عنده فى الجماعة المسجونين ببيت

الأغا وقايم‌مقام والقلعة فقيل لهم: طوّلوا روحكم ولا تستعجلوا؛ فقاموا وانصرفوا.

وفيه نادوا فى الأسواق بأمان ، ولا أحد يشوش على أحد ، والقبض على الناس مستمر ليلاً ونهاراً ، وكذلك كبس البيوت والنهب بحسب ما ينهيه العدو فى عدوه ورد بعض الأمتعة التى ذهبت للنصارى .

وفيه توسط عمر القلقشى لمغاربة الفحامين وجمع منهم ومن غيرهم عدة وافرة ، وعرضهم على صارى عسكر فأختار منهم الشباب وأولى القوة وأعطاهم سلاحاً وآلات حرب ورتبهم عسكر ورئيسهم عمر المذكور وخرجوا وأمامهم الطبل الشامى على عادة عسكر المغاربة ، وسافروا إلى جهة بحرى بسبب أن بعض البلاد قام على عسكر الإفرنج وقت الفتنة وقاتلوهم ، وضربوا أيضاً مركبين بها عدة من عساكرهم فحاربوهم وقاتلوهم ؛ فلما (ذهبوا) أولئك المغاربة سكنوا الفتنة وضربوا عشمة وقتلوا كبيرها بابن شعير ونهبوا داره ومتاعه وماله وبهائمه وكان شيئاً كثيراً جداً ،واحضروا إخوته وأولاده وقتلوهم ولم يتركوا منهم سوى ولد صغير جعلوه شيخاً عوضاً عن أبيه ، وسكن العسكر المغربى بدار عند باب سعادة ورتبوا لهم من الفرنسيس جماعة يأتون إليهم فى كل يوم ويدربونهم على كيفية حربهم وقانون ترتيبهم ومعنى إشاراتهم فى مصافاتهم ، فيقف المعلم والمتعلمون مقابلون له صفاً ، وبأيديهم بنادقهم ، فيشير إليهم بألفاظ مستهجنة بلغتهم ، كأن يقول هردبوش ، فيرفعونها قابضين بأكفهم على أسافلها ، ثم يقول : مرش ، فيمشون صفوفاً إلى غير ذلك .

وفيه سافر برطلمين الكافر إلى ناحية سرياقوس ومعه جماعة من العسكر بسبب الناس الفارين إلى جهة الشرق ، فلم يدركهم ، وقبض من البلاد تفريدة وكلفا وعسف فى قبضها وتحصيلها ورجع بعد أيام .

وفى يوم الأربعاء تصدى الشيخ المهدى لإبراهيم افندى كاتب البهار وتلطف مع كبير الفرنسيس بمعونة بوسليك المعروف بالرزنامجى ، ونقله من بيت الأغا إلى داره وطلبوا منه قائمة كشف عما يتعلق بالمماليك بدفتر البهار

وفى يوم الخميس سافر عدة مراكب نحو الأربعين بها عساكر الإفرنج إلى جهة بحرى .

وفى ليلة السبت رابع عشرينه حضر هجان من ناحية الشام وعلى يده مكاتبات وهو صورة فرمان وعليه طرّة ومكتوب من أحمد باشا وآخر من بكر باشا إلى كتخدا أنه مصطفى بيك ومكتوب من إبراهيم بيك خطاباً للمشايخ وذلك كله بالعربى ومضمون ذلك بعد براعة الاستهلال والآيات القرآنية والأحاديث والآثار المتعلقة بالجهاد ولعن طائفة الإفرنج والحط عليهم وذكر عقيدتهم الفاسدة وكذبهم وتحيلهم ، وكذلك بقية المكاتبات بمعنى ذلك فأخذهم مصطفى بيك وذهب بهم إلى كبير الفرنسيس ، فلما أطلع عليهم قال : هذا تزوير من إبراهيم بيك ليوقع بيننا وبينكم العداوة والمشاحنة وأما أحمد باشا فهو رجل فضولى لم يكن والياً بالشام ولا مصر ، لأن والى الشام إبراهيم باشا ، وأما والى مصر فهو عبد الله بن المعظم الذى هو الآن والى الشام وأنا أخبر بذلك ، وسيأتى بعد أيام وال ونقيم معه كما كانت

المماليك مع الولاة ، وورد خبر أيضاً بانفصال محمد باشا عزت عن الوزارة وعزل أنفار من رجال الدولة وفى هذه الأيام بطل الاجتماع بالديوان المعتاد ، وأخذوا فى الاهتمام بعمل متاريس فى عدة جهات ، وبنو أبنية على التلول المحيطة بالبلد ووضعوا بها عدة مدافع وقنابر ، وهدموا عدة أماكن بالجيزة وحصنوها تحصيناً زائداً ، وكذلك مصر العتيقة ونواحى شبرا وانبابة وهدموا عدة مساجد منها المسجد المجاور لقنطرة الدكة ، ومسجد المقسى المعروف الآن بأولاد عنان على الخليج الناصرى بباب البحر وقطعوا أشجاراً كثيرة ونخيل البساتين ، وهدموا جامع الكازرونى بالروضة وأشجار الجيزة التى عند أبى هريرة قطعوها ، وحفروا هناك عدة خنادق كثيرة وغير ذلك والنخيل جهة الحلى وبولاق وخربوا الدور وهدموا القصور وكسروا الشبابيك ودقوا الأخشاب بحيث عم جميع الأماكن الخراب وزعق فيها البوم والغراب

وفى ليلة الأحد حضر جماعة من عسكر الفرنسيس إلى بيت البكرى نصف الليل وطلبوا المشايخ المحبوسين لعند صارى عسكر ليتحدث معهم ، فلما صاروا خارج الدار وجدوا عدة كثيرة فى أنتظارهم ، فقبضوا عليهم وذهبوا بهم إلى بيت قائم مقام بضرب الجماميز فعروهم من ثيابهم وصعدوا بهم إلى القلعة فسجنوهم إلى الصباح فأخرجوهم وقتلوهم وألقوهم من السور خلف القلعة ، وتغيب حالهم عن أكثر الناس أياماً .

وفى ذلك اليوم ركب بعض المشايخ إلى مصطفى أغا كتخدا الباشا وكلموه فى أن يذهب معهم إلى صارى عسكر ليشفع فى الجماعة المذكورين

ظناً منهم أنهم فى قيد الحياة ، فركبوا معهم إليه وكلموه فى ذلك فقال لهم الترجمان : يقول لكم صارى عسكر اصبروا ما هو وقته وقام ليذهب فى بعض أشغاله ، فنهض الجماعة أيضاً وركبوا إلى دورهم .

وفى يوم الثلاثاء حضر عدة من عساكر الفرنسيس ووقفوا بحارة الأزهر فتخيل الناس منهم المكروه ، ووقعت فيهم كرشة ، وأغلقوا الدكاكين ، وتسابقوا للهرب وذهبوا إلى البيوت والمساجد واختلفت آراؤهم ورووا فى ذلك قضية بحسب تخمينهم وظنهم وفساد مخيلتهم ، فذهب بعض المشايخ إلى صارى عسكر وأخبره بذلك فأرسل إليهم وأمرهم بالذهاب فذهبوا وتراجع الناس وفتحوا الدكاكين ومرّ الوالى والأغا وبرطلمين ينادون بالأمان ، فسكن الحال وقيل أن بعض كبرائهم حضر عند القلق الساكن بالمشهد وجلس عنده حصة وهؤلاء كانوا أتباعه ، ووقفوا ينتظرونه ، ولعل ذلك قصد التخويف والإرهاب خشية من قيام فتنة لما أشيع قتل المشايخ .

وفيه كتبوا أوراقاً ولصقوها بالأسواق تتضمن العفو والتحذير من اثارة الفتنة وأن من قتل من المسلمين فى نظير من قتل من الفرنسيس .

وفيه شرعوا فى إحصاء الأملاك والمطالبة بالمقرر ، فلم يعارض فى ذلك معارض ، ولم يتفوّه بكلمة .

وفيه أيضاً قلعوا أبواب الدروب والحارات الصغيرة الغير النافذة ، وهى التى كانت تركت وسومح أصحابها وصالحوا عليها قبل الحادثة وبرطلوا

العلقات والوسايط على بقائها وكذلك دروب الحسينية ، فلما انقضت هذه الحادثة ارتجعوا عليهم وقلعوهم ونقلوهم إلى ما جمعوه من البوابات بالأزبكية ثم كسروها وفصلوا أخشابها قطعاً ، ورفعوا بعضها على العربات إلى حيث يصنعون المتاريس بالنواحى والجهات ، وباعوا بعضها حطباً للوقود وكذلك ما بها من الحديد باعوه .

وفى ليلة الخميس هجم المنسر على بوابة سوق طيلون وكسروها وعبروا منها إلى السوق ، فكسروا القناديل وفتحوا ثلاث حوانيت وأخذوا ما بها من متاع المغاربة التجار وقتلوا القلق الذى هناك ، وخرجوا بدون مدافع ومنازع .

وفى يوم الخميس المذكور ذهب المشايخ إلى صارى عسكر وشفعوا فى ابن الجوسقى شيخ العميان فإنه كان معوقاً ببيت البكرى فشفعهم فيه وأطلقوه .

شهر جمادى الثانية

استهل بيوم السبت فيه كتبوا عدة أوراق على لسان المشايخ وأرسلوها إلى البلاد ولصقوا منها نسخاً بالأسواق والأزقة ، ونصها : صورة نصيحة من كافة علماء الإسلام بمصر المحروسة نعوذ بالله من الفتن ، ما ظهر منها وما بطن ، ونبرأ إلى الله من الساعين فى الأرض بالفساد نعرف أهل مصر قاطبة أنه حصل بعض خلل فى مدينة مصر المحروسة من طرف

الجعيدية وأشرار الناس ، فحركوا الشرور بين الرعية والعسكر الفرنساوية بعد ما كانوا أصحاباً وأحباباً بالسوّية ، وترتب على ذلك قتل جملة من المسلمين ، ونهب بعض من البيوت ولكن حصلت الطاف الله الخفية وسكنت الفتنة بسبب شفاعتنا عند أمير الجيوش بونابرته وارتفعت هذه البلية ، لأنه رجل كامل العقل عنده رحمة وشفقة على المسلمين ومحبة إلى الفقراء والمساكين ولولاه لكانت العساكر أحرقت المدينة ونهبت جميع الأموال ، وقتلوا كامل أهل مصر ، فعليكم أن لا تحركوا الفتن ولا تطيعوا أمر المفسدين ، ولا تسمعوا كلام المنافقين ، ولا تتبعوا الأشرار ولا تكونوا مع الخاسرين سفهاء العقول الذين لا يقرأون العواقب لأجل أن تحفظوا أوطانكم ، وتطمئنوا على عيالكم وأديانكم فإن الله سبحانه وتعالى يؤتى ملكه من يشاء ويحكم ما يريد ، ونخبركم أن كل من تسبب فى تحريك هذه الفتنة قتلوا عن آخرهم ، وأراح الله منهم البلاد والعباد ؛ ونصيحتنا لكم أن لا تلقوا بأيديكم إلى التهلكة ، واشتغلوا بأسباب معايشكم وأمور دينكم وادفعوا الخراج الذى عليكم ، والدين النصيحة ؛ والسلام .

وفيه أمروا بقية السكان على بركة الأزبكية وما حولها بالنقلة من البيوت ليسكنوا بها جماعتهم المتباعدين عنهم ليكون الكل فى حومة واحدة ، وذلك لما أدخلهم من المسلمين حتى أن الشخص منهم صار لا يمشى بدون سلاح بعد أن كانوا من حين دخول البلد لا يمشون به أصلا إلا لغرض ، والذى لم يكن معه سلاح يأخذ فى يده عصا أو سوطاً أو نحو ذلك ،

وتنافرت قلوبهم من المسلمين ، وأخذ كل واحد حذره من الآخر ، وانكف المسلمون من الخروج والمرور بالأسواق من الغروب إلى طلوع النهار .

ومن جملة من انتقل من الدرب الأحمر إلى الأزبكية اللعين كفرلى المسمى عند العامة بأبى خشبة لأن إحدى رجليه مقطوعة من الركبة ، وقد ألبسها خشبة وهو يمشى بها بدون معين ويصعد الدرج ويهبط منها أسرع من الصحيح ويركب الفرس ويرمحه وهو على هذه الحالة ، وكان من جملة المشار إليه فيهم والمدبر لأمور القلاع والبناء ومصاف الحروب ولهم به عناية عظيمة واهتمام زائد كان يسكن بيت مصطفى كاسف طراد فى وقت الحادثة هجمت على الدار العامة فنهبوها وقتلوا منها بعض الفرنساوية وفرّ الباقون ؛ فأخبروا من بالقلعة الكبيرة فنزل منهم عدة وافرة ، وقف بعضهم خارج الدار بعد أن طردوا المزدحمين ببابها وضربوهم بالبندق ودخلوا الباقون فقتلوا من وجدوه بها من المسلمين ، وكانوا جملة كثيرة ، وكان بتلك الدار شىء كثير من آلات الصنائع والنظارات الغريبة والآلات الفلكية والهندسية والعلوم الرياضية وغير ذلك مما هو معدوم النظير كل آلة لا قيمة لها عند من يعرف صنعتها ومنفعتها ، فبدد ذلك كله العامة وكسروه قطعاً ، ذهاب وصعب ذلك على الفرنسيس جداً ، وأقاموا مدة طويلة يفحصون عن تلك الآلات ويجعلون لمن يأتيهم بها عظيم الحبالات ، وممن استشهد فى وقعة تلك الدار الشيخ محمد الزّهار .

وفى خامسه أفرجوا عن إبراهيم أفندى كاتب البهار وتوجه إلى بيته .

وفى ثامنه قتلوا أربعة أنفار من نصارى القبط فيهم اثنان من النجارين قيل إنهم سكروا فى الخمارة ومرّوا فى سكرهم وفتحوا بعض الدكاكين وسرقوا منها أشياء ؛ وقيل : تكرر ذلك منهم عدة مرار فاغتاظ لذلك القبطة .

وفيه كتبوا عدة أوراق وأرسلوا منها نسخاً للبلاد ولصقوا منها بالأسواق (والأسواق) وذلك على لسان المشايخ أيضاً ولكن تزيد صورتها عن الأولى ، ونصها : صورة نصيحة من علماء الإسلام بمصر المحروسة ، نخبركم يا أهل المدائن والأمصار من المؤمنين ؛ ويا سكان الأرياف من العربان والفلاحين أن إبراهيم بك ومراد باك وبقية دولة المماليك أرسلوا عدة مكاتبات ومخاطبات إلى سائر الأقاليم المصرية لأجل تحريك الفتنة بين المخلوقات وأدعوا أنها من حضرة مولانا السلطان ومن بعض وزرائه بالكذب والبهتان ، وسبب ذلك أنه حصل لهم شدة الغم والكرب الزائد ، واغتاظوا غيظاً شديداً من علماء مصر ورعاياها حيث لم يوافقوهم على الخروج معهم ويتركون عيالهم وأوطانهم ؛ فأرادوا أن يوقعوا الفتنة والشرّ بين الرعية والعسكر الفرنساوية لأجل خراب البلاد وهلاك كامل الرعية وذلك لشدة ما حصل لهم من الكرب الزائد بذهاب دولتهم وحرمانهم من مملكة مصر المحمية ، ولو كانوا فى هذه الأوراق صادقين بأنها من حضرة مولانا سلطان السلاطين ، لأرسلها جهاراً مع أغوات معينين ؛ ونخبركم أن

الطائفة الفرنساوية بالخصوص عن بقية الطوائف الافرنجية دائماً يحبون المسلمين وملتهم . ويبغضون المشركين وطبيعتهم ، أحباب لمولانا السلطان قائمون بنصرته وأصدقاء له ملازمون لمودته وعشرته ومعونته ، يحبون من والاه ويبغضون من عاداه ، ولذلك بين الفرنساوية والموسقوا غاية العداوة الشديدة من أجل عداوة الموسقو القبيحة الردية ، والطائفة الفرنساوية يعاوزون حضرة مولانا السلطان على أخذ بلادهم إن شاء الله ولا يبقون منهم بقية ؛ فننصحكم أيها الأقاليم المصرية أنكم لا تحركوا الفتن ولا الشرور بين البرية ، ولا تعارضوا العساكر الفرنساوية بشيء من أنواع الأذية فيحصل لكم الضر والهلاك والبلية ؛ ولا تسمعوا كلام المفسدين ، ولا تطيعوا أمر المسرفين ، الذين يفسدون فى الأرض ولا يصلحون ، فتصحبوا على ما فعلتم نادمين وإنما عليكم دفع الخراج المطاوب منكم لكامل الملتزمين ، ليكونوا فى أوطانكم سالمين ، وعلى عيالكم وأموالكم آمنين مطمئنين ، لأن حضرة صارى عسكر الكبير أمير الجيوش بونابرتة اتفق معنا على أنه لا ينازع أحد فى دين الإسلام ، ولا يعارضنا فيما شرعه الله من الأحكام ، ويرفع عن الرعية سائر المظالم ، ويقتصر على أخذ الخراج ويزيل ما أحدثه الظلمة من المغارم ؛ فلا تعلقوا آمالكم بإبراهيم بيك ومراد ، وارجعوا إلى مولاكم مالك الملك وخالق العباد ، فقد قال نبيه ورسوله الأكرم : الفتنة نائمة ، لعن الله من أيقظها بين الأمم ، عليه أفضل الصلاة والسلام ختام » .

وفى ثالث عشره قتلوا شخصين عند باب زويلة أحدهما يهودى لم يتحقق السبب فى قتلهما وفيه أخرجوا من بيت نسيب إبراهيم كتخدا منا وودائع لبنت إبراهيم بلك وزوجها صناديق ضمنها مصاغ وجواهر وأوانى ذهب وفضة وأمتعة وملابس ، وأشياء كثيره جداً .

وفى خامس عشره مرّ جماعة من عسكر الإفرنج بباب زويلة ليلاً وفتحوا بعض دكاكين السكرية ونهجوا ما بها من السكر وضاع على أصحابه .

وفيه دلوا على إنسان عنده صندوقان وديعة لأيوب بك الدفتردار فطلبوه وأمروه بإحضارهما فأحضرهما بعد الإنكار والجحد عدة مرار ، فوجدوا ضمنها أسلحة جواهر وسبح لؤلؤ وخناجر مجوهرة وغير ذلك .

وفى عشرينه كتبوا عدة أوراق مطبوعة ولصقوها بالأسواق، مضمونها أن يوم الجمعة حادى عشرنيه قصدنا نطير مركب ببركة الأزبكية فى الهواء بحيلة فرنساوية ، فكثر لغط الناس فى ذلك كعادتهم .

فلما كان ذلك اليوم قبل العصر تجمع الناس والكثير من الإفرنج ليروا تلك العجيبة وكنت بجملتهم ، فرأيت قماشاً على هيئة الأوبة على عمود قائم وهو ملون أبيض وأحمر وأزرق وعمودها مركب على مثل دائرة الفريسال ، وفى وسطه سكرجة بها فتيلة مغموسة ببعض الأدهان ، وتلك السكرجة مصاوبة بسلوك حديد منها إلى الدائرة وهى مشدودة ببكر وأحبال وأطراف الأحبال بأيدي أناس قائين بأسطحة البيوت القريبة منها ؛

فلما كان بعد العصر بنحو ساعة أوقدوا تلك الفتيلة فصعد دخانها إلى ذلك القماش وملأه فانتفخ وصار مثل الكرة وطلب الدخان الصعود إلى مركزه فلم يجد منفذاً ، فجذبها معه إلى العلو ، فجذبوها بتلك الأحبال حتى ارتفعت عن الأرض فقطعوا تلك الحبال فصعدت إلى الجو مع الهواء ومشت معه هنيهة لطيفة ثم سقطت طارتها بالفتيلة ، وسقط أيضاً ذلك القماش ، فانكسف طبعهم لسقوطها ، ولم يتبين صحة ما قالوه من أنها على هيئة مركب يجلس بها أنفار من الناس ويسافرون فيها إلى البلاد البعيدة لكشف الأخبار وغير ذلك من التمويهات الكاذبة بل ظهر أنها مثل الطيارات التي يعملها الفراشون بالمواسم والأفراح .

وفي تلك الليلة عند العشاء عملوا حراقة نفوط وبارود وسواريخ بالأزبكية وكان ذلك اليوم والليلة من أعيادهم ، لأن صاري عسكر دعا الأعيان وأكابر التجار ولبسوا ثياباً جدداً وفي تلك الليلة كثر مرورهم بالأسواق فكانت الكلاب تنجسهم فأطعموها خبزاً مسموماً فأكلوه فمات جملة كبيرة من الكلاب ؛ فلما طلع النهار وجدوا الناس الكلاب مرمية بالأسواق وهي ميتة ، فاستأجروا لها من جرها إلى الكيمان .

وفي خامس عشرنيه سافر عدة عساكر إلى جهة مراد بك ، وكذلك إلى ناحية كرداسة بسبب العرب ، وكذلك إلى السويس وإلى الصالحية ، وأخذوا جمال السقايين براوياها وحميرهم حتى شح الماء وغلا وبلغ ثمن القربة عشرة أنصاف فضة إن وجدت .

وفيه ظفروا بعدة ودائع وخبايا بعدة أماكن بها صناديق وأمتعة وأسلحة وأوانى صينى وأوانى نحاس قناطير وغير ذلك ؛ وانقضى هذا الشهر وما تجدد به من الحوادث الكلية والجزئية التى لا يمكن ضبطها لكثرتها .

فمنها أنهم أحدثوا بغيط النوبى المجاور للأزبكية أبنية على هيئة مخصوصة يجتمعون بها النساء والرجال للهو والخلاعة فى أوقات مخصوصة ؛ وجعلوا على كل من يدخل إليه قدراً مخصوصاً يدفعه أو يكون مأذوناً وبيده ورقة .

ومنها أنهم هدموا وبنوا بالمقياس والروضة وهدموا جامع أبى هريرة بالجيزة ومهدوا السبيل المجاور لقنطرة الليمون وبنوا أعلاه طاحوناً تدور بالهواء وتطحن الأرادب الدقيق وطاحوناً أخرى بالروضة فى مقابلة مصاطب النشاب ، وهدموا الجامع المجاور لقنطرة الدكة وشرعوا فى ردم جهات حوالى بركة الأزبكية وهدموا الأماكن المقابلة لبيت صارى عسكر حتى جعلوها رحبة متسعة ، وهدموا الدور المقابلة لها من الجهة الأخرى والحباين التى خلف ذلك ، وقطعوا أشجارها وردموا مكانها بالأتربة الممهدة على خط معتدل من الجهتين مبتدأ من حدّ بيت صارى عسكر إلى قنطرة المغربى المذكورة ثم منها كذلك جسر على الوضع والنسق ممتداً إلى بولاق ممهداً مستوياً على خط مستقيم ، وحفروا فى جانبيه من مبتداه إلى منتهاه خندقين وكذلك غرسوا جانبيه شجر السيسبان من الأول للآخر ويتصل

ذلك الجسر بساحل النيل عند موردة التين وأحدثوا طريقاً أخرى فيما بين باب الحديد وباب العدوى عند المكان المعروف بالشيخ شعيب حيث معمل الفواخير ، وردموا جسراً ممهداً مستطيلاً ممتداً يبتدىء من الحدّ المذكور وينتهى إلى جهة المذبح خارج الحسينية فخرب بسبب ذلك أماكن كثيرة وغيطان عديدة ، وقطعوا فى طريقهم جانباً من التل الكبير المجاور لقنطرة الحاجب وردموا خليج بركة الرطلى وقطعوا أشجار بستان كاتب البهار المقابل لجسر بركة الرطلى وأشجار الجسر أيضاً والأبنية التى بين باب الحديد والرحبة التى بظاهر جامع المقسى وساووا الأعلى بالمنخفض بحيث صارت طريقاً ممتدة من الأزبكية إلى جهة قبة النصر والعادلية على خط مستقيم من الجهتين وجعلوا جامع الظاهر ببيرس خارج الحسينية وفيه ورد الخبر بموت صالح بيك أمير الحاج بغزّة .

شهر رجب

استهل بيوم الأحد وفى ثالثه قتلوا شخصاً من الأجناد يقال له مصطفى كاشف من جماعة حسنين بلك المعروف شفت ، وكان قد فرّ مع الفارين ، ثم حضر من غير استئذان ، وأقام أياماً مستتراً ببيت الشيخ سليمان الفيومى فسلمه لمصطفى أغا مستحفظان ليأخذ له أمان فأخبر الفرنسيس بشأنه وأغراهم عليه فأمروا بقتله فقتلوه وقطعوا رأسه وطافوا بها

ينادون عليها بقولهم هذا جزاء من يدخل إلى مصر بغير إذن الفرنسيس .
وفى يوم الخميس حضر كبير الفرنسيس الذى بناحية قليوب وصحبته سليمان الشواربى شيخ قليوب وكبير الناحية ، فلما حضر حبسوه بالقلعة قيل أنهم عثروا عليه على مكتوب أرسله وقت الفتنة السابقة إلى سرياقوس ليستنهض أهل تلك النواحى فى القيام ويأمرهم بالحضور وقت أن يرى الغلبة على الفرنسيس ؛ ولما حبسوه حبسوا معه أربعة من الأجناد أيضاً .
وفيه أحدثوا مدفعاً يضربونه كل يوم وقت الزوال لأن ذلك الوقت عندهم ابتداء اليوم وفى يوم الأربعاء عاشره نادوا فى الأسواق بأن من أراد أن يشترى لفرس أو حمار فليحضر يوم الجمعة ثانى عشره ببولاق ويشترى من الفرنساوية ما أحب من ذلك وكتبوا بذلك أوراقاً ولصقوها بالأسواق والأزقة وهى مطبوعة وعليها الصورة ، ونصها :
فليكن معلوم عند كافة الرعايا المصرية أن يوم الجمعة اثنى عشر شهر رجب الساعة فى اثنين يباع فى بولاق جملة خيل من المشيخة الفرنساوية فلأجل هذا المشترى كل من أراد يقتنى خيل فمنحنا له الإجازة إنه يقتنى كما يريد ويشاء انتهى .
ومنها أنهم أحدثوا على التل المعروف بتل العقارب بالناصرية كرانك وأبراج ، ووضعوا فيها عدة من آلات الحرب والعساكر وهدموا عدة دور من دور الأمراء وأخذوا أنقاضها ورخامها لأبنيتهم على التلول وغيرها .
وأفردوا للمدبرين والفلكيين وأهل المعرفة والعلوم الرياضية كالهندسة

والهيئة والنقوشات والرسومات والمصورين والكتبة والحساب والمنشئين حارة الناصرية وما بها من البيوت مثل بيت قاسم بيلك أمير الحاج سابقاً المعروف بأبو سيف وبيت حسن كاشف جركس الذى أنشأه وشيده وزخرفه وصرف عليه أموالا عظيمة من مظالم العباد وعند اتمام بياضه وفرشه حدثت هذه الحادثة ففرّ مع الفارين وتركه بما فيه وسكنه الجماعة المذكورون ووضعوا فيه جملة كبيرة من كتبهم وعليها خازن يحفظها ويحضرها للطلبة ، فيراجعون فيها مرادهم ويردها إلى مكانها ، وأكثرها يشتمل على الرياضيات والتصويرات وتواريخ الأمم السالفة وسموا ذلك البيت بالمدرسة . وأفردوا مكاناً للنجارين والحدادين والخراطين وأرباب الصنائع من الفرنسيس ومكاناً للحكمة وبنوا فيه كوانين وتنانير مهندمة وركبوا عليها آلات التقطير واستخراج المياه والأدهان المختصة بالطب والحكمة وأرواح المفردات وأملاح للأرمدة المستخرجة من الأعشاب وبه أوانى وقواريرا من الزجاج المختلف الأشكال والهيئات إلى غير ذلك .

وفى يوم الاثنين سادس عشره سافر كبير الفرنسيس بونابرته إلى السويس وأخذ صحبته السيد أحمد المحروقى وابراهيم أفندى كاتب البهار وأخذ معه أيضاً بعض المدبرين والمهندسين والمصورين وجرجس الجوهرى والطون أبو طاقية وغيرهم وعدة عساكر من الخيالة والمشاة وبعض مدافع وعربات وتختروانات وعدة جمال تحمل الذخيرة والماء والقومانية .

وفيه شرعوا فى ترتيب الديوان على تنظيم آخر وعينوا له ستون نفر ،

منهم أربعة عشر يقال لهم الخصوص وهم الذين يحضرون دائماً ويقال لهم الديوان الخصوصي والديوان العمومى والباقى بحسب الاقتضاء والأربعة عشر فيهم من المشايخ الشرقاوى والمهدى والصاوى والبكرى والفيومى ومن التجار المحروقى وأحمد بك بن محمود محرم ومن النصارى القبطة لطف الله المصرى ومن الشوام يوسف فرحات ومخاييل كحاييل وواحد انجايز وبوديف وموسى كافو الفرنساويان ، ووكلاء ومباشرين من الفرنسيس وتراجمين .

وأما العمومى فغالبه مشايخ حرف وكتبوا بذلك طوماراً كبيراً بصموا منه نسخاً كثيرة وأرسلوا منها نسخاً للأعيان ولصقوا منها بالأسواق على العادة وأرسلوا للذين عينوا بالديوان أوراقاً بأسمائهم .

وصورة ذلك الطومار المكتتب فى شأن ذلك .

وقد أوردت ذلك وإن كان فيه بعض الطول للاطلاع على ما فيه من التمويهات على العقول والتسلق على دعوى الخواص من البشر بفاسد التحيلات التى تنادى على بطلانها بديهة العقل فضلا عن النظر ، وهو مقول على لسان بونابرته كبير الفرنسيس ورئيسهم ذلك التعيس ، ونصه :

بسم الله الرحمن الرحيم

من بونابرتة أمير الجيوش الفرنساوية خطاباً إلى كافة أهل مصر الخاص والعام نعلمكم أن بعض الناس ضالين العقول خاليين من المعرفة وإدراك العواقب سابقاً أوقعوا الفتنة والشرور بين القاطنين بمصر . فأهلكهم الله بسبب فعلهم ونيتهم القبيحة والبارئ سبحانه وتعالى أمرني بالشفقة والرحمة للعباد فامتثلت أمره وصرت رحيما بكم ، شفوقاً عليكم ولكن كان حصل عندي غيظ وغم شديد بسبب تحريك هذه الفتنة بينكم ولأجل ذلك .ابطلت الديوان الذي كنت رتبته لنظام البلد وصلاح أحوالكم من مدة شهرين والآن توجه خاطرنا إلى ترتيب الديوان كما كان لأن حسن أحوالكم ومعاملتكم فى المدة المذكورة أنسانا ذنوب الأشرار وأهل الفتنة التى وقعت سابقاً .

أيها العلماء والأشراف : اعلموا امتكم ومعاشر رعيتكم بأن الذى يعاديني ويخاصمني إنما خصامه من ضلال عقله وفساد فكره ، فلا يجد ملجأ ومخلصاً ينجيه مني فى هذا العالم ولا ينجو من بين يدى الله لمعارضته لمقادير الله سبحانه وتعالى ، والعاقل يعرف أن ما فعلنا بتقدير الله تعالى وارادته وقضائه ومن يشك فى ذلك فهو أحمق وأعمى البصيرة ؛ وأعلموا أيضاً أمتكم أن الله قدر فى الأزل هلاك أعداء الإسلام وتكسير الصلبان على يدى ، وقدر فى الأزل بعد ذلك أن أجى من المغرب إلى أرض مصر

لهلاك الذين ظلموا فيها وإجراء الأمر الذى أمرت به ، ولا يشك العاقل أن هذا كله بتقدير الله وإرادته وقضائه .

أعلموا أيضاً أمتكم أن القرآن العظيم صرح فى آيات كثيرة بوقوع الذى حصل وأشار فى آيات أخر إلى أمور تقع فى المستقبل ، وكلام الله فى كتابه صدق وحق لا يختلف إذا تقرر هذا وثبتت هذه المقالات فى آذانكم فليرجع أمتكم جميعاً إلى صفاء النية وإخلاص الطوية ، وأن منهم من يمتنع عن لعنى وإظهار عداوتى من خوف سلاحى وشدة سطوتى ولم يعلم أن الله مطلع على السرائر يعلم خافية الأعين وما تخفى الصدور ؛ والذى يفعل ذلك يكون معارضاً لأحكام الله ومنافقاً ، وعليه اللعنة والنقمة من الله علام الغيوب .

وأعلموا أيضاً أنى أقدر على إظهار ما فى نفس كل أحد منكم لأننى أعرف أحوال الشخص وما انطوي عليه بمجرد ما أراه ، وإن كنت لا أتكلم ولا أنطق بالذى عنده ولكن يأتى وقت ويوم يظهر لكم بالمعاينة أننى كلما فعلته وحكمت به فهو حكم إلهى لا يرد ، وأن اجتهاد الإنسان بغاية جهده ما يمنعنى عن قضاء الله الذى قدره وأجراه على يدى ، فطوبى للذين يسارعون فى اتحادهم وهمتهم معى مع صفاء النية واخلاص السريرة والسلام ورتبوا لأرباب الديوان الديمومى شهرية تدفع إليهم نظير تقييدهم بمصالح العامة والدعاوى وما يترتب عليه النظام بينهم وبين المسلمين .

وفى ثانى عشره طافوا على الطواحين واختاروا من كل طاحون فرساً أخذوها ومن الطحانين من صالحهم ودفع لهم دراهم وتركوه وذلك أنهم لما باعوا الخيول ببولاق فاشترى منهم الطحانون جملة ، فكان كل من باع حصانه شرط فى أذنه شرطاً ليكون له علامة وبعد ذلك طافوا بالطواحين وأخذوا عوض خيولهم مما استحسنوه ولاق بخاطرهم .

وفى أربع عشرينه حضر السيد أحمد المحروقى وكاتب البهار من السويس وكان صارى عسكر ذهب إلى ناحية بابيس فأستأذنوه فى ذهابهم إلى مصر ، فأذن لهم وأرسل معهم خمسين عسكرياً ليوصلوهم إلى مصر .

ولما حضروا حكوا أن أهل السويس لما بلغهم مجىء الفرنساوية هربوا وأخلوا البلد وذهبوا إلى الطور ،وذهب البعض إلى العرب فى البادية فنهب الفرنسيس ما وجدوه بالبندر من البن والمتاجر والأمتعة وغير ذلك ، وهدموا الدور وكسروا الأخشاب وخوابى الماء ، فلما حضر كبيرهم وكان متأخراً عنهم كلمه التجار الذاهبون معه وأعلموه أن هذا الفعل غير صالح فاسترد من العسكر البعض ، وواعدهم باسترجاع الباقى أو دفع ثمنه بمصر ، وأن يكتبوا قائمة بالمنهوبات ، وهذا نوع من الكذب والتحيل فإنه لما ارتحل من هناك أخذ العسكر ما كانوا استردوه وما كانوا تركوه أيضاً وإن وجد مركبين حضر إلى قريب من السويس بها جانب بن ومتاجر فقربت إحداهما فنزلت طائفة من الفرنسيس فى مراكب صغار وذهبوا لها فى المغاطس وأخرجوها بآلات ركبوها واصطنعوها .

وفى مدة إقامته بالسويس صار يركب ويتأمل فى النواحى وجهات ساحل البحر والبر ليلاً ونهاراً وكان معه من الأدم فى هذه السفرة ثلاث طيور دجاج محمرين ملفوفين فى ورق وليس معه طباخ ولا فراش ولا فرش ولا خيمة .

وفى يوم السبت حضر عدة من العسكر الفرنساوى من ناحية بلبيس ومعهم عدة من العربان نحو الثلاثين نفراً موثوقون بالحبال وأسروا أيضاً عدة من أولادهم ذكوراً وإناساً ودخلوا بهم إلى مصر يزفونهم بالطبول أمامهم ، ومعهم أيضاً ثلاثة حمول من حمول التجار وبعض جمال مما كان نهب منهم عند رجوعهم من الحجّ .

وفى ليلة الأثنين غايته حضر صارى عسكر من ناحية بلبيس ليلاً إلى مصر وأحضر معه عدة عربان وعبد الرحمن أباظا أخو سليمان أباظا شيخ العبايدة وخلافه برهائن وضربوا أبو زعبل والمنير ونهبوهم وأخذوا بهائمهم ومالهم من المواشى والأموال وحضروا بهم إلى القاهرة وخلفهم أصحابهم رجالا ونساء وصغاراً .

وفى ذلك اليوم قتلوا شيخ العرب سليمان الشواربى شيخ قليوب ومعه أيضاً ثلاثة رجال يقال إنهم من عرب الشرقية ، فأنزلوهم من القلعة إلى الرميلة على يد الأغا وقطعوا رءوسهم وحملوا جثة الشواربى مع رأسه فى تابوت وأخذوه أتباعه وذهبوا به إلى بلدة قليوب ليدفن هناك .

وانقضى هذا الشهر وما تجدد به أيضاً من الحوادث الكلية والجزئية .

فمنها تسلق أنفار من عسكر الفرنسيس على بعض الدور ليلاً وسرقتهم أمتعة وقتل أنفس بالدور والأزقة ذهبت هدراً ؛ ووقع أن فى ليلة السابع والعشرين منه أتت جماعة إلى دار الشيخ محمد بن الجوهري الكائن بالأزبكية بالقرب من باب الهواء فخلعوا الشباك المطل على البركة ودخلوا منه ، وصعدوا إلى أعلى الدار وكان بها ثلاثة من النساء الخدامات وابنة خدامة أيضاً وبواب الدار ولم يكن ربّ الدار بها ولا الحريم ، بل كانوا قد انتقلوا لدار أخرى لما سكن معظم العسكر بالأزبكية فاستيقظ النساء وصرخن فضربهن العسكر وقتلوهن واختفت البنت فى جهة وعاثوا فى الدار وأخذوا متاعاً ومصاغاً ونزلوا ؛ واستيقظ البواب فاختفى خوفاً منهم ، فلما طلع النهار وشاع الخبر وكان صارى عسكر غائباً فلم يقع كلام فى شأن ذلك ، فلما قدم من سفره ركب مشايخ الديوان إليه وأخبروه فأظهر الغمّ من ذلك والمذمة لما فيه من العار الذى يلحقه لكون العسكر وقع منهم ذلك فى غيابه ثم اهتمّ فى التفحص عمن فعل ذلك وقتل من اتهم منهم ، ومنها كثرة تعدى القلقات وتشديدهم على وقود القناديل بالأزقة ، وإذا مروا فى الليل ووجدوا قنديلاً أطفأه الهواء أو فرغ زيته سمروا الحانوت أو الدار التى هو عليها ، ولا يقلعون المسمار حتى يصالحهم صاحبها على ما أحبوا من الدراهم ، وربما تعدوا كسر القناديل لأجل ذلك ؛ واتفق أن المطر أطفأ عدة قناديل بسوق أمير الجيوش بسبب كونها فى ظروف من الورق والجريد ، فابتل الورق وسال الماء فأطفأ القناديل ،

فسمروا حوانيت السوق وأصبح أهلها فصالحوا عليها ووقع مثل ذلك فى طرق عديدة ، فجمعوا فى ذلك اليوم جملة كبيرة من الدراهم وأمثال ذلك حتى فى الأزقة والعطف الغير النافذة حتى كأن الناس ليس لهم شغل إلا القناديل وتفقد حالها وخصوصاً فى ليل الشتاء الطويل ، والحكم لله الواحد القهار .

شهر شعبان

استهل بيوم الثلاثاء فيه قتلوا ثلاثة أنفار من الفرنسيس بالبندق الرصاص بالميدان تحت القلعة قيل إنهم من المتسلقين على الدور .

وفيه أخبر السفار بأن مراد بك ومن معه ترفعوا إلى قبلى ووصلوا إلى عقبة الهو وكلما قرب منهم الفرنسيس انتقلوا وقبلوا ، ولقد داخلهم من الفرنسيس شدة الخوف والرعب ولم يقع بينهم ملاقاة ولا قتال .

وفيه قدمت رباعة تحمل البن الذى حضر من السويس بالمركب الدا ! وبصحبته جماعة من الفرنساوية لخفارتها من قطاع الطريق .

وفى يوم الأحد سادسه نادى القبطان الفرنساوى الساكن بالمشهد الحسينى على أهل تلك الخطة وما جاورها بفتح الحوانيت والأسواق لأجل مولد الحسين الشهرى وشدد فى ذلك وأوعد من أغلق حانوته بتسميره وتغريمه عشرة ريال فرانسة .

وكان السبب فى ذلك والأصل فيه أن هذا المولد ابتدعه السيد بدوي القبانى مباشر وقف جامع سيدنا الحسين كان قد اعتراه مرض الحب الافرنجى فنذر على نفسه هذا المولد إن شفاه الله تعالى ، فحصلت له بعض إفاقة ، فابتدأ به ، وأوقد فى القبة والمسجد قناديل وبعض شموع ورتب فقهاء يقرأون القرآن بالنهار مدارسة وآخرين بالمسجد يقرأون بالليل دلائل الخيرات للجزولى ، ثم زاد الحال وانضم إليهم كثير من أهل البدع كجماعة العفيفى والسمان والعربى والعيساوية فمنهم من يتحلق ويذكر الجلالة ويحرفها وينشد لهم المنشدون القصائد والمواليات ومنهم من يقول أبياتاً من بردة الأبى صيرى وتجاوبهم آخرون مقابلون لهم بصيغة صلاة على النبى صلى الله عليه وسلم .

وأما العيساوية فهم جماعة من المغاربة وما دخل فيهم من أهل إلا هو ينسبون إلى شيخ من أهل المغرب يقال له سيدى محمد بن عيسى وطريقتهم أنهم يجلسون قبالة بعضهم صفين ويقولون كلاماً معوجاً بلغتهم بنغم وطريقة مشوا عليها وبين أيديهم طبول ودفوف يضربون عايها على قدر النغم ضرباً شديداً مع ارتفاع أصواتهم ، وتقف جماعة أخرى قبالة الذين يضربون بالدفوف فيضعون أكتافهم فى أكتاف بعض بحيث لا يخرج واحد عن الآخر ويلتوون وينتصبون ويرتفعون وينخفضون ويضربون الأرض بأرجلهم كل ذلك مع الحركة العنيفة والقوة الزائدة بحيث لا يقوم هذا المقام إلا من عرف بالقوة وهذه الحركات والايقاعات على نمط

الضرب بالدفوف ، فيقع بالمسجد دوي عظيم وضجات من هؤلاء ومن غيرهم من جماعات الفقراء كل أحد له طريقة وكيفية تباين الآخر ؛ هذا مع ما ينضم إلى ذلك من جمع العوام وتحلقهم بالمسجد للحديث والهذيان وكثرة اللغط والحكايات والأضاحيك والتلفت إلى حسان الغلمان الذين يحضرون للتفرج والسعى خلفهم والافتتان بهم ورمى قشور اللب والمكسرات والمأكولات فى المسجد وطواف الباعة بالمأكولات على الناس فيه وسقاة الماء فيصير الجامع بما اجتمع فيه من هذه القاذورات والعفوش ملتحقاً بالأسواق الممتهنة ولا حول ولا قوة إلا بالله العلى العظيم ثم زاد الحال عن ذلك بقدوم جماعة الأشاير من الحارات البعيدة والقريبة وبين أيديهم مناور القناديل والشموع والطبول والزمور ويتكامون بكلام محرف يظنون أنه ذكراً وتوسلات يثابون عليها وينسبون من يلومهم أو يعترضهم إلى الاعتزال والخروج والزندقة وغالبهم من السوقة وأهل الحرف السافلة ومن لا يملك قوت ليلته فتجد أحدهم يجتهد فى قوة سعيه ويبيع متاعه أو يستدين الجملة من الدارهم ويصرفها فى وقود القناديل وأجرة الطبالة والزمارة وأكل يجمع عليه ما هو من أمثاله من الحرافيش ثم يقطع ليلته تلك سهراناً ، ويصبح دايخاً كسلاناً ، ويظن أنه بات يتعبد ، ويذكر ويتهجد ؛ واستمر هذا المولد أكثر من عشر سنين ولم يزد الناذر لذلك إلا مرضاً ومقتاً واستجلب خدمة الضريح ما لاح لهم من خساف العقول مثل الشمع والدراهم واتخذوا ذلك حيالة لأكل أموال الناس بالباطل .

فلما حدثت هذه الحادثة لمصر ترك هذا المولد فى جملة المتروكات

ثم حصلت الفتنة التى حصلت وسكن هذا القلق الفرنساوى فى خط المشهد لضبط تلك الجهة وفيه خبث ومداهنة ، فصار ينافق المسلمين ويظهر لهم المحبة والتملق ويدخل بيوت الجيران ويقبل شفاعات المتشفعين وابطل وقوف عسكره بالسلاح كعادتهم فى غير هذه الجهة ، وكذلك ترك ما يفعله غيره من القلقات من أنواع التشديد على الناس ، فاطمأن به الناس لذلك وتراجعوا للبكور إلى الصلاة فى المساجد بعد تخوفهم من العسكر الذى رتب معه وتركهم التبكير ، فلما أنسوا به وعرفوا أخلاقه رجعوا لعادتهم ومشوا بالليل أيضاً بدون فزع وخوف وترجمانه على مثل طريقته ، وهو رجل شريف من أهل حلب كان أسيراً بمالطة ، فاستخلصه الفرنسيس فى جملة من استخلصوه من أسرى مالطة وقدم معهم مصر ، فلما رتب هذا القلق فى الخط كان ترجمانه يهودياً فاحتال بعض أعيان أهل الخط ورتب الشريف المذكور ترجماناً عند القلق لتكون فيه راحة للناس وقد فتح ذلك الترجمان قهوة بالخط بقرب دار القلق وجمع الناس للجاوس فيها والسهر حصة من الليل وأمرهم بعدم غلق الحوانيت مقداراً من الليل كعادتهم القديمة ، فاستأنسوا بالاجتماعات والتغنى والخلاعات ، وعم ذلك جهات تلك الخطة ؛ ووافق ذلك هوى العامة لأن أكثرهم مطبوع على المجون والخلاعة وتلك هى طبيعة الفرنسيس ؛ فصاروا يجتمعون عنده للسهر والحديث ويجلس معه ذلك القلق الفرنساوى ، فانساق الحديث لذكر هذا المولد الشهرى وما يقع فى ليلته من المهرجان وحسنوا له إعادته ، فوافقهم على ذلك وأمر بالمناداة وفتح الحوانيت ووقود

القناديل وشدد فى ذلك .

وفى يوم الأربعاء كتبوا أوراقاً بتطيير طيارة ببركة الأزبكية مثل التى سبق ذكرها وفسدت فاجتمع الناس لذلك وقت الظهر وطيروها وصعدت إلى الأعلى ومرت إلى أن وصلت تلال البرقية وسقطت ولوساعدها الريح وغابت عن الأعين لتمت الحيلة وقالوا إنها سافرت إلى البلاد البعيدة بزعمهم .

وفيه سافر مجلون اللعين إلى الصعيد والياً على دجرجا لتحرير البلاد وقبض الأموال والغلال المتأخرة بالنواحى للغز .

وفيه سافرت قافلة بها أحمال كثيرة ومواهى ونساء أفرنجيات وصناديق قيل إنهم أرسلوها إلى الطور وصحبتهم عدة من العسكر .

وفى يوم الخميس عاشره حضر طائفة من عسكر الفرنساوية إلى وكالة زين الفقار بالجمالية ففتحوا طبقة كانت لكتخدا على باشا الطرابلسى وأخذوا ما وجدوه بها من الأمتعة وختموا عدة حواصل وأطباق بذلك الخان وبالوكالة الجديدة وغيرها للمسافرين والهاربين والفليونجية وضبطوا ما بها ، وقبضوا على جماعة من الأتراك والفليونجية التجار وسجنوهم بالقلعة ، وصاروا يفتشون على من بقى منهم بالقاهرة وبولاق خصوصاً الجردلية الذين كانوا عسكر المراد بك ، وأخذوا الكثير من نصارى الأروام والفليونجية الذين كانوا مع مراد بك وبعضهم كان بمصر ، فأدخلوهم فى عسكرهم

وزيوهم بزيهم وأعطوهم أسلحة وانتظموا فى سلكهم .

وفيه تواترت الأخبار بأن على باشا ونصوح باشا فارقا مراد بك ومرا من خلف الجبل على الهجن وذهبا إلى جهة الشام وصحبتهم جماعة إبراهيم بك الذين كانوا تخلفوا مع مراد بيك مثل رجوان بيك وكان ذهابهم فى أواخر رجب .

وفيه نادوا بإبطال القناديل التى توقد فى الليل على البيوت والدكاكين وأن يوقد عوضها فى وسط السوق مجامع فى كل مجمع أربع قناديل ، بين كل مجمع ثلاثون ذراعاً ، ويقوم بذلك الأغنياء دون الفقراء ، ولا علاقة للقلقات فى ذلك ففرح بذلك فقراء الناس وانفرجت عنهم هذه الكربة .

وفيه نادوا أيضاً بأن كل من كان له دعوى شرعية أو ظلامة فليذهب إلى العلماء والقاضى .

وفيه ذهب طائفة من العسكر وضربوا عرب الكوامل ورجعوا بمنهوباتهم من الغنم والمعز والدجاج والإوز والحمير وغير ذلك .

وفيه حضر رجل من ناحية غزة يطلب أماناً للست فاطمة زوجة مراد بيك ولابنة الشيخ البكرى وزوجها الأمير زين الفقار وخشداشة ، والخطاب للشيخ البكرى ، فعرض الشيخ البكرى ذلك وترجى عند صارى عسكر بحجة ابنة عمه فكتب له أماناً بحضورهم وأرسل لهم نفقة وكان ذلك حيلة منهم لتخلص النفقة ، وأخبر ذلك الرسول أن عبد الله باشا أبى المعظم بغزة وإبراهيم بيك ومن معه خارج البلد وهم فى ضيق وحصر ، وحريمهم داخل البلد .

وفيه ذهب عدة من العسكر الفرنساوية كثيرة إلى قطيا وشرعوا فى بناء متاريس هناك . وأشيع سفر كبير الفرنسيس إلى جهة الشام والإغارة عليها .

وفى ليلة الأحد ثالث عشر ، كان انتقال الشمس لبرج الدلو وهو أول شهر من شهورهم ، فعملوا تلك الليلة طرقة بارود وسواريخ كما هى عادتهم عند كل انتقال .

وفى يوم الاثنين رابع عشره نادى المحتسب على اللحم الضانى بسبعة أنصاف الرطل وكان بثمانية واللحم الجاموس بخمسة وكان بستة .

وفيه ذهب طائفة من العسكر وضربوا عرب العائد نواحى الخانكة وقتلوا منهم طائفة ونهبوهم ، ووجدوا من منهوبات الناس وأمتعة عسكر الفرنسيس وأسلحتهم جملة فأخذوا ذلك مع ما أخذوه وأحضروا معهم بعض رجال ونساء حبسوهم بالقلعة وفيه ذهب عدة من العسكر إلى صنافير وأجهور الورد وقرنفيل وكفر منصور وبلد أخرى للتفتيش على العرب ، فأخذوا ما وجدوه للعرب من بهائم وغيرها ، والذى عصى عليهم ضربوه ونهبوه أيضاً ونهبوا جمالا وبهائم ممن لم يعصى أيضاً ودخلوا بذلك المدينة فصاروا يبيعون البقرة بريالين وثلاثة ، والنعجة وابنها بريال ، فاشترى غالب ذلك نصارى القبط .

وفى يوم السبت قتلوا بالقلعة نحو التسعين نفراً ، وغالبهم من المماليك الذين وجدوهم هاربين فى [illegible] ، والذين عس عليهم اللعين الأغا وبرطلمين ووجدوهم مختفين فى البيوت .

وفيه قبضوا على خمسة أنفار من اليهود وامرأتين وألقوا الجميع فى بحر النيل .

وفيه نادوا بأن كل من اشترى شيئاً من منهوبات العرب التى نهبها العسكر يحضره لبيت صارى عسكر .

وفيه كثر الاهتمام والحركة بسفر الفرنسيس إلى جهة الشام وطلبوا وهيئوا جملة من الهجن وأحضروا جمال عرب الترابين ليحملوا عليها الذخيرة والدقيق والعليق والبقسماط ، ثم رسموا على الوالى بإحضار عدة كبيرة من الحمير يقال إنها ألف حمار وكذلك عدة من البغال ، فطلب شيخ الحارة وأمره بجمع ذلك وكذلك الركب دارية أمرهم بجمع البغال فاختفى غالب أصحاب الحمير وخاف الناس على حميرهم وامتنع خروج السقايين الذين ينقلون الماء بالقرب على الحمير وسقايين الجمال والبراسمية فحصل للناس ضيق بسبب ذلك .

وفى يوم الاثنين حادى عشر فيه كتبوا أوراقاً ولصقوها بالأسواق على العادة ، ونصها :

الحمد لله وحده ، هذا خطاب إلى جميع أهل مصر من خاص وعام من محفل الديوان الخصوصى من عقلاء الأنام ، علماء الإسلام والوجاقات والتجار الفخام ، نعلمكم معاشر أهل مصر أن حضرة صارى عسكر الكبير بونابرته أمير الجيوش الفرنساوية صفح الصفح الكلى عن كامل الناس والرعية بسبب ما حصل من أراذل أهل البلد والجعيدية من

الفتنة والشر مع العساكر الفرنساوية ، وعفا عفو شاملا ، وأعاد الديوان
الخصوصى فى بيت قائد أغا بالأزبكية ورتبه من أربعة عشر شخصاً
أصحاب معرفة واتقان خرجوا بالقرعة من ستين رجلا كان انتخبهم بموجب
فرمان ، وذلك لأجل قضاء حوائج الرعايا وحصول الراحة لأهل مصر من
خاص وعام وتنظيمها على أكمل نظام وأحكام ، كل ذلك من كمال
عقله وحسن تدبيره وفريد حبه لمصر وشفقته على سكانها من صغير القوم
قبل كبيره رتبهم بالمنزل المذكور كل يوم لأجل خلاص المظلوم من
الظالم وقد اختص من عسكره الذين أساءوا وظلموا بمنزل الشيخ الجوهرى
وقتل منهم اثنين بقراميدان وأنزل طائفة منهم عن مقامهم العالى إلى أدنى
مقام لأن الحيالة ليست من عادة الفرنسيس خصوصاً مع النساء الأرامل
فإن ذلك قبيح عندهم لا يفعله إلا كل خسيس ، ووضع القبض بالقلعة
على رجل نصرانى مكاس لأنه بلغه أنه زاد المظالم فى الجمرك بمصر القديمة
على الناس ففعل ذلك بحسن تدبيره ليمتنع غيره من الظلم ، ومراده رفع
الظلم عن كامل الخلق ويفحت الخليج الموصل من بحر النيل إلى بحر
السويس لتحق أجرة الحمل من مصر إلى قطر الحجاز الأفخم ، وتحفظ
البضائع من اللصوص وقطاع الطريق وتكثر عليهم أسباب التجارة من الهند
واليمن وكل فج عميق ، فاشتغلوا بأمر دينكم وأسباب دنياكم واتركوا الفتنة
والشرور ولا تطيعوا شيطانكم وهواكم فعليكم بالرضا بقضاء الله وحسن
الإستقامة لأجل خلاصكم من أسباب العطب والوقوع فى الندامة . رزقنا
الله وإياكم التوفيق والتسليم ومن كان له حاجة فليأت إلى الديوان بقلب

سليم إلا من كان له دعوة شرعية فليتوجه إلى قاضى العسكر المتولى بمصر المحمية بخط السكرية والسلام على أفضل الرسل على الدوام .وفيه أرسلوا للوالى لينبه على السقايين بنقل الماء . وعدم التعرض لهم ولحميرهم .

وفى ليلة الأربعاء ثالث عشر فيه خرج عدة كثيرة من العسكر وطلب كبير الفرنسيس أن يأخذ صحبته مصطفى بياك كتخدا الباشا أمير الحاج ، ويأخذ أيضاً قاضى العسكر بجمقشى زادة وأربعة أنفار من أهل العلم وهم النيومى والصاوى والمعريشى وابن الدواخلى ، وعدة أيضاً من التجار والوجاقلية ونصارى القبط والشوام .

وفى سادس عشر فيه نادوا للناس بالأمان وفتح الأسواق ليلا فى رمضان حكم المعتاد .

وفيه انتقل قائم مقام من بيته المطل على بركة الفيل وهو بيت ابراهيم بيك الوالى وسكن ببيت أيوب بك الكبير المطل على بركة الأزبكية ، وكذلك من كان ساكناً منهم على بركة الفيل انتقلوا بأجمعهم إلى الأزبكية.

وفيه عرض حسن أغا محرم المحتسب لصارى عسكر أمر ركوبه المعتاد لإثبات رؤية هلال رمضان ، فرسم له بذلك على العادة القديمة ، فاحتفل لذلك المحتسب احتفالا زائداً وعمل وليمة عظيمة فى بيته أربعة أيام أولها السبت وآخرها الثلاثاء ، وعاقى أول يوم العلماء والفقهاء والمشايخ والوجاقات وغيرهم . وفى ثانى يوم التجار والأعيان ، وكذلك ثالث يوم

ورابع يوم ودعا بعضاً من أكابر الفرنسيس وأصاغرهم ، وركب يوم الثلاثاء بالأبهة الكاملة زيادة عن العادة وأمامه مشايخ الحرف بطبولهم وزمورهم ، فشق القاهرة على الرسم المعتاد ومرّ على قايم مقام وعلى أمير الحاج وصارى عسكر الفرنسيس بونابرته ، ثم رجع بعد الغروب إلى بيت القاضى بين القصرين ، فأثبتوا هلال رمضان ليلة الأربعاء ، ثم ركب من هناك بالموكب وأمامهم المشاعل الكثيرة والطبول والزمور والنقاقير والمناداة بالصوم وخلفه عدة خيالة من الفرنسيس بشعور مصنوعة على كوافى يلبسونها برءوسهم وشعورها مرخية على أقفيتهم بشكل قبيح بشع مهول .

وانقضى شهر شعبان وحوادثه : فمنها أن أهل مصر جروا على عادتهم فى بدعهم التى كانوا عليها وانكمشوا عن بعضها واحتشموها خوفاً من الفرنسيس ، فلما تدرجوا فيها وأطلق لهم الفرنسيس القيد ورخصوا لهم ، وسايروهم مشوا عليها وانهمكوا فى عمل مواليد الأضرحة التى يرون فرضيتها وأنه قربة تنجيهم بزعمهم من المهالك وتقربهم إلى ربهم زلفى فى المسالك ؛ فرمحوا فى غفلاتهم مع ما هم فيه من الأسر وتعطل الأسباب ووقف الحال وكساد الصنايع وغلو البضايع وانقطاع الأخبار ومنع الجالب براً وبحراً ، ووقوف الإنجليز واستمرارهم بالبحر وشدة حجرهم على الصادر والوارد حتى غلت جميع الأصناف المجلوبة وانقطع أثر كثير منها بحيث لم يبق له وجود ببر مصر وبطل جملة من الصنايع ، وافتقر أهلها واحتاجوا إلى

التكسب بالحرف الدنية كقلى السمك وبيع الفطير والأشربة المسكرة للعسكر وإحداث عدة قهاوى وطبخ الأطعمة والمأكولات فى الدكاكين وكان أكثر أهل الحرف التى بطلت عمل حمارا مكاريا حتى صارت الأزقة خصوصاً جهات العسكر مزدحمة بالحمير التى تكر للتردد فى شوارع مصر . فإن للفرنسيس بذلك عناية عظيمة ومغالاة فى الأجرة بحيث أن الكثير منهم يظل طول النهار فوق ظهر الحمار بدون حاجة سوى أنه يجرى به مسرعاً فى الشوارع وكذلك تجتمع الجماعة منهم ويركبون الحمير ويجهدونها فى المشى والإسراع بهم فى الشوارع وهم يغنون ويضحكون ويصيحون ويتمسخرون كما أن لهم عناية أشد من ذلك فى بذل الأموال فى الخمور ، والتردد إلى حانات الراح ، والتغالى فى شراء الفواكه والبواطى والأقداح حتى قال صاحبنا المشار إليه سابقاً هذين البيتين عند توجههم للشام :

إن الفرنسيس قد ضاعت دراهمهم   فى مصر ما بين حمار وخمار
وعن قريب لهم فى الشام مهلكة   يضيع فيها لهم آجال أعمار

وقد تحقق ما تفاءل به عليهم من الهلكة ، والتردّى فى حبالة كل مهلكة ، كما ستطلع على شرحه .

.ومنها ترفع أسافل النصارى من القبطة والشوام والأروام واليهود وركوبهم الخيول وتقلدهم بالسيوف بسبب خدمتهم للفرنسيس ومشيهم الخيلاء

وتجاهرهم بفاحش القول واستذلالهم للمسلمين وعدم مبالاتهم بالدين إلى غير ذلك مما لا يحيط به الحساب ولا يسطر فى كتاب ، كل ذلك جزاء بما كسبت أيديهم وما ربك بظلام العبيد ، والحال الحال والمركوز فى الطبع ما زال ؛ والبعض استهوته الشياطين ، ومرق والعياذ بالله من الدين ولا حول ولا قوة إلا بالله العلىّ العظيم .

ومنها تواتر الأخبار من ابتداء شهر رجب بأن رجلا مغربياً عالماً يقال له الشيخ الكيلانى كان مجاوراً بمكة والمدينة والطائف ، فلما وردت أخبار الفرنسيس إلى الحجاز وأنهم ملكوا الديار المصرية انزعج أهل الحجاز لذلك وضجوا بالحرم وجردوا الكعبة وأن هذا الشيخ صار يعظ الناس ويدعوهم إلى الجهاد ويحرضهم على نصرة الحق والدين وقرأ بالحرم كتاباً فى معنى ذلك مؤلفاً فاتعظ جملة من الناس وبذلوا أموالهم وأنفسهم واجتمع نحو الستمائة من المجاهدين وركبوا البحر إلى القصير مع ما انضم إليهم من أهل ينبع .

فورد الخبر فى أواخره أنه انضم إليهم جملة من أهل الصعيد وبعض ترك ومغاربة ممن كان خرج مع عز مصر عند وقعة انبابة وركب الغزّ معهم أيضاً وحاربوا الفرنسيس فلم يثبت الغز كعادتهم وانهزموا وتبعهم هوارة الصعيد والمتجمعة من القرى وثبت الحجازيون ثم انكفوا لقلتهم وذلك بناحية جرجا ، وهرب الغز والمماليك إلى ناحية إسنا وصحبتهم حسن بيك الجداوى وعثمان بيك حسن تابعه ، ووقع بين الحجازيين والفرنسيس

بعض حروب غير هذه المرة بعدة مواضع ولم تقع نكاية فى العدو ، بل ينفصل الفريقان بدون طائل .

ومنها أن الفرنسيس عملوا كرنتيلة بجزيرة بولاق فيحجزون بها القادمين من السفار أياماً معدودة كل جهة من الجهات القبلية والبحرية بحسبها ومنها أن السيد مصطفى الدمنهورى مرّ وهو راكب بغلته بخط الموسكى فقابله خيال فرنساوى يخب فرسه فجفلت بغلة السيد مصطفى المذكور وألقته من على ظهرها إلى الأرض وصادف حافر فرس الفرنساوى أذنه فرض صماخه فلم يتحرك ولم ينطق فرفعوه فى تابوت إلى منزله ومات من ليلته إلى رحمة الله تعالى

شهر رمضان

استهل بيوم الأربعاء كما ذكر فيه أحد كبار الفرنسيس فى الاهتمام بالسفر إلى جهة الشام وجهزوا طلباً كثيراً وصاروا فى كل يوم تخرج طائفة بعد طائفة .

وفى يوم السبت عمل صارى عسكر ديواناً وأحضر المشايخ والوجاقات وتكلم معهم فى أمر خروجه للسفر وأنهم قتلوا المماليك الفارّين بالصعيد وأجلوا باقيهم إلى أقصى الصعيد وأنهم متوجهون إلى الفرقة الأخرى بناحية غزة فيقطعونهم ويمهدون البلاد الشامية لأجل سلوك الطريق ومشى القوافل والتجارات برًّا وبحراً لعمار القطر وصلاح الأحوال ، وأننا نغيب

عنكم شهراً ثم نعود وعند عودنا نرتب النظام فى البلد والشرائع وغير ذلك فعليكم ضبط البلد والرعية فى مدة غيابنا ونبهوا مشايخ الأخطاط والحارات كل كبير يضبط طائفته خوفاً من الفتن مع العسكر المقيمين بمصر ؛ فالتزموا له بذلك ، وكتبوا أوراقاً مبصومة على العادة فى معنى ذلك ولصقوها بالطرق .

وفى ذلك اليوم خرج القاضى ومصطفى بيك كتخدا الباشا والمشايخ المعينون للسفر إلى جهة العادلية ، وخرج أيضاً عدة كبيرة من عسكرهم ومعهم أحمال كثيرة حتى الأسرة والفرش والحصر وعدة مواهى ومحفات للنساء والجوارى البيض والسود والحبوش الذين أخذوهم من بيوت الأمراء وتزيى أكثرهم بزى نسائهم الأفرنجيات وغير ذلك .

وفى يوم الأحد خامسه ركب صارى عسكر الفرنسيس وخرج أيضاً إلى العادلية وذلك فى الساعة الرابعة والطالع الحمل وفيه القمر فى تربيع زحل وصاحبه فى الثانى وأبقى بمصر عدة من العسكر بالقلعة والأبراج التى بنوها على التلول وقايم مقام وبوسليك وصارى عسكر دزة بجملة من العسكر فى الصعيد وكذلك صوارى عسكر الأقاليم كل واحد معه عكر فى جهة من الجهات ، وأخذ معه المدبرين وأصحاب المشورة والتراجمين وأرباب الصنايع منهم كالحدادين والنجارين ومهندسين الحروب ، وكبيرهم أبو خشبة ، وأبقى أيضاً بعض أكابرهم بمصر ، ثم تراسل المتخلفون فى الخروج كل يوم تخرج منهم جماعة .

وفى يوم الثلاثاء سابعه ابتدب للنميمة ثلاثة من النصارى الشوام وعرفوهم أن المسلمين قاصدون الوثوب على الفرنسيس فى يوم الخميس تاسعه ، فأرسل قائم مقام خلف المهدى والأغا ، فأحضرهم وذكر لهم ذلك فقالوا لهم هذا كذب لا أصل له ، وإنما هذه نميمة من النصارى كراهة منهم فى المسلمين ففحص عمن اختلق ذلك فوجدوهم ثلاثة من النصارى الشوام ؛ فقبضوا عليهم وسجنوهم بالقلعة حتى مضى يوم الخميس فلم يظهر صحة ما نقلوه فأبقاهم فى الاعتقال ، ثم أن نصارى الشوام رجعوا إلى عادتهم فى لبس العمائم السود والزرق وتركوا لبس العمائم البيض والشالات الكشميرى الملونة والمشجرات ، وذلك بمنع الفرنسيس لهم من ذلك ونبهوا أيضاً بالمناداة فى أوائل رمضان بأن نصارى البلد يمشون على عادتهم مع المسلمين أولا ، ولا يتجاهرون بالأكل والشرب فى الأسواق ولا يشربون الدخان ولا شيئاً من ذلك تمرداً منهم ، كل ذلك استجلاباً بالخواطر الرعية حتى إن بعض الفقهاء مرّ على بعض النصارى وهو يشرب الدخان فانتهره فرد عليه رداً شنيعاً ، فنزل ذلك المتعمم فضرب النصرانىّ واجتمع عليه الناس ، وحضر القاق المحافظ لتلك الجهة فرفعها إلى قايم مقام فسأل من النصارى الحاضرين عن عادتهم فى ذلك ، فأخبروه أن من عادتهم القديمة أنه إذا استهل رمضان لا يأكلون ولا يشربون فى الأسواق ولا بمرأى من المسلمين أبداً فضرب النصرانى وترك المتعمم لسبيله

وفى تاسع عشره أحضر أغاة الانكشارية رجلا إلى سوق الأشرفية وضرب عنقه قيل أنه سارق .

وفى رابع عشرنيه أحضروا مراد أغا تابع سليمان بك الأغا من قبلى ومعه آخر من الأجناد فأصعدوهما إلى القلعة قيل : بندقوا عليهما وقتلوهما .

وفى خامس عشرنيه ورد الخبر بأن الفرنسيس ملكوا قلعة العريش وطاف رجل من أتباع الشرطة ينادى فى الأسواق أن الفرنساوية ملكوا قلعة العريش وأسروا عدة من المماليك وفى غد يعملون شنكا ويضربون مدافع فإذا سمعتم ذلك فلا تفزعوا .

فلما أصبح يوم الأحد حضر المماليك المذكورة وهم ثمانية عشر مملوكاً وأربعة من الكشاف وهم راكبون الحمير ومتقلدون بأسلحتهم ، ومعهم نحو المائة من عسكر الفرنسيس ، فحزن المسلمون لذلك وانقبضت نفوسهم وصاروا بين مصدق ومكذب وخرج بعض الناس فشاهدهم .

ولما وصلوا إلى خارج القاهرة حيث الجامع الظاهرى خرج اللعين برطلمين وكذلك الخاسر الأغا كل بطائفته لانتظارهم ومعهم طبول وبيارق ، فمشوا معهم إلى الأزبكية من الطريق التى استحدثوها ودخلوا بهم إلى بيت قايم مقام فأخذوا سلاحهم وأطلقوهم فذهبوا إلى بيوتهم وفيهم أحمد كاشف تابع عثمان بك الأشقر وآخر يقال له حسن كاشف الدويدار وكاشفان آخران وهم يوسف كاشف الرومى واسماعيل كاشف تابع أحمد كاشف المذكور . وكان من خبرهم أنهم كانوا مقيمين بقلعة العريش وصحبتهم نحو ألف عسكرى مغاربة وأرناءوط ، فحضر إليهم الفرنسيس الذين كانوا فى المقدمة فى أواخر شعبان ، وأحاطوا بالقلعة ، فحاربوهم

من داخلها ونالوا منهم ، ثم حضر إليهم كبير الفرنسيس بمجموعة بعد أيام وألحوا فى حصارهم فأرسل من بالعريش إلى غزة وطلب نجدة فأرسلوا إليهم نحو السبعمائة وعليهم قاسم بك أمين البحرين فلم يتمكنوا من الوصول إلى القلعة لتحلق الفرنسيس بها وإحاطتهم عليها فنزلوا قريباً من القلعة ، فكسبهم عسكر الفرنسيس بالليل ، فاستشهد قاسم بك وغيره ، وانهزم الباقون ؛ ولم يزل أهل القلعة يحاربون وينالون من عدوهم ما ينالون حتى فرغ ما عندهم من البارود والذخيرة ، فطلبوا عند ذلك الأمان فأمنوهم ومن القلعة أنزلوهم ، وذلك بعد أربعة عشر يوماً فلما نزلوا على أمانهم أرسلوهم إلى مصر مع الوصية بهم وتخلية سبيلهم وهؤلاء هم الجماعة القادمون .

وأما العسكر الذين كانوا معهم فبعضهم انضاف إليهم وأعطوهم جامكية وعلوفة وأجلسوهم بالقلعة مع عسكر من الفرنسيس ، والبعض لم يرضى بذلك ، فأخذوا سلاحهم وأطلقوهم إلى حال سبيلهم وذهب الفرنسيس إلى ناحية غزة .

وفى ذلك اليوم بعد الظهر عملوا الشنك الموعود به وضربوا عدة مدافع من القلعة والأزبكية ؛ فعظم الهاجس ، وتزايدت الوساوس ، وأظهر النصارى الفرح والسرور ، فى الأسواق والدور ، وأولموا فى بيوتهم الولائم ، وغيروا الملابس والعمائم ، ويجمعوا للهو والخلاعة وزادوا فى الشناعة .

وفى يوم الأربعاء توفى أحمد كاشف بقهره فجأة

وفى عصر ذلك اليوم حضر جماعة من الفرنسيس نحو الخمسة

وعشرين وهم راكبون الهجن وعلى رءوسهم عمائم بيض ولابسون برانس بيض على أكتافهم ، فذهبوا إلى بيت قايم مقام ؛ الأزبكية فلما أصبح يوم الخميس عملوا الديوان وقرروا المكاتبة التى حضرت مع الهجانة ، حاصلها أن الفرنسيس أخذوا غزّة وخان يونس وأخبروا بروايات مختلفة : منها أنهم وجدوا إبراهيم بياك ومن معه ارتحلوا من هناك وكانوا أرسلوا حريمهم وأثقالهم إلى جبل نابلس وقيل بل تحاربوا معهم وهزموا .

وفى ذلك اليوم بعد العصر بنحو عشرين درجة حضر عدة من الفرنسيس ومعهم كبير منهم وهم راكبون الخيول وعدة من المشاة ، وفيهم جماعة لابسون عمائم بيض وجماعة أيضاً برانيط ، ومعهم نفير ينفخ فيه ، وبيدهم بيارق وهى التى كانت على قاعة العريش إلى أن وصلوا إلى الجامع الأزهر فاصطفوا رجالا وركباناً بباب الجامع وطلبوا الشيخ الشرقاوى فسلموه تلك البيارق وأمروه برفعهم ونصبهم على منارات الجامع الأزهر ، فنصبوا بيرقين ماوّنين على المنارة الكبيرة ذات الهلالين عند كل هلال بيرقاً وعلى منارة أخرى بيرقاً ثالثاً وعند رفعهم ذلك ضربوا عدة مدافع من القلعة بهجة وسروراً ، وكان ذلك ليلة عيد الفطر فكان من أشنع ليالى الأعياد على المسلمين .

فلما كان عند الغروب ضربوا عدة مدافع أيضاً إعلاماً بالعيد ، وبعد العشاء الأخيرة طاف أصحاب الشرطة ونادوا بالأمان وبخروج الناس على عادتهم لزيارة القبور بالقرافتين ، والاجتماع لصلاة العيد ، وأن يلبسوا أحسن ثيابهم ولما ملكوا العريش كتبوا أوراقاً وأرسلوها إلى البلاد

ونصها : فرمان عام موجه من حضرة أمير الجيوش إلى أهالى بر الشام قاطبة .

بسم الله الرحمن الرحيم
وبه نستعين

من طرف بونابرته أمير الجيوش الفرنساوية إلى حضرة المفتين والعلماء وكافة أهالى نواحى غزّة والرملة ويافا حفظهم الله تعالى ، بعد السلام عليكم نعرفكم أننا حررنا لكم هذه السطور لكيما نعلمكم أننا حضرنا فى هذا الطرف لقصدنا طرد المماليك وعسكر الجزار عنكم ، وإلى أى سبب حضور عساكر الجند وتعدوا على بلاد يافا والرملة وغزّة الذى ما كانوا من حكمه وإلى أى سبب أيضاً أرسل عساكره إلى قاعة العريش ، بذلك هجم على أراضى مصر فبلا شك كان مراده إجراء الحرب معنا فإحنا حضرنا لنحاربه ، فأما أنتم يا أهالى الأطراف المشار إليها لم نقصد لكم أزية ولا أدنى ضرر ، فأنتم استمروا فى محلكم ووطنكم مطمئنين ومرتاحين ، واخبروا من كان خارجاً عن محله ووطنه ومن قبلنا عليكم ثم عليهم الأمان الكافى والحماية التامة ولا أحد يتعرض لكم فى مالكم وما تملكه يدكم وقصدنا أن القضاة يلازمون خدمهم ووظائفهم على ما كانوا عليه وعلى الخصوص أن دين الإسلام لم يزل معتزاً ومعتبراً والجوامع عامرة بالصلاوات وزيارات المؤمنين إذ أن كل خير يأتى من الله سبحانه وهو يعطى النصر لمن يشاء ولا يخفاكم أن جميع ما تتوامر به الناس ضدنا فيغدوا باطلا ولا نفع لهم

به لأن كل ما نصنع به يدنا لا بدّ عن تمامه بالخير ، والذى يتظاهر لنا بالحب يفلح ، والذى يتظاهر بالعناد يهلك ، ومن كل ما حصل تفهمون جيداً أننا نقهر أعداءنا ونعضد من يحبنا وعلى الخصوص من كوننا متصفين بالرحمة والإشفاق على الفقراء والمساكين .

ولما أخذوا غزة أرسلوا طوماراً بصورة الواقعة وبصموه نسخاً وقرئ بالديوان ولصقوا تلك النسخ بالأسواق ، ونصها :

بسم الله الرحمن الرحيم ، ولا عدوان إلا على الظالمين ، نخبر أهل مصر وأقاليمها أنه حضر فرمان مكتوب من غزة من حضرة الجنرال اسكندر رنيه خطاباً إلى حضرة صارى عسكر دوجا وكيل أمير الجيوش بمصر يخبره فيه بأن العساكر الفرنساوية باتوا ليلة تسعة عشر شهر رمضان فى خان يونس ؛ وفى فجر تلك الليلة توجهوا سائرين إلى ناحية غزّة فكشفوه قبيل الظهر بساعة عسكر المماليك وعسكر الجزار جالسين تجاه غزة فتوجه إليهم الجنرال مرلا مع عساكر الفرنساوية من خيالة ومشاة مراده اغتيال عسكر المماليك وعسكر الجزار ، فلما انتهوا له فروا هاربين ووقع بينه وبين أطراف عساكرهم بعض مضاربة يسيرة لم يخرج فيها إلا شخصان من الفرنساوية ومات عسكرى واحد ومات من عسكر المملوك والجزار ناس قلائل ، وحين تشاغل صارى عسكر مراد بالمضاربة والمعاملة دخل حضرة صارى عسكر كلمبر الذى كان حاكماً بالإسكندرية وكان ساكناً بالأزبكية ، إلى بندر غزّة وملكها من غير معارض له ووجدوا فيها حواصل مشحونة بالذخاير من بقسماط وشعير واربعمائة قنطار بارود

واثنى عشر مدفعاً وحاصلا كبيراً ملآناً بالخيام الكثيرة وجللا وبنبات مهيآت محضرات كصنعة الإفرنج ، هذا ما وقع لملكهم بغزّة وقد أخبرناكم على ما وقع فى كيفية ملك العريش سابقاً فاستقيموا عباد الله وارضوا بقضاء الله وتأدبوا فى أحكام مولاكم الذى خلقكم وسوّاكم والسلام ختام .

وانقضى شهر رمضان ووقع به قبل ورود هذه الأخبار المؤلمة بمصر من السكون والطمأنينة بسبب سفرهم وخلوا الطرقات منهم وعدم مرور المتخلفين منهم إلا فى النادر واحتفائهم بالليل جملة كافية ، وانفتاح الأسواق والدكاكين والذهاب والمجىء ليلاً وزيارة الإخوان والمشى على العادة بالفوانيس ودونها ، واجتماع الناس للسهر فى الدور والقهاوى ووقود المساجد وصلاة التراويح وطواف المسحراتى والتسلى بالرواية والنقول وترجى المأمول ، وانحلال الأسعار ، فيما عدا المجاوبات من الأقطار .

شهر شوال

استهل بيوم الجمعة . وفى صبح ذلك اليوم ضربوا عدة مدافع لشلك العيد واجتمع الناس لصلاة العيد فى المساجد والأزه ، واتفق أن إمام الجامع الأزهر نسى قراءة الفاتحة فى الركعة الثانية ، فلما سلم أعاد الصلاة بعد ما شنع عليه الجماعة ، وخرج الرجال والنساء لزيارة القبور فانتبذ بعض الحرافيش نواحى تربة باب النصر وأسرع فى مشيه وهو يقول نزلت عليكم العرب يا ناس ، فهاجت الناس وانزعجت النساء ورمحت الجعيدية والحرافيش وخطفوا ثياب النساء وأزرهن وما صادفوه من عمائم الرجال وغير ذلك واتصل ذلك بتربة المجاورين وباب الوزير والقرافة حتى أن بعض النساء مات تحت الأرجل ولم يكن لهذا الكلام صحة وإنما ذلك من مخترعات الأوباش لينالوا أغراضهم بذلك .

وفيه ركب أكابر الفرنسيس وطافوا على أعيان البلد وهنوهم بالعيد فجاملهم الناس بالمداراة .

وفى أوائله وردت الأخبار أن الغز القبليين تفرقوا من بعضهم فذهب مراد بيك وآخرون إلى نواحى ابريم ومنهم من ذهب إلى ناحية أسوان ، والألفى عدى بجماعة إلى البر الشرقى .

وفى خامسه حضر ابن الدواخلى من ناحية القرين متمرضاً وكان

يصحبه الصاوى والفيومى متخلفين بالقرين ، وسبب تخلفهم أن كبير الفرنسيس لما ارتحل من الصالحية أرسل إلى كتخدا الباشا والقاضى والجماعة الذين بصحبتهم يأمرهم بالحضور إلى الصالحية لأنهم كانوا يتأخرون عنه مرحلة ، فلما أرادوا ذلك بلغهم وقوف العرب فى الطريق ، فخافوا من المرور ، فذهبوا إلى القرين فأقاموا هناك ، وأخذ عسكر الفرنسيس جمالهم ، فأقاموا بمكانهم فتعلق هؤلاء الثلاثة وخافوا سوء العاقبة ففارقوهم وذهبوا للقرين وتخلف عنهم الفيومى فأقام مع كتخدا الباشا والقاضى فحصل للشيخ محمد الدواخلى توعك فحضر إلى مصر وبقى رفيقاه فى حيرة .

وفى سابعه أحضر الأغا رجلا ورمى رقبته عند باب زويلة وشنق امرأة على شباك السبيل تجاه الباب والسبب فى ذلك أن الفرنساوي حاكم خط الخليفة وجهه الركبية ويسمى دلوى أحضر باعة الغلال بالرميلة وصادرهم ومنعهم من دفع معتاد الوالى فاجتمعوا وذهبوا إلى كبير الفرنسيس الذى يقال له شيخ البلد وشكوا إليه ، وكان الأمير زين الفقار حاضراً وهو يسكن تلك الجهة فساعدهم وعرف شيخ البلد عن شكواهم فأرسل شيخ البلد إلى دلوى وانتهره وأمره بردّ ما أخذ ، فأخبره أتباعه أن زين الفقار هو الذى عضدهم وأنهى شكواهم إلى كبيرهم ، فقام دلوى المذكور ودخل على زين الفقار فى بيته وسبه وشتمه بلغته وفزع عليه ليضربه ، فلما خرج من عنده قام وذهب إلى كبيرهم وأخبره بفعل دلوى معه ، فأمر

بإحضاره وحبسه بالقلعة ، ثم أخبر شيخ البلد بعض الناس أن الذى وقع من دلوى من تعرّضه لبياعين الغلة إنما هو بإغراء خادمه ، وعرف كبيرهم أن خادمه المذكور مولع بأمرأة رقاصة من الرميلة تأتيه بأشكالها ومن على طريقتها ويجتمع هو واضرابه وترقص تلك المرأة له فى القهوة التى بخطهم ليلاً ونهاراً وتبيت معهم فى البيت ، ويصبحون على حالتهم .

فلما حبس أميرهم اختفوا ، فدلوا على الرجل والمرأة فقبضوا عليهم وفعلوا بهم ما ذكر ولا بأس بما حصل .

وفى ثامن يوم الجمعة نودى فى الأسواق بموكب كسوة الكعبة المشرفة من قراميدان والتنبيه باجتماع الوجاقات وأرباب الأشاير وخلافهم على العادة فى عمل الموكب . . .

فلما أصبح يوم السبت اجتمع الناس بالأسواق وطريق المرور جلسوا للفرجة ، فمرّوا بذلك وأمامها الوالى والمحتسب وعليهم القفاطين والبيشات وجميع الأشاير بطبولهم وزمورهم وكاساتهم ثم برطلمين الكافر كتخدا مستحفظان وأمامه نفر الإنكشارية من المسلمين نحو المائتين أو أكثر ، وعدة كثيرة من نصارى الأروام بالأسلحة والملازمين بالبراقع وهو لابس فروة عظيمة ثم مواكب القلقات ثم موكب ناظر الكسوة وهو تابع مصطفى كتخدا الباشا وخلفة النوبة التركية فكانت هذه الركبة من أعظم المواكب ، وأعجب العجايب ، لما اشتملت عليه من اختلاف الأشكال ، وتنوع الأمثال ، واجتماع الملل ، وارتفاع السفل ، وكثرة الحشرات ،

وعجائب المخلوقات ؛ واجتماع الأضداد ، ومخالفة الوضع المعتاد ؛ وكان نسيج الكسوة بدار مصطفى كتخدا المذكور وهو على خلاف العادة من نسجها بالقلعة .

وفى يوم الأربعاء ثالث عشره حضر عدة من الفرنسيس وهم راكبون الهجن ومعهم عدة بيارق وأعلام بعد الظهر ، وأخبروا أن الكفرة الفرنسيس ملكوا قلعة يافا وبيدهم مكاتبة من صارى عسكرهم بالأخبار عما وقع .

فلما كان يوم الخميس واجتمع أرباب الديوان بالديوان ، فقرأوا عليهم تلك المراسلة بعد تقريرها وترصيفها على هذه الكيفية وهى على لسان رؤساء الديوان إلى الكافة ، وذلك بإلزامهم وأمرهم بذلك وصورتها

بسم الله الرحمن الرحيم

سبحان مالك الملك ، يفعل فى ملكه ما يريد ، سبحان الحكم العدل الفاعل المختار ذو البطش الشديد ؛ هذه صورة تمليك سبحانه وتعالى جمهور الفرنساوية لبندر يافا من الأقطار الشامية ، نعرّف أهل مصر وأقاليمها من سائر البرية أن العساكر الفرنساوية انتقلوا من غزّة ثالث عشر من شهر رمضان ، ووصلوا إلى الرملة فى الخامس والعشرين منه فى أمن واطمئنان فشاهدوا عسكر أحمد باشا الجند هاربين بسرعة قائلين الفرار الفرار ؛ ثم أن الفرنساوية وجدوا فى الرملة ومدنية لسدّ مقدار كبير من مخازن البقسماط والشعير ، ورأوا فيها ألف وخمسمائة قربة مجهزين

جهزها الجزار يسير بها إلى اقليم مصر مسكن الفقراء والمساكين ، ومراده يتوجه إليها بأشرار العربان من سفح الجبل ولكن تقادير الله تفسد المكر والحيل قاصداً سفك دماء الناس مثل عوايده الشامية وتجبره وظامه مشهور لأنه تربية المماليك الظامة المصرية ، ولم يعلم من خشانة عقله وسوء تدبيره أن الأمر لله كل شيء بقضائه وتدبيره .

وفى سادس عشرين شهر رمضان وصلت مقدمات الفرنساوية إلى بندر يافا من الأراضى الشامية وأحاطوا بها وحاصروها من الجهة الشرقية والغربية وأرسلوا إلى حاكمها وكيل الجزار أن يسلمهم القلعة قبل أن يحل بهم وبعسكرهم الدمار ، فمن خشانة رأيه وسوء تدبيره سعى فى هلاكه وتدميره ولم يرد لهم جواب وخالف قانون الحرب والصواب وفى آخر ذلك اليوم السادس والعشرين تكاملت العسكر الفرنساوية على محاصرة يافا وصاروا كلهم مجتمعين وانقسموا على ثلاثة طوابير ، الطابور الأول توجه على طريق بمكة بعيد عن يافا بأربعة ساعات .

وفى السابع والعشرين من الشهر المذكور أمر حضرة صارى عسكر الكبير بحفر خنادق حول السور لأجل أن يعملوا متاريس أمينة ، وحصارات متقنة حصينة لأنه وجد سور يافا ملئت بالمدافع الكثيرة ومشحونة بعسكر الجزار الغزيرة وفى تاسع عشرين الشهر لما قرب فحت الخندق إلى السور مقدار مائة وخمسين خطوة أمر حضرة صارى عسكر المشار إليه أن ينصب المدافع علي المتاريس وأن يضعوا أهوان القنبر

بإحكام وتأسيس وأمر بنصب مدافع أخر بجانب البحر لمنع الخارجين إليهم من مراكب المينا لأنه وجد فى المينا بعض مراكب عدوهم عسكر الجزار للهروب ، ولا ينفع الهروب — من المقدر المكتوب — ولما رأت عساكر الجزار الكائنين بالقلعة المحاصرين أن عسكر الفرنساوية قلائل فى رأى العين للناظرين لمداراة الفرنساوية فى الخنادق وخاف المتاريس غرّهم الطمع . فخرجوا لهم من القلعة مسرعين مهرولين وظنوا أنهم يغلبون الفرنساوية فهجموا فهجم عليهم الفرنسيس وقتلوا منهم جملة كثيرة فى تلك الوقعة وألزموهم وألجأوهم للدخول ثانياً فى القلعة . وفى يوم الخميس غاية شهر رمضان حصل عند صارى عسكر شفقة قلبية وخاف على أهل يافا من عسكره إذا دخلوا بالقهر والإكراه ، فأرسل إليهم مكتوباً مع رسول مضمونه : لا إله إلا الله وحده لا شريك له .

بسم الله الرحمن الرحيم

من حضرة صارى عسكر برتبة كتخدا العسكر الفرنساوى إلى حضرة حاكم يافا نخبركم أن حضرة صارى عسكر الكبير بونابرته أمرنا فى هذا الكتاب نعرفك أن سبب حضوره إلى هذا الطرف إخراج عسكر الجزار فقط من هذه البلد لأنه تعدى بإرسال عسكره إلى العريش ومرابطته فيها ، والحال إنها من إقليم مصر التى أنعم الله بها علينا فلا يناسبه الإقامة بالعريش

لأنها ليست من أرضه ، فقد تعدّى على ملك غيره ، ونعرفكم يا أهل يافا أن بندركم حاصرناه من جميع أطرافه وجهاته ، وربطناه بأنواع الحرب وآلات المدافع الكثيرة والجلل والقنابر ، وفى مقدار ساعتين يتقلب سوركم وتبطل آلاتكم وحروبكم . ونخبركم أن حضرة صارى عسكر المشار إليه لمزيد رحمته وشفقته خصوصاً بالضعفاء من الرعية خاف عليكم من سطوة عسكره المحاربين إذا دخلوا لكم بالقهر أهلكوكم أجمعين ، فلزمنا أننا نرسل لكم هذا الخطاب أماناً كافياً لأهل البلد والأعراب ولأجل ذلك أخر ضرب المدافع والقنابر الصاعدة منكم ساعة فلكية واحدة وإنى لكم لمن الناصحين وهذا آخر جواب بالكتاب ، فجعلوا جوابنا حبس الرسول مخالفين القوانين الحربية والشريعة المطهرة المحمدية ، وحالا فى الوقت والساعة هيج صارى عسكر واشتد غضبه على الجماعة ، وأمر بابتداء ضرب المدافع والقنبر الموجب للتدبير وبعد مضى زمان يسير تعطلت مدافع يافا المقابلة لمدافع المتاريس ، وانقلب عسكر الجزار فى وبال وتنكيس ؛ وفى وقت الظهر من هذا اليوم انحرق سور يافا وارتج له القوم ونقب من الجهة التى ضرب فيها المدافع من شدة النار ، ولا راد لقضاء الله ولا مدافع ؛ وفى الحال أمر صارى عسكر بالهجوم عليهم ، وفى أقل من ساعة ملكت الفرنساوية جميع البندر والأبراج ودار المحاربين واشتد بحر الحرب وهاج ، وحصل النهب فيها تلك الليلة .

وفى يوم الجمعة غرة شوال وقع الصفح الجميل من حضرة صارى

عسكر الكبير ورق قلبه على أهل مصر من غنى وفقير الذين كانوا فى يافا وأعطاهم الأمان وأمر برجوعهم إلى بلادهم مكرمين ، وكذلك أمر أهل دمشق وحلب برجوعهم إلى أوطانهم سالمين لأجل ما يعرفوا مقدار شفقته ومزيد رأفته ورحمته ، يعفو عند المقدرة ، ويصفح وقت المعذرة مع تمكنه ومزيد إتقانه وتحصنه ، وفى هذه الوقعة قتل أكثر من أربعة آلاف من عسكر الجزار بالسيف والبندق لما وقع منهم من الانحراف .

وأما الفرنساوية فلم يقتل منهم إلا القليل ، والمجروحين منهم ليسوا بكثير وسبب ذلك سلوكهم إلى القلعة من طريق أمينة خافية عن العيون ، وأخذوا ذخائر كثيرة وأموال غزيرة ومسكوا المراكب التى فى المينا واكتسبوا أمتعة غالية ثمينة ، ووجدوا فى القلعة أكثر من ثمانين مدفعاً ، ولم يعلموا مع مقادير الله أن آلات الحرب لا تنفع ، فاستقيموا عباد الله ، وأرضوا بقضاء الله ولا تعترضوا على أحكام الله ، وعليكم بتقوى الله ، وأعلموا أن الملك لله يؤتيه من يشاء ، والسلام عليكم ورحمة الله .

فلما تحقق الناس صحة هذا الخبر نزل عليهم من الكآبة والهم والحزن ما لا يوصف ، فإنهم كانوا يظنون ، بل يتيقنون استحالة ذلك خصوصاً فى المدة القليلة ولكن المقضى كائن .

وفى يوم الجمعة خامس عشره شق جماعة من أتباع الشرطة فى الأسواق والحمامات والقهاوى ونهبوا على الناس بترك الفضول والكلام واللفظ فى حق الفرنسيس ، ويقولون لهم : من كان يؤمن بالله ورسوله فلينته ويترك الكلام

فى ذلك ، فإن ذلك مما يهيج العداوة ، وعرفوهم أنه إن بلغ الحاكم من المتجسسين عن أحد تكلم فى ذلك عوقب أو قتل ، فلم ينتهوا ، وربما قبضوا على البعض وعاقبوه بالضرب والتغريم .

وفى ذلك اليوم كان التحويل الربيعى وانتقال الشمس لبرج الحمل وهو أول شهر من شهورهم ، فعملوا ليلة السبت شنكاً وحراقة وسواريخ وتجمعوا بدار الخلاعة رجالا ونساء وتراقصوا وتسابقوا وأوقدوا سروجاً وشموعاً وغير ذلك وأظهر النصارى القبطة والشوام الفرح والسرور .

وفى يوم السبت المذكور أرسلوا الأعلام والبيارق التى أحضروها من قلعة يافا وعدتهم ثلاثة عشر علماً وفيهم من له طلائع فضة كبار إلى الجامع الأزهر ، وكانوا أنزلوا أعلام قلعة العريش قبل ذلك بيوم من أعلى المنارات وأرسلوا بدلهم أعلام يافا وعملوا لهم موكباً بطائفة من العسكر يقدمهم طبلهم وخلفهم اللعين الأغا بجماعته وطائفته والمحتسب ومدبروا الديوان وخلفهم طبل آخر يضربون عليه بإنزعاج شديد ووراء ذلك الطبل جماعة من العسكر يحماون البنادق على أكتافهم كالطائفة الأولى وبعد هؤلاء عدة من العسكر على رءوسهم عمائم بيض يحماون الأعلام والبيارق المذكورة وخلفهم جماعة خيالة من كبار العساكر وآخرون راكبون على حمير المكارى ، فلما وصلوا إلى باب الجامع الأزهر رفعوا تلك الأعلام ووضعوها على أعلى الباب الكبير فوق المكتب ، وبعضهم على الباب الآخر بالقرب من حارة كتامة المعروفة الآن بالعينية ولم يرفعوهم على المنارات كما صنعوا فى أعلام العريش ، والسر فى ذلك التبكيت والإرغام ، والله عاقبة الأمور .

وفى يوم الأحد سابع عشره رتبوا أوامر وكتبوها فى أوراق مبصومة ولصقوها بالأسواق أحدها بسبب مرض الطاعون وآخر بسبب الضيوف الأغراب ومضمون الأول بتفاسيره ومقالاته خطاباً لأهل مصر وبولاق ومصر القديمة ونواحيها إنكم تمتثلوا هذه الأوامر وتحافظوا عليها ولا تخالفوها وكل من خالفها وقع له مزيد الانتقام والعقاب الأليم والقصاص العظيم وهى المحافظة من تشويش الكبة وكلما ظننتم أو توهمتم أو شككتم فيه ذلك فى محل من المحلات أو بيت أو وكالة أو ربع يلزمكم ويتحتم عليكم أن تعملوا كرنتيلة ، ويجب قفل ذلك المكان ويكون شيخ الحارة أو السوق الذى فيه ذلك أن يخبر حالا قلق الفرنساوية حاكم ذلك الخط ، والقلق يخبر شيخ البلد قائم مقام مصر ويكون ذلك فوراً وكذلك كل ملة من سكان مصر وأقاليمها وجوانبها والأطباء إذا تحققوا وعلموا حصول ذلك المرض يتوجه كل طبيب إلى قايم مقام ويخبره ليأمره بما هو مناسب للصيانة والحفظ من هذا التشويش وكل من كان عنده خبر من كبار الأخطاط أو مشايخ الحارات وقلقات الجهات ولم يخبر بهذا المرض يعاقب بما يراه قائم مقام ويقاصص مشايخ الحارات بمائة كرباج جزاء التقصير ، وملزوم أيضاً من أصابه هذا التشويش أو حصل فى بيته لغيره من عائلته أو عشيرته وانتقل من بيته إلى آخر كان قصاصه الموت ، وهو الجانى على نفسه بسبب انتقاله وكل رئيس ملة فى خط إذا لم يخبر بالكبة الواقعة فى خطه أو بمن مات بها أيضاً فورياً كان عقاب ذلك الرئيس وقصاصه الموت ، والمغسل إن كان رجلا أو امرأة إذا رأى الميت أنه مات بالكبة أو شك فى موته بها ولم يخبر

قبل مضى أربعة وعشرين ساعة كان جزاؤه وقصاصه الموت ؛ وهذه الأوامر الضرورية يلزم أغاة الانكشارية وحكام البلد الفرنساوية والإسلامية تنبيه الرعية واستيقاظهم لها فإنها أمور مخفية، وكل من خالف يحصل له مزيد الانتقام من قايم مقام ، وعلى القلقات البحث والتفتيش عن هذه العلة الردية لأجل الصيانة والحفظ لأهل البلد والحذر من المخالفة ، والسلام .

ومضمون الثانى الخطاب السابق من صارى عسكر دوجا الوكيل وحاكم البلد دستين قايم مقام ، يلزم المدبرين بالديوان أن يشهروا الأوامر ويتنبهوا لها وينبهوا عليها ، ويأمروا كامل الرعية بالمحافظة عليها ، وكل من خالف يحصل له مزيد الانتقام وهو أنه يتحتم ويلزم كل صاحب عمارة أو وكالة أو بيت الذى يدخل فى محله ضيف أو مسافر أو قادم من بلدة أو إقليم يلزمه أن يعرف عنه حالا حاكم البلد ، ولم يتأخر عن الإخبار إلا مدة أربعة وعشرين ساعة يعرفه عن مكانه الذى قدم منه وعن سبب قدومه ومدة سفره ومن أى طائفة أو ضيفاً أو تاجراً أو زائراً أو غريماً مخاصما لا بد لصاحب المكان من إيضاح البيان والحذر ثم الحذر من التلبيس والخيانة ، وإذا لم يقع تعريف عن كامل ما ذكر فى شأن القادم بعد الأربعة وعشرين ساعة بإظهار اسمه وبلده وسبب قدومه يكون صاحب المكان متعدياً ومذنباً وخائناً وموالساً مع المماليك ونخبركم معاشر الرعايا وأرباب الحمامير والوكايل « أن » تكونوا ملزمين بغرامة عشرين ريال فراسنة فى المرة الأولى وأما فى المرة الثانية فإن الغرامة تضاعف ثلاث مرات ونخبركم أن الأمر

بهذه الأحكام مشترك بينكم وبين الفرنسيس الفاتحين للخمامير والبيوت والوكايل والسلام .

وفيه اجتمعوا بالديوان وتفاوضوا فى شأن مصطفى بك كتخدا الباشا المولى أمير الحاج وهو أنه لما ارتحل مع كبير الفرنسيس وصحبته القاضى والمشايخ الذين عينوا للسفر والوجاقلية والتجار وافترق منهم عند بلبيس وتقدمهم هو إلى الصالحية ثم أنهم انتقلوا إلى القرين فحضر جماعة من العسكر المسافرين فاحتاجوا إلى الجمال ، فأخذوا جمالهم ، فلما وصل إلى قطيسا أرسل إليهم يستدعيهم إلى الحضور فلم يجدوا ما يحملون عليه متاعهم ، وبلغهم أن الطريق مخوفة من العرب فلم يمكنهم اللحاق به فأقاموا بالقرين عدة أيام وأهمل أمرهم صارى عسكر .

ثم أن الصاوى والعريشى وابن الدواخلى وآخرون خافوا عاقبة الأمر ففارقوهم وذهبوا إلى القرين ، واعتسل ابن الدواخلى بالتشويش وحضر إلى مصر كما تقدم ذكر ذلك وانتقل مصطفى بك المذكور والقاضى وصحبهم الشيخ سليمان الفيومى وآخرون من التجار والوجاقلية إلى كفور نجم وأقاموا هناك أياماً واتفق أن الصاوى أرسل إلى داره مكتوباً وذكر فى ضمنه أن سبب افتراقهم من الجماعة أنهم رأوا من كتخدا الباشا أموراً غير لائقة فلما حضر ذلك المكتوب طلبه جماعة الفرنسيس المقيمون بمصر وقرأوه وبحثوا عن معنى الأمور الغير لائقة ، فأولها بعض المشايخ بأنه قصر فى حقهم والاعتناء بشأنهم ، فسكتوا وأخذوا فى التفحص فظهر لهم أنه خامر

عليهم واجتمع عليه الجبالى وبعض العرب العصاة وأكرمهم وخلع عليهم وانتقل بصحبتهم إلى منية غمر ودقدوس وبلاد الوقف ، وجعل يقبض منهم الأموال ، وحين كانوا على البحر مر بهم مراكب تحمل الميرة والدقيق إلى الفرنسيس بدمياط فقاطعوا عليهم وأخذوا ما معهم قهراً واحضروا المراكبية بالديوان فحكوا على ما وقع لهم معه فأثبتوا خيانة مصطفى بك المذكور وعصيانه وارسلوا هجاناً بإعلام صارى عسكرهم بذلك فرجع إليهم بالجواب بأن يرسلوا إليه عسكراً ويقبضون عليه ويختمون على داره ويحبسون جماعته .

وفى يوم الأحد رابع عشرينه عينوا عليه عسكراً وأرسلوا إلى داره جماعة ومعهم وكلاء فقبضوا على كتخدا الذى كان ناظراً على الكسوة وابن أخيه ومن معهم وأودعوهم السجن بالجيزة ، وضبطوا موجوداته وما تركه مخدومه بكر باشا بقائمة وأودعوا ذلك بمكان بالقلعة فوجدوا أغلب أمتعة الباشا وبرقه وملابسه وعبى الخيل والأمتعة وغيرها شيئاً كثيراً ووجدوا بعض خيول وجمال أخذوها أيضاً فانقبض خواطر الناس لذلك فإنهم كانوا مستأنسين بوجوده ووجود القاضى ويتوسلون بشفاعتهما عند الفرنسيس وكلمتهما عندهم مقبولة وأوامرهما مسموعة ثم أنهم أرسلوا أماناً للمشايخ والوجاقلية والتجار بالحضور إلى مصر مكرمين ولا بأس عليهم .

وفيه ورد الخبر بأن السيدعمر أفندى نقيب الأشراف حضر إلى دمياط وصحبته جماعة أفندية وغيرهم وذكر أنهم كانوا بقلعة يافا فلما حاصرهم

الفرنسيس وملكوا القلعة والبلد وجرى ما سطر أحضروهم بين يدى كبير الفرنسيس فى أسوأ حال فأمنهم وأنزلهم فى مركب وأرسلهم إلى دمياط من البحر .

وفى يوم الأثنين نادوا فى الأسواق على المماليك والغز والأجناد الأغراب بأن يحضروا إلى بيت الوكيل ويأخذون أوراقاً بعد معرفتهم والتضمين على أنفسهم ومن وجد من غير وثيقة فى يده بعد ذلك يستاهل الذى يجرى عليه وسبب ذلك إشاعة دخول الكثير منهم إلى مصر خفية بصفة الفلاحين .

وفى يوم الثلاثاء نادوا فى الأسواق والشوارع بأن من أراد الحج فليحج فى البحر من السويس صحبة الكسوة والصرة وذلك بعد أن عملوا مشورة فى ذلك وكله كذب لا أصل له .

وفيه حضر إمام كتخدا الباشا ومعه مكتوب منه مضمونه الثناء على الفرنسيس وشكر صنيعهم باعتنائهم وعملهم موكب الكسوة والدعاء لهم وأنه مستمر على مودته ومحبته معهم ، ويطلب منهم الإجازة بالحضور إلى مصر ليسافر بصحبة الكسوة والحجاج فإن الوقت ضاق ودخل أوان السفر للحج وفى آخر المكتوب : وإن بلغكم من المنافقين شىء فهو كذب ونميمة ، فلا تصدقوه فقرئ كتابه بالديوان فلما أفهموه للفرنسيس كذبوه ولم يصغوا إليه وقالوا : إن خيانته ثبتت عندنا فلا ينفعه هذا الاعتذار ، ثم

كتبوا له جواباً وأرسلوه صحبة إمامه مضمونه أنه كان صادقاً فى مقالته فليذهب إلى جهة صارى عسكر بالشام ، وأمهلوه ست ساعات بعد وصول الجواب إليه وإن تأخر زيادة عليها كان كاذباً فى مقالته وأمروا العسكر بمحاربته والقبض عليه .

وفيه كتبوا أوراقاً ونادوا بها فى الشوارع وهى : يا أهل مصر نخبركم أن أمير الحاج رفعوه عن سفره بالحج بسبب ما حصل منه وأن أهل مصر علماء ووجاقات ورعايا لم يخالطوه فى هذا الأمر ولم ينسب لهم شىء فالحمد لله الذى برأ أهل مصر من هذه الفتنة وهم حاضرون سالمين غانمين ما عليهم سوٌ ومن كان مراده الحج يشهل روحه ويسافر مع الصرة والكسوة فى البحر ، المراكب حاضرة والمعينين المحافظين من أهل مصر صحبة الحجاج حاضرين ، يكون فى علمكم تكونوا مطمئنين ، واتركوا كلام الحشاشين .

وفى يوم السبت غايته حضر المشايخ والوجاقات والتجار خلا قاضى العسكر فإنه لم يحضر وتخلف مع مصطفى كتخدا .

شهر ذى القعدة

استهل بيوم الأحد فى سادسه يوم الجمعة حضرت هجانة من الفرنسيس ومعهم مكاتبة مضمونها أنهم أخذوا حيفا وبعدها ركبوا على عكا وضربوا عليها وهدموا جانباً من سورها وأنهم بعد أربعة وعشرين ساعة

يملكونها وأنهم استعجلوا فى إرسال هذه المجانة لطول المدة والانتظار لئلا يحصل لأصحابهم القلق فتكونوا مطمئنين ، وبعد سبعة أيام نحضر إلى عندكم ، والسلام . وقد كذبوا .

وفيه حضرت مغاربة حجاج إلى بر الجيزة فتحدث الناس وكثر لغطهم وتقولوا بأنهم عشرون ألفاً حضروا يستنقذون مصر من الفرنسيس فأرسل الفرنسيس للكشف عليهم فوجدوهم طائفة من خلايا وقرى فاس مثل الفلاحين ، فأذنوا لهم فى تعدية بعض أنفار منهم لقضاء أشغالهم فحضر شخص منهم إلى الفرنسيس ووشى إليهم أنهم قدموا لمحاربتهم والجهاد فيهم وأنهم اشتروا خيلا وسلاحاً وقصدهم إثارة فتنة فأرسل الفرنسيس إليهم جماعة ينظرون فى أمرهم فذهبوا إليهم فتكلموا معهم ومع كبيرهم وعن الذى نقل عنهم ، فقالوا إنما جئنا بقصد الحج لا لغيره ، ثم رجعوا وصحبتهم كبير المغاربة فعملوا الديوان فى صبحها وأحضروه ، وكذلك أحضروا الرجل الذى وشى عليهم ، فتكلموا مع كبير المغاربة وسألوه وناقشوه فقال : إننا لم نأت إلا بقصد الحج فقيل له : ولأى شىء تشترون الأسلحة والخيول ؟ فقال : نعم ، لازم لنا ذلك لأننا مسافرون فى البر ، ونحتاج إلى ذلك ضرورة فقيل له : إنه نقل عنكم أنكم تريدون محاربة الفرنساوية وتقولون الجهاد أفضل من الحج . فقال : هذا كلام لا أصل له . فقيل له : إن الناقل لذلك رجل منكم . فقال : هذا رجل حرامى مسكناه بالسرقة وضربناه فحمله الحقد على ذلك وإن هذه البلاد ليست لنا ولا لسلطاننا حتى نقاتل

عليها ولا يصح أن نقاتلكم بهذه الشرذمة القليلة وليس معنا إلا نصف قنطار بارود ثم اتفقوا معه على أن يجمعوا سلاحهم ويقيم كبيرهم عندهم رهينة حتى يعدّوا جماعته ويسافروا ويلحقهم بعد يومين بالسلاح فأجابهم إلى ذلك ، فحمدوه وأهدوا له هدية .

فلما كان يوم السبت خرجت عدة من العسكر إلى بولاق ومعهم مدفعان ليقفوا للمغاربة حتى يعدّوا البحر ويمشوا معهم إلى العادلية ، فلما رأى الناس خروج العسكر والمدافع فزعوا فى المدينة وبولاق ورمحوا كعادتهم فى كرشاتهم وصياحهم وقالوا وأشاعوا أن الفرنج خرجت لقتال المغاربة وأغلقوا غالب الأسواق والدكاكين وأمثال ذلك من تحيلاتهم فلم يعدّوا المغاربة ذلك اليوم وعدّوا فى ثانى يوم ومشى معهم عسكر الفرنسيس إلى العادلية وهم يضربون الطبول الحربية وأمامهم مدفع وخلفهم مدفع مع جملة من العساكر .

وفى يوم الثلاثاء عاشره سافر عدة من عسكر الفرنسيس إلى عرب الجزيرة فإن مصطفى بيك كتخدا الباشا ذهب إليهم والتجأ إليهم فعينوا عليهم ذلك العسكر .

وفى يوم الأربعاء أفرجوا عن جماعة من الغليونجية وغيرهم الذين كانوا محبوسين بالقلعة وفيهم المعلم نقولا النصرانى الأرمنى الذى كان رئيس مراكب مراد بيك الحربية التى أنشأها بالجيزة وأسكنوه فى بيت حسن كتخدا بباب الشعرية .

وفيه حضر ابن شديد شيخ عرب الحويطات بأمان ، وكان عاصياً فأعطوه الأمان وخلعوا عليه وسفروا معه قافلة دقيق وبقسماط للعسكر بالشام .

وفى يوم السبت حادى عشرنيه حضر مجلون من الناحية القبلية وصحبته أموال البلاد والغنائم من بهائم وخلافها .

وفيه عملوا كرنتيلة عند العادلية لمن يأتى من بر الشام أو غيره وكتبوا بذلك أوراقاً وفيه سافر عدة من العسكر إلى ناحية شرق اطفيح بسبب محمد بيك الألفى . وفيه حضر الذين كانوا ذهبوا إلى عرب الجزيرة فضربوهم ونالوا منهم بعض النيل وأما مصطفى بيك فلم تعلم عنه حقيقة حال ، قيل : إنه ذهب إلى الشام .

وفى خامس عشرنيه وصلت مراسلة من المذكور خطاباً للمشايخ مضمونها أنهم يعرفون أكابر الفرنسيس أنه متوجه إلى صارى عسكرهم بالشام ويرجون الإفراج عن قريبه وكتخدائه ويحتفظون على الأمتعة التى أخذوها فإنها من متعلقات الدولة ؛ فلما أطلعوهم على تلك المكاتبة قالوا : لا يمكن الإفراج عن المذكورين حتى نتحقق أنه ذهب إلى صارى عسكر ويأتينا منه خطاب فى شأنه فإنه من الجائز أنه يكذب فى قوله .

وفيه ثبت أن محمد بيك الألفى مرّ من خلف الجبل وذهب لعرب

الجزيرة ومعه من جماعته نحو المائة وقيل أكثر والتف عليه الكثير من الغزّ والمماليك المشرّدين بتلك النواحى وقدم له العربان التقادم والكلف فأرسل له الفرنسيس عدة من العسكر .

وفى سابع عشرنيه لخص الفرنسيس طومارا قرىء بالديوان وطبع منه عدة نسخ ولصقت بالأسواق على العادة وكان الناس أكثروا من اللغط بسبب انقطاع الأخبار عن الفرنسيس المحاصرين لعكا والروايا عمن بالصعيد والكيلانى والأشراف الذين معه وغير ذلك ونصّها من محفل الديوان الكبير بمصر .

بسم الله الرحمن الرحيم

ولا عدوان إلا على الظالمين ، نخبر أهل مصر أجمعين أنه حضر جواب من عكا من حضرة صارى عسكر الكبير خطاباً إلى حضرة صارى عسكر الوكيل بثغر دمياط تاريخه تاسع القعدة سنة تاريخه يخبر فيه أننا أرسلنا لكم نقيرتين لدمياط ، الأولى أرسلناها فى خمسة وعشرين شوال ، والثانية فى ثمانية وعشرين منه أخبرناكم فيهما عن مطلوبنا إرسال جانب جلل وذخائر إلى عساكرنا المحافظين فى غزة ويافا لأجل زيادة المحافظة والصيانة وأما من قبل العرضى فإن الجلل عندنا كثيرة والذخائر والمآكل والمشارب والخيرات غزيرة حتى إنها زادت عندنا الجلل بكثرة

جمعناها مما يرمين الأعداء فكأن أعداءنا أعانونا ، ونخبركم أننا عملنا لغماً مقدار عمقه ثلاثون قدماً وسرنا به حتى قربناه إلى السور الجوانى بمسافة نحو ثمانية عشر قدماً وقد قربت عساكرنا من الجهة التى نحارب فيها حتى صار بينهم وبين السور ثمانية وأربعون قدماً بمشيئة الله عند وصول كتابنا إليكم وقبل تمام قراءته عليكم نكون ظافرين بملك قلعة عكا أجمعين فإننا تهيأنا إلى دخولها يأتيكم خبر ذلك بعد هذا الكتاب وأما بقية اقليم الشام وما يلى عكا من البلاد فإنهم لنا طائعون وبالاعتناء ومزيد المحبة فينا راغبون ما يأتوننا بكل خير عظيم ويحضرون لنا أفواجاً أفواجاً بالهدايا الكثيرة والحب الجسيم من القلب السليم وهذا من فضل الله علينا ومن شدة بغضهم لجزار باشا ونخبركم أيضاً أن الجنرال يونوت انتصر على أربعة آلاف مقاتل حضروا من الشام خيالة ومشاة فقابلهم بثلاثمائة عسكرى مشاة من عساكرنا فكسروا التجريدة المذكورة وأوقع منهم نحو ستمائة نفس ما بين مقتول ومجروح وأخذ منهم خمسة بيارق وهذا أمر عجيب لم يقع نظيره فى الحروب أن ثلاثمائة نفس تهزم نحو أربعة آلاف نفس ، فعلمنا أن النصره من عند الله لا بالقلة ولا بالكثرة .

هذا آخر كتاب صارى عسكر الكبير إلى وكيله بدمياط وأرسل إلينا بالديوان حضرة الوكيل صارى عسكر دوجا الوكيل بمصر المحروسة يخبرنا بصورة هذا المكتوب ويأمرنا أننا نلزم الرعايا من أهل مصر والأرياف أن يلزموا الأدب والإنصاف ويتركوا الكذب والخراف ، فإن كلام الحشاشين يوقع الضرر للناس المعتبرين ، فإن حضرة صارى عسكر دوجا

الوكيل بلغه أن أهل مصر وأهل الأرياف يتكلمون بكلام لا أصل له من قبل الأشراف والحال أن الأشراف الذين تذكرونهم وتكذبون عليهم جاءت أخبارهم من حضرة صارى عسكر الصعيد دزه يخبر الوكيل دوجا بأن الأشراف المذكورين الذين صحبة الكيلانى تمزقوا كل ممزق وانهزموا وتفرقوا ولم يكن الآن فى بلاد الصعيد شيء يخالف المراد ويسلم من الفتن والعناد ، فأنتم يا أهل مصر ويا أهل الأرياف ، اتركوا الأمور التى توقعكم فى الهلاك والتلاف وأمسكوا أدبكم قبل أن يحل بكم الدمار ، ويلحقكم الندم والعار ، والأولى للعاقل اشتغاله بأمر دينه ودنياه وأن يترك الكذب ، وأن يسلم لأحكام الله وقضاه ، فإن العاقل يقرأ العواقب ، وعلى نفسه يحاسب : هذا شأن أهل الكمال ، يتركون القيل والقال ، ويشتغلون بإصلاح الأحوال ، ويرجعون إلى الكبير المتعال ، والسلام .

وفى هذا الشهر كتبوا أوراقاً بأوامر ، وصورتها .

من محفل الديوان العمومى إلى جميع سكان مصر وبولاق ومصر القديمة إننا قد تأملنا وميزنا أن الواسطة الأقرب والأيمن لتلطيف أو لمنع الخطر

الضرورى وهو تشويش الطاعون عدم المخالطة مع النساء المشهورات لأنهن الواسطة الأقرب للتشويش المذكور ، فلأجل ذلك حتمنا ورتبنا ومنعنا إلى مدة ثلاثين يوماً من تاريخه أعلاه لجميع الناس ان كان فرنساوياً أو مسلماً أو نصرانياً أو يهودياً من أى ملة كان . كل من أدخل إلى مصر أو بولاق أو مصر القديمة من النساء المشهورات إن كان فى

بيوت العسكر أو كل من كان داخل المدينة فيكون قصاصه بالموت كذلك من قبل النساء والبنات المشهورات بالعسكر إن دخلن من أنفسهن أيضاً يقاصصن بالموت .

ومن حوادث هذا الشهر أنه حضر إلى القلزم مركبان انكليزيان وقيل أربعة ووقفوا قبالة السويس وضربوا مدافع ففر أناس من سكان السويس إلى مصر وأخبروا بذلك وأنهم صادفوا بعض داوات تحمل البن والتجارة ، فحجزوها ومنعوها من الدخول إلى السويس .

ومنها أن طائفة من عرب البحيرة (وقيل يصحبهم) طائفة يقال لهم عرب الغزّ ، وجاءوا وضربوا دمنهور وقتلوا عدة من الفرنسيس وعاثوا فى نواحى تلك البلاد حتّى وصلوا إلى رشيد والرحمانية (وهم) يقتلون الفرنسيس وغيرهم وينهبون البلاد والزروعات ومنها أن الكيلانى المذكور آنفاً توفى إلى رحمة الله تعالى وتفرقت طائفته فى البلاد حتّى أنه حضر منهم جملة إلى مصر ، وكان أكثر من يخامر عليهم أهل بلاد الصعيد فيوهمونهم معاونتّهم وعند الحرب يتخلون عنهم وبعض البلاد يضيفهم ويسلط عليهم الفرنسيس فيقبضون عليهم .

ومنها أنه حضر إلى مصر الأكثر من عسكر الفرنسيس الذين كانوا بالجهة القبلية وضربوا فى حال رجوعهم بنى عدى بلدة من بلاد الصعيد مشهورة ، وكان أهلها ممتنعين عليهم فى دفع المال والكلف ويرون فى أنفسهم الكثرة والقوة والمنعة فخرجوا عليهم وقاتلوهم فملك عليهم الفرنسيس

تلاً عالياً وضربوا عليهم بالمدافع فأتلفوهم وأحرقوا جرونهم ثم كبسوا عليهم وأسرفوا فى قتلهم ونهبهم ، وأخذوا أشياء كثيرة وأموالا عظيمة وودائع جسيمة للغز وغيرهم من مساتير أهل البلاد القبلية لظن منعتهم وكذلك فعلوا بالميمون .

شهر ذى الحجة

استهل بيوم الثلاثاء فى ثانيه خرج نحو الألف من عسكر الفرنسيس للمحافظة على البلاد الشرقية لتجمع العرب والمماليك على الألفى وكذلك تجمع الكثير من الفرنسيس وذهبوا إلى جهة دمنهور وفعلوا بها كما فعلو فى بنى عدىّ من القتل والنهب ، وكان أشيع بمصر وتناقله الناس وثبت وجوده فى الخارج بعد ذلك أنه حضر إلى دمنهور رجل مغربى « يدعى المهدويه » وصحبته نحو الثمانين نفراً فكاتب أهل البلاد ودعا الناس إلى الجهاد ، فاجتمع عليه أهل البحيرة وغيرهم وحضروا إلى دمنهور وقاتلو من بها من الفرنسيس واستمر أياماً كثيرة تجتمع عليه أهل تلك النواحى وتفترق ويغرّب هو تارة ويشرّق ..

وفيه أشيع أن الألفى حضر إلى بلادالشرقية وقاتل من بها من الفرنسيس ثم ارتحل إلى الجزيرة وفى سابعه حضر جماعة من فرنسيس الشام إلى الكرنتيلة بالعادلية وفيهم مجاريح وأخبر عنهم بعضهم أن الحرب لم تزل

قائمة بينهم وبين أحمد باشا بعكا وأن مهندس حروبهم المعروف بأبي خشبة عند العامة واسمه كفرلى مات وحزنوا لموته لأنه كان من دهاتهم وشياطينهم وكان له معرفة بتدبير الحروب ومكايد القتال وإقدام عند المصاف مع ما ينضم لذلك من معرفة الأبنية وكيفية وضعها وكيفية أخذ القلاع ومحاصرتها .

وفى يوم الأربعاء كان عيد النحر وكان حقه يوم الخميس وعند الغروب من تلك الليلة ضربوا مدافع من القلعة إعلاماً بالعيد وكذلك عند الشروق ولم يقع فى ذلك العيد أضحية على العادة لعدم الأنعام وكونها محجوزة بالكرنتيلة والناس فى حزن وغم .

ومن الحوادث فى ذلك اليوم أن رجلا رومياً من باعة الرقيق عنده غلام مملوك ساكن فى طبقة بوكالة زين« ذى »الفقار بالجمالية خرج لصلاة العيد ورجع إلى طبقته فوجد ذلك الغلام متقلداً بسلاح ومتزيياً بمثل ملابس الغليونجية فقال له : من أين لك هذا السلاح واللباس؟ فقال : من عند جارنا فلان العسكرى فأمره بنزع ذلك فلم يستمع له ولم ينزعها فشتمه ولطمه على وجهه وخرج من الطبقة وحدثته نفسه بقتل سيده ورجع يريد ذلك فوجد عند سيده ضيفاً فلم يتجاسر عليه لحضور ذلك الضيف فوقف خارج الباب ورآه سيده فعرف من عينه الغدر فلما قام ذلك الضيف قام معه وخرج وأغلق الباب على الغلام فصعد إلى السطح وتسلق إلى سطح آخر ثم تدلى بحبل إلى أسفل الخان وخرج

إلى السوق وسيفه مسلول بيده ويقول نصر الجهاد يا مسلمين اذبحوا الفرنسيس ونحو ذلك من الكلام ومرّ إلى جهة الغورية فصادف ثلاثة أشخاص من الفرنسيس فقتل منهم شخصاً وهرب الاثنان ورجع على أثره والناس يعدون خلفه من بعد إلى أن وصل إلى درب بالجمالية غير نافذ فدخله وعبر إلى دار وجدها مفتوحة وربها واقف على بابها والفرنسيس تجمع منهم طائفة وظنوا ظناً آخر وبادروا إلى القلاع وحضر منهم طائفة مع القلق يسألون عن ذلك المملوك وهاجت العامة ورمحت الصغار وأغلق بعض من كان فاتحاً فى هذا اليوم حانوته ثم لم تزل الفرنسيس تسأل عن المملوك والناس يقولون ذهب من هنا حتى وصلوا إلى ذلك الدرب فدخلوه فلما أحس بهم نزع ثيابه وتدلى ببئر فى تلك الدار فدخلوا الدار وأخرجوه من البئر وأخذوه وسكنت الفتنة فسألوه عن أمره وما السبب فى فعله ذلك فقال انه يوم الأضحية فأحببت أن أضحى على الفرنسيس وسألوه عن السلاح فقال انه سلاحى فحبسوه لينظروا فى أمره وطلبوا سيده فوجدوه عند الشيخ المهدى فأخذوا بعض جماعة من أهل الخان ثم أطلقوهم بدون ضرر وأخذوا سيده من عند الشيخ المهدى وحبسوه وحضر الأغا وبرطلمين إلى الخان بعد العشا وطلبوا البواب والخانجى والجيران وصعدوا إلى الطباق وفتشوا على السلاح وقلعوا البلاط فلم يجدوا شيئاً وأرادوا فتح الحواصل ليتوصلوا لنهبها فمنعهم أحمد بن محمود محرم التاجر فخرجوا وأخذوا معهم الخانجى وجيران الطبقة تتمة سبعة أنفار وحبسوهم أيضاً وقتلوا المملوك فى ثانى يوم واستمر الجماعة فى الحبس إلى أن أطلقوهم بعد أيام عديدة

من الحادثة . وفى ذلك اليوم أيضاً مرّ نصرانى من الشوام على المشهد الحسينى وهو راكب على حمار فرآه ترجمان « قلق » الخطة ويسمى السيد عبد الله فأمره بالنزول إجلالا للمشهد على العادة فامتنع فانتهره وضربه وألقاه إلى الأرض فذهب ذلك النصرانى إلى الفرنسيس وشكا إليهم من السيد عبد الله المذكور فأحضروه وحبسوه فشفع فيه مخاديمه ، فلم يطلقوه وادعى النصرانى أنه كان بعيداً عن المشهد وأحضر من شهد له بذلك وأنه ضاع له وقت ضربه إياه دراهم كانت فى جيبه واستمر الترجمان محبوساً عدة أيام حتى دفع تلك الدراهم وهى ستة آلاف درهم .

وفيه أرسل فرنسيس مصر إلى فرنسيس الشام ميرة على جمال العرب نحو الثلاثمائة حمل وذهب صحبتها برطلمين وطائفة من العسكر فأوصلوها إلى بلبيس ورجعوا بعد يومين وفيه حضر إلى السويس تسع داوات بها بن وبهار وبضايع تجارة وفيها لشريف مكة خمسمائة فرق وكانت الإنجليز منعهم عن الحضور فكاتبهم الشريف فأطلقوهم بعد أن حددوا عليهم أياماً مسافة التنقيل والشحنة وأخذوا منهم عشوراً وسامح الفرنسيس ابن الشريف عن العشور لأنه أرسل لهم مكاتبة بسبب ذلك وهدية قبل وصول المراكب إلى السويس بنحو عشرين يوماً وطبعوا صورتها فى أوراق ولصقوها بالأسواق وهى خطاب لبوسليك[1] وصورته من الشريف غالب بن مساعد شريف مكة المشرفة إلى عين أعيانه وعمدة إخوانه

---

(١) Boussielgue مدير الإدارة المالية .

بوسليك مدبر أمور جمهور الفرنساوية ممهد بنيان السياسة بسداد همته الوفية ، وبعد ، فإنه وصل إلينا كتابك وفهمنا كامل ما طواه خطابك مما ذكرت من وصول قنجتنا ، وانك أرسلت هجاناً برفع العشور عن البن ، وبذلت الهمة فى شأن التصرف فى نفاذ بيعه وتأملنا فى كتابك فوجدنا من صدق مقاله ما أوجب تمسكنا بوثاق الاعتماد عن تموه غياهب الشك فى كل المراد ووجب الآن علينا تكوين أسباب المصادقة والمبادرة فيما ينظم مهمات تسليك الطرق بيننا وبينكم عن الوعث وزوال المناكرة وشهلنا الآن إلى طرفكم خمسة مراكب مشحونة من نفس بندرنا جدة المعمورة فى هذا الأوان ولا أمكن لنا خروج هذا المقدار إلا بأشد علاج مع سلب اطمئنان التجار لأن كثرة أكاذيب الأخبار أوجبت لهم مزيد الارتياب والأعذار بحيث ما بيننا وبينكم إلا العربان المختلفة رواياتهم على مر الأزمان وأما نحن فقد جاءتنا منكم قبل هذه المكاتيب التى أوجبت عندنا من خطاب كتبكم زوال تلك الظنون والأكاذيب فخاطرنا مستقر بالطمأنينة من قبلكم لما ثبت عندنا من ألفاظ كتبكم ، والمطلوب فى حال وصول كتابنا إليكم إرسال عسكر من لديكم إلى بندر السويس لأجل حفظ أموال الناس وليصلوا بالأبنان إلى مصر ويبيعوا التجار ويزول وقف الأسباب والباس وأن تهتموا فى رجوعهم كذلك قبل باوان ليكون ذلك سبباً فى كثرة وفود الأبنان وعند رجوعهم بعد المبيع من مصر إلى السويس كذلك تصحبوهم بالعسكر من طرفكم الوثيق ليكونوا محافظين لهم من شرور الطريق لأن هذه المرة ما أرسل إليكم هذا المقدار إلا تجربة

واستخباراً من أعيان التجار وعند مشاهدة الإكرام والاحتفال بهم في كل حال يرسلون إليكم نفائس أموالهم ويهرعون بالجلب لطرفكم ويزول الريب عن قلوبهم ونرجو الله بهمتنا تسليك الطرقات وتنجيح المطالب وتحصيل الميراث بأحسن مما كانت من الأمان وأعظم مما سبق فى غابر الأزمان ويكثر بحول الله الوارد إليكم من الأسباب الحجازية وكذلك لنا بن فى الراكب فمأمولنا منكم إلقاء النظر على خدامنا وبذل الهمة على ما هو من طرفنا وأنتم كذلك لكم عندنا مزيد الإكرام فى كل مرام ولا يخفاك أنه ورد علينا قبل بأيام كتب من طرف أمير العسكر الفرنساوى محبنا بونابرته فما كان لنا منها فتأملناه وصار إليه الجواب توصله إليه وما كان منها معول فى إرساله علينا إلى نواحى الهند وابن حيدر وإمام مسكت ووكيلكم الذى فى المخا فجميعاً صدرناها مع من نعتمده إلى أربابها وإن شاء الله عن قريب يأتيكم الجواب والسلام .

تحريراً فى ثمانية عشر شهر ذى القعدة سنة ١٢١٣ .

وفى آخره وقد وصل هذا الجواب لمصر فى ١٦ شهر الحجة فيكون مدة وصوله من مكة المشرفة إلى مصر ثمانية وعشرين يوماً .

وانقضى هذا الشهر ولم يأت خبر صحيح عن فرنسيس الشام وما جرى لهم أو عليهم إلا روايات لا يوثق بها ولا يصح بالتواتر منها إلا تكرر هجوم الأفرنج على حصن عكا ولم يتركوا من حيلهم ومكايدهم شيئاً

إلا فعلوه ولم ينالوا غرضاً منها ومكروا ومكر الله والله خير الماكرين وانقضت هذه السنة وما تجدد بها من الحوادث التى من أعظمها امتناع سفر الحج من مصر ولم يرسلوا الكسوة ولا الصرة وذلك من أشنع الحوادث التى لم يتفق نظيرها فى دولة آل عثمان أبداً ولا حول ولا قوة إلا بالله العلى العظيم .

ثم دخلت سنة أربع عشرة ومائتين وألف

استهل المحرم بيوم الأربعاء فيه حضر جماعة من الفرنسيس إلى العادلية فضربوا خمسة مدافع لقدومهم واختلفت الأخبار .

فلما طلع نهار الخميس عملوا الديوان وأبرزوا مكتوباً مترجماً ، ونصه :

صورة جواب من العرضى قدام عكا فى ٢٧ شهر « فريبال » الموافق الحادى عشر شهر الحجة سنة ١٢١٣ بونابرته صارى عسكر أمير الجيوش الفرنساوية إلى محفل ديوان مصر نخبركم عن سفره من بر الشام إلى مصر فإنى لغاية العجلة بحضورى لطرفكم نسافر بعد ثلاثة أيام من تاريخه ونصل إلى عندكم بعد خمسة عشر يوماً وجايب معى جملة محابيس بكثرة وبيارق ، ومحقت سراية الجزار وسور عكا وبالقنبر هدمت البلد ما أبقيت فيها حجراً على حجر وجميع سكانها انهزموا من البلد فى طريق البحر ، الجزار مجروح ودخل بجماعته داخل برج من ناحية البحر وجرحه

بايغ لخطر الموت من جملة ثلاثين مركبا موثوقة عساكر الذي « إجوا » حضروا يساعدون الجزار ثلاثة غرقت من كثرة مدافع مراكبنا وأخذنا منها أربعة موثوقة مدافع والذى أخذ هذه الأربعة فرقاطة من « بتوعنا » والباقى « تلفوا » « واتبهدلوا » والغالب منهم « عدم » ، وإنى لغاية الشوق إلى مشاهدتكم لأنى بشوف إنكم عملتم غاية جهدكم من كل قلبكم لكن جملة فلاتية دايرين بالفتنة لأجل ما يحركون الشر فى وقت دخولى كل هذا يزول مثل ما يزول الغيم عند شروق الشمس و « منتورة » مات من تشويش هذا الرجل صعب علينا جداً والسلام . ومنتورة هذا ترجمان «صارى عسكر » وكان لعيناً متحركاً متملقاً[1] ويعرف اللغات التركية والعربية والرومية والطليانى والفرنساوى .

وفى يوم الثلاثاء سابعه حضر جماعة أيضاً من العسكر بأثقالهم وحضرت مكاتبة من كبير الفرنسيس أنه وصل إلى الصالحية وأرسل دوجا الوكيل ونبه على الناس بالخروج لملاقاته بموجب ورقة حضرت من عنده يأمر بذلك .

فلما كان ليلة الجمعة عاشره أرسلوا إلى المشايخ والوجاقات وغيرهم فاجتمعوا بالأزبكية وقت الفجر بالمشاعل ودقت الطبول وحضر الحكام والقلقات بمواكب وطبول وزمور ونوبات تركية وطبول شامية وملازمين وجاويشية وغير ذلك ، وحضر الوكيل وقايم مقام وأكابر عساكرهم

---

(١) تغير هذا الوصف فى تاريخه العام فكان كما يلى : (وكان لبيباً متبحراً) ج٣ ص٦٨

وركبوا جميعاً بالترتيب من الأزبكية إلى أن خرجوا إلى العادلية فقابلوا كبير الفرنسيس « بونابرت » هناك وسلموا عليه ودخل معهم إلى مصر من باب النصر بموكب هايل بعساكرهم وطبولهم وزمورهم وعرباتهم نسائهم وأطفالهم فى نحو خمس ساعات من النهار إلى أن وصل إلى داره بالأزبكية وانفض الجمع وضربوا عدة مدافع عند دخولهم المدينة وقد تغيرت ألوان العسكر القادمين واصفرت أبدانهم وقاسوا مشقة عظيمة من الحر والتعب ، ولم يظفروا بمقصودهم من أحمد باشا ولله الحمد ورجعوا من غير طائل وأقاموا على حصار عكا أربعة وستين يوماً حرباً مستديمة ليلا ونهاراً ، وأبلى أحمد باشا وعسكره بلاء حسناً وقد نظم ذلك فى قصيدة الأديب اللبيب والفاضل النجيب السيد على الصيرفى الرشيدى نزيل عكا المحروسة فقال من بحر الخفيف :

كم لربى على الورى من أيادى ... دون إحصا بالحد والتعداد

كم أتتنا ألطافه تتوالى ... باهرات بنورها الوقاد

ووقانا خطوب دهر تعامى ... وحمانا من الكروب الشداد

وكفانا شرور من آذانا ... وأذاق العدو أشراب البعاد

حين جاءت جموع شرك فرنج ... ثم جالوا فى مصر بالإفساد

أخذوها والمسلمون نيام ... ليس فيهم مستيقظ من رقاد

صار كلب اللئام يلعب فيهم ... ما رأوا زاجراً لهم عن عناد

واستطالوا على الورى بفجور ... وطغوا مثل ما طغت قوم عاد

عمه عمهم بطغيان كفر والعمى قد رماهم فى المصاد
ولهم زين اللعين فعالا ركبوها حتى بغوا للنكاد
وأراهم قبيحهم حسن قصد نحو عكا ذات السعود البادى
فاستعدوا لها بآلات حرب ورجال كثيرة كالجراد
خيموا حولها بجيش وجيش ومتاريس ضاق منها الوادى
أشبهوا قوم صالح فى فعال ينحتون الجبال لاستعداد
فى حصون من التراب تراهم شيدوها بقوة وعماد
فكأن الجن الشياطين فيهم يسرعون الأعمال عند التناد
حاصروها وشددوا فى حصار واستمدوا بكل نوع مراد
وأتوها والجند فيها قليل غير أن الكريم ذو أمداد
فاذكروا « كم من فئة » واقرأوها فهى نص لنا صريح المقاد
ثم دارت رحى الحروب لدينا بضروب مدامة الترداد
كل يوم وليلة فى رعود وبروق من غيم ذاك العادى
كم نهار أضحى كليل بهيم من دخان الوغى غدا فى ازدياد
كم نحرنا أيام نحر رقابا من فرنج أتت بلا ميعاد
وسقينا من الدماء سيوفا فتروى من سيلها كل صادى
ومعالى بروجنا عرفات كم وقفنا بها على المرصاد
ومطاف الأسوار فيه طواف لجيوش بمبدإ ومعاد
كم تلبى تلك الجيوش لداع مسرعين الجهاد بالاجتهاد

ورجال الإسلام تنصر دوما والردى لاحق لتلك العوادى
وتطير الرءوس من أهل شرك وتسيل الدماء ملء الوادى
وكرامات أولياء تبدت شاهدتها أهل الضيا والسواد
ورجالا قد عاينوها طوالا قاتلوهم بحضرة وبوادى
ما سمعنا ولا رأينا كهذا فى عصور تقدمت أو بلاد
خر من هيبة الجلال جبال من بروج رفيعة الانجاد
سيما ما علا ببرج على من حرور الحروب والايقاد
وتداعت أسوارنا لانخفاض واكتست رقعة بقوم جياد
خربوها وإنما خربوا أعمارهم مما قد جنوا بالأيادى
قطعوا الأشجار فكان جزاهم قطع أعناقهم بسيف الحصاد
وإذا ما احتالوا بمكر وكيد عاد حقا عليهم بالفساد
حفروا حفرة فصارت قبوراً لجسوم لهم ذوي أبعاد
ورأوا من حروب عكا كروبا دمرتهم وعلقت فى الجياد
بلدة حصنها التوكل والتو حيد فيها فكيف ظفر الأعادى
دخلوها لأجل آجالهم إذ حل فيهم سيوف أهل الجهاد
كيف يسطو العدا عليها بأخذ وهو أقسى من خرطهم للقتاد
جز فيها الجزار أعناق كفر أحمد الفعل عارف بالسداد
ذو اهتمام بحفظ دين وعرض ذو أيادى سريعة للمنادى
عنتر القوم يا فتى لو رآه لتوارى كالذئب من أماد

مستمداً من الإله انتصارا	مستديماً على العلا باعتماد
قوم الدين بعد ما اعوج منا	وأقام المنقض من أوتاد
فهو ذاك المبعوث فى رأس قرن	طبق ما أخبر الشفيع الهادى
لو ترى صبره بمدة حصر	قلت هذا أقوى من الأطواد
أحسن الصبر والثبات يقينا	فهو ألف والغير كالآحاد
كم تفر الأبطال من كرب حرب	وهو بالسيف سائق الأجناد
وينادى أيا رجال عليهم	لا تخافوا من نار ذاك النادى
فيبيد الكفار قتلا وأسرا	ويعودون بالردي كالرماد
خاب مسعاهم ببر وبحر	وشقاهم أتى بقطع المداد
فأقاموا من ثالث عشر	فدخلت من شوالنا بالنفاد ؟
واستداموا لسادس بعد عشر	من ختام الشهور بعد الحادي
عمر سد ؟ قد دام حرب وحصر	ثم جاد الكريم رب العباد
وأتى النصر من قريب مجيبـــا	مسرعاً بالسرور والإسعاد
أعجب الناس من غرائب نصر	لم يكن فى ظنونهم متبادى
بينما ليلة الثلاث سهارى	إذ أتانا أخبار ذى الإلحاد
هربوا خفية بايل وقاموا	مسرعين الهروب بالأنكاد
بتماويب مماوءة كل رعب	وعيون بيض بغير سواد
وتخاوا عن السلاح وما يثـ	قلهم خيفة من الإجهاد
والمجاريح منهم ثم قتلا	هم لقد فاقت جملة الأعداد

فعدونا وقد رأينا عجابا ... من قبيح الإصدار والإيراد
وانجلت ظلمة الشرور وجاءت ... بهجة النور والهدى والرشاد
زهق الباطل الذى ارتكبوه ... حين جاء الحق القوى باعتقاد
ويح أرض تدنست بلحوم ... من فرنسا وبين أهل العناد
لم ينالوا من المدينة إلا ... كسبهم عارهم مدى الآماد
وكفى الله المؤمنين قتالا ... وهدانا فنعم مولى هادى
برج عكا نص الحديث عليه ... إن فيه ملاحما باشتداد
وهى كبرى ومن مناقب فرد ... قائم بالجماعة الأفراد
فحمدنا إلهنا عز شأنا ... وشكرنا لفضله المتمادى
وسألناه أن يتمم نصرا ... بفتوح لمصر ذات المهاد
ويعين المسعود بالسعد فيها ... ويعز الإسلام من ذا الجواد
بنبى محا الضلالة بحق ... وحماه الإله من حساد
فعليه الصلاة ثم سلام ... وعلى الآل سادة أمجاد
سعد عكا نادي لها أرخوها ... فيك سر ونصرة للبلاد

قال صاحبنا المشار إليه ؛ وكان هذا الناظم ممن ينظم بسليقته لا بمعرفته فى العروض ودربته فقد استعمل فى بحره الذى نظم عليه من الممتنعات عند العروضيين ما كدر صفوه ، (ووضع القوافى فى غير مواضعها) مما جعل لها مزيد النفار والنبوة .

وها أنا منبه على ما ارتكبه من الممتنع عند العروضيين : فمنها أنه استعمل

التشعيث فى العروضة فى غير ما موضع من القصيدة ، وهذه العلة إنما تقع فى الضرب أو العروضة فى حالة التصريع ؛ ومنها أنه استعمل غير مرة مستفع لن المفروق الوتد فأدخل فيه زحاف الطى فنقل إلى مفتعلن ، والحال أن الذى من مواضع الطى هو مجموع الوتد لا مفروقه لما يلزم من دخول الزحاف فى الأوتاد ومواضع الزحاف هو الأسباب ليس إلا ؛ فهذا مما لم يقل به أحد من العروضيين ، ولم يقع فى شعر العرب ولا المولدين من المتقدمين والمتأخرين إلى قتنا هذا إلا فى شعر غير عارف بالموازين ؛ وأما استعماله القوافى فى غير موضعها فهو جلى لكل فطن عنده أدنى إلمام باللغة والصرف ، ولو أردت انتقاده لطال الكلام ، وفوت عنا الغرض فى هذا المقام ؛ ثم هو قد مدح مخدومه أحمد باشا الجزار ، وهو بهذا المدح حقيق ، لكونه جاهد فى الدين حق الجهاد فأرغم العدو وأسر الصديق ؛ ومن الواجب على ، والمتحتم لدى ، أن أمدح مولانا الوزير أبقاه الله شكراً على نعمة فتوح مصر التى أجراها الله على يديه واختاره لهذه المنقبة الشريفة الرفيعة الذكر فى الدنيا والمضاعفة الثواب فى الأخرى لديه ، واستنقاذنا من أسر أولئك الكفرة اللئام ، ورد شمل المسلمين بعد الصدع إلى الانتظام والالتئام ؛ وسأذكر ذلك فى موضعه بعد هذا الكتاب مجاريا لهذه القصيدة فى وزنها ورويها ليظهر الفرق بين أرباب الألباب .

وفيه : قبضوا على إسماعيل القلق الحربطلى وهو المتولى كتخدا الغرب وكان ساكناً بخط الجمالية وأخذوا سلاحه وأصعدوه إلى القلعة وحبسوه

والسبب فى ذلك أنه عمل فى تلك الليلة وليمة ودعا أصدقاءه وأحبابه وآلات اللهو والطرب وبات سهراناً بطول الليل فلما كان آخر الليل غلب عليهم السهر والسكر فناموا إلى ضحوة النهار وتأخر عن حضور ملاقاة الفرنسيس فلما أفاق ركب ولاقاهم عند باب النصر ، فنقموا عليه ذلك وحبسوه كما ذكر ، ولما وصل كبير الفرنسيس إلى داره بالأزبكية تجمع هناك أرباب الملاهى والبطالات وطوائف الرميلاتية ورعاع العالم من الحرافيش ، وأكلة الحشيش ، وملاعبين القرود والحواة والنساء الرقاصات والخلابيص والمراجيح وأمثال ذلك كتجمعهم أيام الأعياد والمواسم واستمروا على ذلك ثلاثة أيام وفى كل يوم تعمل الفرنسيس شنكا ومدافع وحراقة وسواريخ ونفوط ثم انصرفوا بعد ما أعطاهم دراهم .

وفيه عزلوا دستان قائم مقام وتولى عوضه دوجا الذى كان وكيلا عن صارى عسكر وتهيأ المعزول للسفر إلى جهة بحرى وأصبح مسافراً وصحبته نحو الألف من العسكر وسافر أيضاً منهم طائفة إلى البحيرة .

وفيه طلبوا من طوائف النصارى دراهم سلفة مقدار مائة وعشرين ألف ريال وفى خامس عشرة أرسلوا إلى زوجات حسن بيك الجداوى وختموا على دورهن ومتاعهن وطلبوهن بالمال وذلك بسبب أن حسن بيك التف على مراد بيك وصار يقاتل الفرنسيس معه وقد كانت الفرنسيس كاتبت حسن بيك وامنته وأقرته على ما بيده من البلاد وأن لا يتحالف ويقاتل مع الأخصام فلم يقبل منهم ذلك فلما وقع للنساء

ذلك ذهبن إلى المهدى ووقعن عليه فصالح عليهن بمبلغ ثلاثة آلاف ريال فرانسة .

وفى تاسع عشره هلك ميخائيل كحيل النصرانى الشامى وهو من رجال الديوان الخصوصى فجأة وذلك لقهره وغمه ، ومنشأ ذلك أنه وزع عليه فى سلفه الفرنسيس ستة آلاف ريال فرانسة وشرع فى تحصيلها ثم بلغه أن أحمد باشا الجزار قبض على شريكه بالشام وأخذ ماله جميعه فورد عليه الخبر وهو جالس يتحدث مع إخوانه حصة من الليل فخرجت روحه فجأة .

وفيه كتبوا أوراقاً وطبعوها وألصقوها بالأسواق كعادتهم وذلك بعد أن رجعوا من الشام واستقروا فنمقوا ذلك بترصيف بعض الفصحاء ، ونصها :

من محفل الديوان الخصوصى بمحروسة مصر خطاباً لأقاليم الشرقية والغربية والمنوفية والقليوبية والجيزة والبحيرة ، النصيحة من الإيمان ، قال تعالى فى محكم القرآن (ولا تتبعوا خطوات الشيطان) وقال تعالى (ولا تطيعوا أمر المسرفين الذين يفسدون فى الأرض ولا يصلحون) فعلى العاقل أن يتدبر الأمور ، قبل أن يقع فى المحذور ، نخبركم معاشر المؤمنين أنكم تسمعوا كلام الكذابين ، فتصبحوا على فعلتم نادمين ، وقد حضر إلى محروسة مصر المحمية ، أمير الجيوش الفرنساوية ، حضرة بونابرتة محب الملة المحمدية ، ونزل بعسكره فى العادلية سليماً من العطب والأسقام ،

ودخل إلى مصر من باب النصر يوم الجمعة فى موكب عظيم وشنك فخيم وصحبته العلماء والوجاقات السلطانية وأرباب الأقلام الديوانية ، وأعيان التجار المصرية ، وكان يوماً عظيماً مشهوداً وخرجت أهل مصر لملاقاته فوجدوه هو الأمير الأول بذاته وصفاته وظهر لهم أن الناس يكذبون عليه شرح الله صدره للإسلام والذى أشاع عنه الأخبار الكاذبة العربان الفاجرة والغز الهاربة ومرادهم بهذه الإشاعة هلاك الرعية وتدمير أهل الملة الإسلامية وتعطيل الأموال الديوانية لا يحبون راحة العبيد وقد أزال الله دولتهم من شدة ظلمهم (إن بطش ربك لشديد) وقد بلغنا أن الألفى توجه إلى الشرقية مع بعض المجرمين من عربان بلى والعيايدة الفجرة المفسدين يسفون فى الأرض بالفساد وينهبون أموال المسلمين (إن ربك لبالمرصاد) ويزوّرون على الفلاحين المكاتيب الكاذبة ويدعون أن عساكر السلطان حاضرة ، والحال أنها ليست بحاضرة فلا أصل لهذا الخبر ولا صحة لهذا الأثر وإنما مرادهم وقوع الناس فى الهلاك والضرر ، مثل ما كان يفعل إبراهيم بيك فى غزّة حين كان ، ويرسل فرمانات بالكذب والبهتان ويدعى أنها من طرف السلطان ويصدقوه أهل الأرياف خسفاء العقول ولا يقرءون العواقب ، فيقفون فى المصائب ؛ وأهل الصعيد طردوا الغز من بلادهم خوفاً على أنفسهم وهلاك عيالهم وأولادهم فإن المجرم يؤخذ مع الجيران وقد غضب الله على الظلمة ونعوذ بالله من غضب العربان ، فكانوا أهل الصعيد أحسن عقلا من أهل بحرى بسبب هذا الرأى السديد ونخبركم

أن أحمد باشا الجزار سمّوه بهذا الاسم لكثرة قتله الأنفس ولا يفرق بين الأخيار والأشرار ، وقد جمع الطموش الكثيرة من العسكر والغز والعرب وأسافل العشيرة وكان مراده الاستيلاء على مصر وأقاليمها ، وأحبوا اجتماعهم عليه لأخذ أموالها وهتك حريمها ، ولكن لم تساعده الأقدار والله يفعل ما يشاء ويختار ، وقد كان أرسل بعض هذه العساكر إلى قلعة العريش ومراده أن يصل إلى قطيا فتوجه حضرة صارى عسكر أمير الجيوش الفرنساوية وكسر عسكر الجزار الذين كانوا فى العريش ونادوا الفرار الفرار بعد ما حصل بعسكرهم من القتل والدمار وكانوا نحو ثلاثة آلاف وملك قلعة العريش وأخذ غزّة وهرب من كان فيها وفروا ، ولما دخل غزّة نادى فى رعيتها بالأمان وأمر بإقامة الشعائر الإسلامية وأكرم العلماء والتجار والأعيان ثم انتقل إلى الرملة وأخذ ما فيها من بقسماط وأرز وشعير وقرب أكثر من ألفين قربة عظام كبار كان جهزها الجزار لذهابه إلى مصر ، ثم توجه إلى يافا وحاصرها ثلاثة أيام ثم أخذها وأخذ ما فيها من ذخائر الجزار بالتمام ، ومن نحوسات أهلها أنهم لم يرضوا بأمانه ولم يدخلوا تحت طاعته وإحسانه فدور فيهم السيف من شدة غيظه وقوة سلطانه وقتل منهم أربعة آلاف أو يزيدون بعد ما هدم سورها وأكرم من كان بها من أهل مصر وأطعمهم وكساهم وجهزهم فى المركب إلى مصر وغفرهم بعسكره خوفاً من العربان وأجزل عطاياهم وكان فى يافا نحو خمسة آلاف من عسكر الجزار هلكوا جميعاً وبعضهم ما نجاه إلا الفرار ،

ثم توجه من يافا إلى جبل نابلس فكسر من كان فيها من العساكر بمكان يقال له قاقوم ، وحرق خمسة بلاد من بلادهم وما قدر كان ، ثم أخزب سور عكا وهدم قلعة الجزار التى كانت حصينة لم يبق فيها حجر على حجر حتى أنه يقال كان هناك مدنية وقد كان بنى حصارها وشيد بنيانها فى نحو عشرين من السنين وظلم فى بنيانها عباد الله ، وهكذا عاقبة بنيان الظالمين ، ولما توجه إليه أهل بلاد الجزار من كل ناحية كسرهم كسرة شنيعة فهل ترى لهم من باقية نزل عليهم كصاعقة من السماء ثم توجه راجعاً إلى مصر المحروسة لأجل شيئين :

الأول أنه وعدنا برجوعه إلينا بعد أربعة أشهر والوعد عند الحر دين

والسبب الثانى أنه بلغه أن بعض المفسدين من الغز والعربان يحركون فى غيابه الفتن والشرور فى بعض الأقاليم والبلدان فلما حضر سكنت الفتنة وزالت الأشرار والفجرة من الرعية وحبه لمصر واقليمها شىء عجيب ورغبته فى الخير لأهلها ونيلها وزرعها بفكره وتدبيره المصيب ويرغب أن يجعل فيها أحسن التحف والصناعة ، ولما حضر من الشام أحضر معه جملة من الأسارى من خاص وعام وجملة مدافع وبيارق اغتنمها فى الحروب من الأعداء والأخصام ، فالويل كل الويل لمن عاداه والخير كل الخير لمن والاه ، فسلموا يا عباد الله ، وارضوا بتقدير الله ، وامتثلوا لأحكام الله ، ولا تسعوا فى سفك دمائكم ، وهتك عيالكم ، ولا تسببوا فى نهب أموالكم ، تسمعوا كلام الغز الهربانين الكاذبين ،

ولا تقولوا : إن فى الفتنة إعلاء كلمة الدين حاشا لله لم يكن فيها إلا الخذلان وقتل الأنفس وذل أمة النبي عليه السلام والغز والعربان يطعمونكم ويغرونكم لأجل أن يضروكم فينهبوكم وإذا كانوا فى بلد وقدمت عليهم الفرنسيس فروا هاربين منهم كأنهم جند ابليس ولما حضر صارى عسكر إلى مصر أخبر أهل الديوان من خاص وعام أنه يحب دين الإسلام ويعظم النبي عليه السلام ، ويحترم القرآن ويقرأ منه كل يوم بإتقان ، وأمر بإقامة شعائر المساجد الإسلامية وإجراء خيرات الأوقاف السلطانية وأعطى عوائد الوجاقاية وسعى فى حصول أقوات الرعية ، فانظروا هذه الألطاف والمزية ببركة نبينا أشرف البرية وعرفنا أن مراده أن يبنى لنا مسجداً عظيماً بمصر لا نظير له فى الأقطار ، وأنه يدخل فى دين النبي المختار عليه أفضل الصلاة وأتم السلام انتهى .

وفى ثانى عشرين أرسل كبير الفرنسيس جماعة من العسكر وقبضوا على ملا زاده بن قاضى العسكر ، ونهبوا بعضاً من ثيابه وكتبه ، وطلعوا به إلى القلعة وحبسوه فانزعج عياله وحريمه ووالدته انزعاجاً شديداً .

وفى صبحها اجتمع أرباب الديوان بالديوان وحضر إليهم ورقة من كبير الفرنسيس قرئت عليهم ، مضمونها أن صارى عسكر قبض على ابن القاضى وعزله وأنه وجه إليكم أن تقترعوا وتختاروا شيخاً من العلماء ويكون من أهل مصر ومولوداً بها يتقلد القضاء ويقضى بالأحكام الشرعية كما كانت الملوك المصرية يولون القضاء برأى العلماء للعلماء فأجاب

الحاضرون بقولهم : إننا جميعاً نتشفع ونترجى عنده فى العفو عن ابن القاضى فإنه إنسان غريب ومن أولاد الناس الصدور وإن كان والده وافق كتخدا الباشا فى فعله فولده مقيم تحت أمانكم والمرجو إطلاقه وعوده إلى مكانه فإن والدته وجدته وعياله فى وجد وحزن عظيم عليه وصارى عسكر من أهل الشفقة والرحمة . وتكلم الشيخ السادات بنحو ذلك وزاد فى القول بأن قال أيضاً إنكم تقولون : دائماً إن الفرنساوية أحباب العثمانلية ، وهذا ابن القاضى من طرف العثمنلى فهذا الفعل مما يسيء الظن بالفرنساوية ويكذب قولهم وخصوصاً عند العامة فأجاب الوكيل بعد ما ترجم له الترجمان بقوله لا بأس بالشفاعة ولكن بعد تنفيذ أمر صارى عسكر فى اختيار قاضى خلافه وإلا تكونوا مخالفين ويلحقكم الضرر بالمخالفة ، فامتثلوا وعملوا القرعة فطلعت الأكثرية باسم الشيخ أحمد العريشى الحنفى ثم كتبوا عرض حال بصورة المجلس والشفاعة وكتب عليه الحاضرون وذهب به الوكيل إلى كبيرهم وعرفه بما حصل فتغير خاطره على الشيخ السادات وأمر بإحضاره فى عصريتها فلما حضر لامه وعاتبه ، فتكلم بينهما الشيخ المهدى ووكيل الديوان الفرنساوى حتى سكن غيظه وأمره بالانصراف إلى منزله بعد أن عوق حصة من الليل .

فلما أصبح يوم الجمعة عملوا جمعية فى منزل دوجا قايم مقام وركبوا صحبته إلى بيت صارى عسكر ومعهم الشيخ أحمد العريشى فألبسه فروة مثمنة ، وركبوا جميعاً إلى بيت القاضى بين القصرين ووعدهم بالإفراج

عن ابن القاضى بعد أربع وعشرين ساعة وقد كان عياله انتقلوا إلى دار السيد أحمد المحروقى التاجر .

ولما كان فى ثانى يوم أفرجوا عنه ونزل إلى عياله وصحبته أرباب الديوان والأغا ومشوا معه فى وسط المدينة ليراه الناس ويبطل القيل والقال .

وفيه كتبوا أوراقاً وبصموا منها نسخاً ولصقوها بالأسواق ونصها :

جواب إلى محفل الديوان من حضرة صارى عسكر الكبير بونابرته أمير الجيوش الفرنساوية محب أهل الملة المحمدية خطاباً إلى السادات العلماء ، أنه وصل لنا مكتوبكم من شأن القاضى نخبركم أن القاضى لم أعزله وإنما هو هرب من اقليم مصر وترك أهله وأولاده وخان صحبتنا من المعروف والإحسان الذى فعلناه معه ، وكنت استحسنت أن ابنه يكون عوضاً عنه فى محل الحكم فى مدة غيبته ويحكم بدله ولم يكن ابنه قاضياً متولياً للأحكام على الدوام لأنه صغير السن ليس هو أهلا للقضاء فعلمتم أن محل حكم الشريعة خالى الآن من قاضى شرعى ، واعلموا أنى لا أحب مصر خالية من حاكم شرعى يحكم بين المؤمنين فاستحسنت أن يجتمعوا على الإسلام ويختاروا باتفاقهم قاضياً شرعياً من علماء مصر وعقلائهم لأجل موافقة القرآن العظيم باتباع سبيل المؤمنين ، وكذلك مرادى أن حضرة الشيخ العريشى الذى اخترتوه جميعاً أن يكون لابساً من عندى وجالساً فى المحكمة وهكذا كان فعل الخلفاء فى العصر الأول باختيار جميع المؤمنين وأخبركم أنى تلقيت ابن القاضى بالمحبة والإكرام

لما حضرلى وقابلنى ولم أزل لهذا الوقت أكرمه ولم أحب أن يضرّه أحد حكم أماننا له ، ولما ،فعناه إلى القلعة نريد ضرره رفعناه مكرماً مثل ما يكون فى بيته بالراحة والإكرام ، وسبب ما رفعناه إلى القلعة لسكون الفتن والإصلاح بين الناس وبعد لبس القاضى الجديد وجلوسه فى محل الحكم مرادى أطلق ابن القاضى وانزله من القلعة وأردّ له كامل تعلقاته وأطلق سبيله هو ، وعياله يتوجهوا حيث أرادوا باختيارهم لأنه فى أمان وتحت حمايتى وأعرف أن أباه ما كان يكرهنى ولكنه ذهب عقله وفسد رأيه ، وأنتم يا أهل الديوان تهدون الناس إلى الصواب والنور من جنابكم لأهل العقول وعرفوا أهل مصر أنه انقضت وفرغت دولة العثمنلى أشد تعب من حكم المملوك وأكثر ظلماً والعاقل يعرف أن علماء مصر لهم عقل وتدبير وكفاية وأهلية للأحكام الشرعية يصلحون للقضاء من غيرهم فى ساير الأقاليم وأنتم يا أهل الديوان عرفونى عن المنافقين المخالفين أخرج من حقهم لأن الله تعالى أعطانى القوة العظيمة لأجل ما أعاقبهم فإن سيفنا طويل ليس فيه ضعف ، ومرادى تعرفوا أهل مصر أن قصدى بكل قلبى حصول الخير والسعادة لهم مثل ما هو بحر النيل أفضل الأنهار وأسعدها كذلك أهل مصر يكونوا أسعد الخلائق أجمعين بإذن رب العالمين والسلام انتهى .

قال صاحبنا المشار إليه قول اللعين وعرفوا أهل مصر أنه انقضت دولة العثمنلى من مصر هذا من إطماع النفس فى ضروب من محال الآمال

وتشبثها بأذيال الأمانى التى ضربت دون الوصول إليها أعناق الرجال ، واسترسال لخبايث نفوسهم فى مراتع الغواية والضلال ، وفساد فكر عن طرق الرشد عقيم بمعارضة ظلمة الوهم وفساد الخيال ، لقد تبجح هذا اللعين الكافر ، وتفوه بما لا يصل إليه سائر الملوك الأول منهم والآخر ؛ ولقد كانت هذه اللفظة عليه وبالا ، وخيبة أوجبت له من أقبح الشرور فألا ، فإنه من حين دخول مصر لم يتفوه بأمثالها ، ولا تمنيه نفسه بأن يكون من أبناء مصر ورجالها ، فلما انفسحت له المدة ، وخفت عنه الشدة وعدم المعارض وصار جوادا بأرض مصر راكض أظهر العداوة للدولة العلية أبقاها الله بعد كتمانها ، وإظهار أنه ممن يحب تلك الدولة ويكون من اتباعها وأعوانها ثم لما طال أمده ، وأبى عليه طول الاكتتام عداوته وحسده ، استدرجته أمالى نفسه فقال ما دونه حلوله برمسه ، ومن خزيه ونكاله وتبين ضلاله ومحاله ، أنه بعد أن قال ما قيل ، لم يلبث بمصر إلا القليل وذهب إلى حيث ألقت وقد كانت على جيشه وجنوده كلمة العذاب حقت ، فخلت منهم بعد ذلك الديار ، وعجل الله بأرواحهم إلى النار ، وبئس القرار .

وفى تلك الليلة قتلوا شخصين أحدهما على جاويش رئيس (الريالة) الذى كان بالإسكندرية عند حضور الفرنسيس والثانى قبطان آخر ، فلم يزالا بمصر يحبسونهما أياماً ثم يطلقونهما فحبسوهما آخراً فلم يطلقوهما وقتلوهما رحمهما الله .

وفى صبيحة ذلك اليوم قتلوا شخصين أيضاً من الأتراك بالرميلة .
وفيه أفرجوا عن زوجات حسن بيك الجداوى .
وفى ثالث عشرين جمعوا الوجاقلية [1] وكتبوا أسماءهم
وفى سادس عشرين قبضوا على ثلاثة أنفار أحدهما يسمى حسن كاشف من أتباع أيوب بيك الكبير ، وآخر يسمى أبو كلس ، والثالث رجل تاجر من تجار خان الخليلى يسمى حسين مماوك الدالى إبراهيم فسجنوهم بالقلعة فتشفع الشيخ السادات فى حسين التاجر فأطلقوه على خمسة آلاف فرانسة .

شهر صفر الخير

استهل بيوم الجمعة فيه أفرجوا عن بعض قرابة كتخدا الباشا وكان محبوساً بالجيزة ، ثم نقل إلى القلعة مع كتخدا فأطلق وبقى الآخر .
وفى يوم الأحد ثالثه حضر السيد عمر أفندى نقيب الأشراف سابقاً من دمياط إلى مصر وكان مقيما هناك من بعد واقعة يافا ونزل مع الذين أنزلوهم من يافا إلى البحر وفيهم عثمان أفندى العباسى وحسن أفندى كاتب الشهر وأخوه قاسم أفندى وأحمد أفندى عرفة ويوسف افندى وقاسم المصلى وغيرهم ، فمنهم من عوق بالكرنتيلة ومنهم من حضر من البر خفية ، فحضر بعض الأعيان لملاقاة السيد عمر وركبوا معه بعد أن

---

(١) أفراد الحامية العثمانية وكانت تجرى عليهم الرواتب .

مكث هنيهة بزاوية على بيك التى بساحل بولاق حتى وصل إلى داره وتوجه فى صبح ثانى يوم مع المهدى وقابل كبير الفرنسيس فبش له ووعده بخير ورد إليه بعض تعلقاته واستمر مقيما بداره والناس تغدو وتروح إليه على العادة.

وفى رابعه حضر أيضاً حسن كتخدا الجربان بأمان وكان بصحبته عثمان بيك الشرقاوى وفيه أشيع أن مراد بيك ذهب إلى ناحية البحيرة فراراً من الفرنسيس الذين بالصعيد .

وفى خامسه قتلوا عبد الله أغا أمير يافا وكان أخذ أسيراً وحبس ثم قتل وفيه قتل أيضاً يوسف جربجى أبو كلس ورفيقه حسن كاشف .

وفيه أحضروا أربعة عشر مملوكاً أسرى وأصعدوهم إلى القلعة قيل إنهم كانوا لاحقين بمراد بك بالبحيرة فأووا إلى قبة يستظلون بها وتركوا خيولهم مع السواس فنزلت عليهم طائفة من العرب فأخذت الخيول فمروا مشاة فدل الفلاحون عليهم عسكر الفرنسيس فمسكوهم وقيل إنهم أووا إلى بلدة وطلبوا منهم غرامة فصالحوهم فلم يرضوا بدون ما طلبوا ، فوعدوهم بالدفع من الغد وكانوا أكثر من ذلك وفيهم كاشف من جماعة الطنبرجى فذهب الفلاحون إلى الفرنسيس وأعلموهم بمكانهم فحضروا لهم ليلا وقتلوا من قتلوه وأسروا الباقى وأما الكاشف فيسمى عثمان كاشف التجأ إلى كبير الفرنسيس فحماه وأخذه عنده وأحضروا الأسرى إلى مصر وعليهم ثياب زرق وزعابيط وعلى رءوسهم طواقى من لباد وغيرها وأصعدوهم إلى القلعة فلما كان فى ثانى ليلة قتلوا منهم عشرة .

وفى تاسعه أحضروا أيضاً ستة أشخاص من المماليك وأصعدوهم إلى القلعة .

وفى ذلك اليوم قتلوا أيضاً منهم نحو العشرة واستمروا فى كل يوم يقتلون أناساً من الأسرى والمحابيس .

وفى يوم الأحد عاشره ركب فى عصريته كبير الفرنسيس وعدى إلى الجيزة وتبعته العساكر ولم يعلم سبب ذلك .

وفيه عدى إلى الجيزة وضرب العسكر نجع البطران ودهشور بسبب نزول مراد بيك عندهم .

وفيه ظهر أن مراد بيك رجع ثانياً إلى الصعيد .

وشاع الخبر أيضاً أن عثمان بيك الشرقاوى وسليمان أغا الوالى وآخرين مروا من خلف الجبل وذهبوا إلى ناحية الشرق فخرج إليهم جماعة من العسكر وبرطلمين وينى الحمار النصرانى الرومى الذي كان فى أول أمره مستولياً (على) خمارات مصر ثم صار عسكرياً على طائفة من نصارى الأروام ومعهم عدة من المسلمين المنضمة إلى برطلمين ونصارى أروام المنضمة إلى ينى فأدركوهم قريباً من بلبيس وأتوهم من خلاف الطريق المسلوكة فدهموهم على حين غفلة وكان عثمان بيك يغتسل فلما أحسوا بهم بادروا للفرار وركوب الخيل، وركب عثمان بيك بقميص واحد على جسده وطاقية فوق رأسه وهربوا وتركوا ثيابهم ومتاعهم وحملتهم وقدور الطعام على النار ولم يمت منهم إلا مملوكين وأسروا منهم اثنين ووجدوا على فراش عثمان

بيك مكاتبة من إبراهيم بيك يدعوهم إلى الحضور إليه بالشام .

وفى ليلة الاثنين حادى عشره وردت أخبار ومكاتيب مع السعاة لبعض الناس من الاسكندرية وبوقير وأخبروا بأنه وردت مراكب فيها عساكر عثمانية إلى بوقير فتبين أن حركة الفرنسيس وتعديتهم إلى البر الغربى بسبب ذلك وأخذوا صحبتهم جرجس الجوهرى وأصبحوا فى ثانى يوم عدى الكثير من العسكر أيضاً واهتم حنا بينو المتولى على بحر بولاق بجمع المراكب وشحنها بالبقسماط والعدس والأرز والقومانية وداخل الفرنسيس من ذلك وهم عظيم ، ولما عدّى كبيرهم إلى بر الجيزة أقام يوم الاثنين عند الأهرام حتى تجمعت العساكر وبعث بالمقدمة وركب هو فى يوم الثلاثاء ثانى عشره وأرسل مكتوباً إلى أرباب الديوان بالسلام عليهم والوصية بالحفظ وضبط البلد والرعية كما فعلوا فى غيبته السابقة .

وفى سادس عشره ورد الخبر بأن عثمان خجا وصل إلى قلعة أبو قير صحبة السيد مصطفى باشا فضربوا على القلعة وأسروا من بها من الفرنسيس عثمان خجا هذا هو الذى كان متولى إمارة رشيد من طرف صالح بيك حج معه ورجع صحبته إلى الشام فلما توفى صالح بيك سافر إلى الديار رومية وحضر صحبة السيد مصطفى باشا المذكور فلما تحققت هذه الأخبار كثر اللغط فى الناس وأظهروا البشر وتجاهروا بلعن النصارى واتفق أنه شاجر بعض المسلمين بحارة البرابرة مع بعض نصارى الشوام فقال المسلم نصرانى : إن شاء الله بعد أربعة أيام نشتفى منكم وكلام من هذا المعنى

فذهب النصرانى إلى الفرنسيس مع عصبة من جنسه وأخبروهم بالقصة وزادوا وحرّفوا وعرفوهم أن قصد المسلمين إثارة فتنة فأرسل قايم مقام إلى الشيخ المهدى وتكلم معه فى شأن ذلك وحاججه وأصبحوا فاجتمعوا بالديوان فقام المهدى خطيباً وتكلم كثيراً ونفى الريبة وكذب أقوال الأخصام وتشدد فى تبرئة المسلمين عما نسب إليهم وبالغ فى الحطيطة والانتقاص فى جانب النصارى وكان هذا المقام من مقاماته المحمودة ثم جمعوا مشايخ الأخطاط والحارات وحبسوهم .

وفيه حضرت مكاتبة من الفرنسيس المتوجهين للمحاربة مع العسكر السلطانى بجهة أبو قير وصورتها : لا إله إلا الله محمد رسول الله صلى الله عليه وسلم ، نخبركم محفل الديوان بمصر المنتخب من أحسن الناس وأكملهم بالعقل والتدبير عليهم سلام الله ورحمته وبركاته بعد مزيد السلام عليكم وكثرة الأشواق إليكم نخبركم يا أهل الديوان المكرمين العظام بهذا المكتوب إننا وضعنا جماعات من عسكرنا بجبل الطرانة وبعد ذلك سرنا إلى إقليم البحيرة لأجل ما نرد راحة الرعايا المساكين ونقاصص أعداءنا المحاربين وقد وصلنا بالسلامة إلى الرحمانية وعفونا عفواً عمومياً عن كامل أهل البحيرة حتى صار أهل الإقليم فى راحة تامة ونعمة عامة وفى هذا التاريخ نخبركم أنه وصل ثمانون مركباً صغاراً وكباراً حتى ظهروا بثغر الإسكندرية وقصدوا أن يدخلوها فلم يمكنهم الدخول من كثرة البنب وجلل المدافع النازلة عليهم فرحلوا عنها وتوجهوا يرسون بناحية أبو قير وابتدأوا ينزلون

فى البر وأنا الآن تاركهم وقصدى أن يتكامل الجميع فى البر وأنزل عليهم أقتل من لا يطيع وأخلى بالحياة الطائعين وآتيكم بهم محبوسين تحت السيف لأجل أن يكون فى ذلك شأن عظيم فى مدينة مصر والسبب فى مجيء هذه العمارة إلى هذا الطرف العشم بالاجتماع على المماليك والعربان لأجل نهب البلاد وخراب الإقليم المصرى وفى هذه العمارة خلق كثير من الموسقوا الأفرنج الذين كراهتهم ظاهرة لكل من كان موحد الله وعدواتهم واضحة لمن كان يؤمن برسول الله يكرهون الإسلام ، ولا يحترمون القرآن ، وهم نظراً لكفرهم فى معتقدهم يجعلون الآلهة ثلاثة وأن الله ثالث تلك الثلاثة تعالى الله عن الشركاء ولكن عن قريب يظهر لهم أن الثلاثة لا تعطى القوة وإن كثرة الآلهة لا تنفع لأنه باطل ، بل إن الله الواحد هو الذى يعطى النصرة لمن يوحده الرحمن الرحيم المساعد المعين المقوى للعادلين الموحدين الماحق رأى الفاسدين المشركين وقد سبق فى علمه القديم وقضائه العظيم أنه أعطانى هذا الإقليم العظيم ، وقد روحكم بحضورى إلى مصر لأجل تغييرى الأمور الفاسدة وأنواع الظلم وتبديل ذلك بالعدل والراحة مع صلاح الحكم وبرهان قدرته العظيمة ووحدانيته المستقيمة أنه لم يقدر للذين يعتقدون أن الآلهة ثلاثة قوة مثل قوتنا لأنهم ما قدروا أن يعملوا الذى عملناه ونحن المعتقدون بوحدانية الله ونعرف أنه العزيز القادر القوى القاهر المدبر الكائنات ، والمحيط علمه بالأرضين والسموات ، والقائم بأمر المخلوقات ، هذا ما فى الآيات ، والكتب المنزلات ، ونخبركم بالمسلمين إن كانوا بصحبتكم

يكونون من المغضوب عليهم بمخالفتهم لوصية النبي عايه أفضل الصلاة والسلام بسبب اتفاقهم مع الخارجين الكفرة اللئام لأن أعداء الإسلام لا ينصرون الإسلام ويا ويل من كانت نصرته بأعداء الله وحاشا الله أن يكون المستنصر بالكفار مؤيداً ، أو يكون مسلماً ، ساقهم التقدير للهلاك والتدمير مع السفالة والرذالة وكيف للمسلم أن ينزل فى مركب تحت بيرق الصليب فيسمع فى حق الواحد الأحد الفرد الصمد من الكفار كل يوم تخريف واحتقار ولا شك أن هذا المسلم فى هذا الحال أقبح من الكافر الأصلى فى الضلال . نريد منكم يا أهل الديوان أن تخبروا بهذا الخبر جميع الدواوين والأنصار لأجل أن يمتنع أهل الفساد من الفتنة بين الرعية فى سائر الأقاليم والبلاد ، لأن البلد الذى يحصل فيها الشر يحصل لهم مزيد الضرر والقصاص ، انصحوهم يحفظوا أنفسهم من الهلاك خوفاً عايهم أن يفعل فيهم مثل ما فعلنا فى أهل دمنهور وغيرها من بلاد الشرور بسبب ساوكهم المسالك القبيحة قاصصناهم والسلام عايكم ورحمة الله وبركاته ، تحريراً فى الرحمانية يوم الأحد ١٥ صفر سنة ١٢١٤ وبصموا من ذلك نسخاً ولصقوها بالأسواق وفرقوا منها على الأعيان انتهى .

وفى ثامن عشره وردت أخبار وعدة مكاتيب لكثير من الأعيان والتجار وكلها على نسق واحد بأن المسامين ملكوا الاسكندرية فى ثالث ساعة من يوم السبت سادس عشر صفر وفرح الناس وهنأ بعضهم بعضاً ثم ظهر عدم صحة ذلك ، ولعل ذلك من المكايد .

وفى ليلة الثلاثاء عشرينه أشيع أن الفرنسيس انتصروا على المسلمين وأخذوا قلعة أبو قير وأخذ السيد مصطفى باشا أسيراً وعثمان خجا وعدة من المسلمين وأخبر الفرنسيس أنه حضرت لهم مكاتبة بذلك من أكابرهم .

ولما طلع النهار ضربوا مدافع كثيرة من قلعة الجبل وأبراج التاول وجامع الظاهر وبصحن الأزبكية فانزعج الناس ونزل بهم من الغم والكآبة ما لا مزيد عليه ولا حول ولا قوة إلا بالله العلى العظيم .

وفى ليلتها أعنى ليلة الأربعاء عملوا حراقة بالأزبكية وسواريخ ونفوط .

وفى يوم الخميس ثانى عشرينه وصلت عدة مراكب وبها أسرى وعساكر جرحى وكذلك يوم الجمعة تاسع عشرينه وحضرت مكاتبة من الفرنسيس بحكاية الحال التى وقعت لم أقف على صورتها .

شهر ربيع الأول

استهل بيوم السبت فى ثانيه وصلت مراكب من بحري وفيها جرحى من الفرنسيس وفيه قبضوا على مصطفى البشتيلى من أهل بولاق وحبسوه ببيت قايم مقام ، والسبب فى ذلك أن جماعة من جيرانه وشوا به بأن فى داخل الحاصل الذي فى وكالته عدة قدر مملوءة بالبارود فكبسوا على الحاصل فوجدوا به ذلك كما أخبر الواشى فأخذوها وقبضوا عليه وحبسوه كما ذكر ثم نقلوه إلى القلعة .

وفى سادسه حضر أيضاً جملة من العسكر وكثر لغط الناس كعادتهم فى روايات الأخبار .

وفى ليلة الأحد تاسعه حضر كبير الفرنسيس وأدخل إلى داره بالأزبكية وحضر صحبته عدة أناس من أسرى المسلمين وشاع الخبر بحضوره ، فذهب كثير من الناس إلى الأزبكية ليتحققوا الخبر على جليته ، فشاهدوا الأسرى وهم وقوف بوسط البركة ليراهم الناس فكفكف الناس دموعهم وكظموا غيظهم ، وطووا قلوبهم على حرقة الأسى ومرارة الأنف ، وأظهروا التجلد للعدو وقد طار من القلب الراحة والهدوء .

وتجلدى للشامتين أريهم   أنى لريب الدهر لا أتضعضع

ثم أنهم صرفوا الأسرى بعد حصة من النهار فأرسلوا بعضهم إلى جامع الظاهر خارج الحسينية ، وأصعدوا باقيهم إلى القلعة . وأما السيد مصطفى باشا فإنهم لم يقدموا به لمصر ، بل أرساوه إلى الجيزة مكرماً وأبقوا عثمان خجا بالاسكندرية ولا حول ولا قوة إلا بالله العلى العظيم .

فيوم علينا ويوم لنا   ويوم نساء ويـــوم نسر

وما زالت الأيام تأخذ وتعطى ، والسهام تصيب وتخطى .

ولما استقر كبير الفرنسيس بمنزله ذهب للسلام عليه المشايخ والأعيان وسلموا عليه ، فلما استقر بهم المجلس قال لهم على لسان الترجمان : إن صارى عسكر يقول لكم إنه لما سافر إلى الشام كانت حالتكم طيبة فى

غيابه ، وأما فى هذه المرة فليست كذلك لأنكم كنتم تظنون أن الفرنسيس لا يرجعون بل يموتون عن آخرهم ، فكنتم فرحانين ومستبشرين وكنتم تعارضون الأغا فى أحكامه ، وأن المهدى والصاوى ما هم « بونو » أى ليسوا طيبين ونحو ذلك وسبب كلامه هذا الحكاية المتقدمة التى حبسوا بسببها مشايخ الحارات ، فكان الأغا الخبيث يريد أن يقتل كل يوم أناساً بأدنى سبب ، فكان المهدى والصاوى يعارضانه ويتكلمان معه بالديوان ، ويوبخانه ويخوفانه سوء العاقبة ، فيرسل إلى كبير الفرنسيس فيطالعه بالأخبار ويشكو منهما فلما حضر عاتبهم فى شأن ذلك ، فلاطفوه حتى انجلى خاطره وأخذ يحدثهم على ما وقع له مع العساكر بأبو قير والنصر عليهم وغير ذلك .

وفى يوم الثلاثاء حادى عشره عمل المولد النبوى بالأزبكية ودعى الشيخ البكرى كبير الفرنسيس مع جماعة من أعيانهم وتعشوا عنده ، وضربوا ببركة الأزبكية مدافع وعملوا حراقة وسواريخ ونادوا فى ذلك اليوم بفتح الأسواق والدكاكين ليلا وإسراج قناديل واصطناع زينة .

وورد الخبر بأن الفرنسيس احضروا عثمان خجا ونقلوه من الاسكندرية إلى رشيد فدخلوا به البلد وهو مكشوف الرأس حافى القدمين وطافوا به البلد يزفونه بطبولهم ثم قطعوا رأسه تحت داره ثم رفعوا الرأس وعلقوها من شباك فى داره يراها من يمر بالسوق رحمه الله .

وفى ثالث عشره أشيع بسفر كبير الفرنسيس بونابرته إلى جهة

بحرى ولم يعلم أى جهة يريد وسئل بعض أكابرهم فأخبر أن صارى عسكر المنوفية دعاه لضيافته بمنوف حين كان مسافراً جهة أبو قير فوعده بالعود إليه بعد وصوله إلى مصر وراج ذلك على الناس وظنوا صدقه .

ولما كان يوم الأحد سادس عشره خرج مسافراً من آخر الليل وخفى أمره عن الناس وانقطع أثره . وفى يوم الخميس رابع عشرينه الموافق لتاسع مسرى القبطى كان وفاء النيل المبارك فنودى بوفائه على العادة وخرج النصارى البلدية من القبطة والشوام والأروام وتأهبوا للخلاعة والقصف والتفرج واللهو وذهبوا تلك الليلة إلى بولاق ومصر العتيقة والروضة واكثروا المراكب ونزلوا فيها وصحبتهم الآلات والمغانى وخرجوا فى تلك الليلة عن طورهم ورفضوا الحشمة وسلكوا مسلك الأمراء سابقاً من النزول فى المركب الكثيرة المقاديف وصحبتهم نساؤهم وقحابهم وشرابهم وخمورهم وتجاهروا بكل قبيح من الضحك والسخرية والكفريات ومحاكاة المسلمين وبعضهم تسلح وتزيى بزى أمراء مصر على سبيل الاستهزاء وتشبه بهم وحاكى ألفاظهم وغير ذلك ؛ وأجرى الفرنسيس المراكب المزينة وعليها البيارق وفيها أنواع الطبول والمزامير فى البحر وقد وقع فى تلك الليلة بالبحر وسواحله من الفواحش والتجاهر بالمعاصى ما لا يكيف ولا يوصف وسلك بعض غوغاء العامة وأسافل العالم ورعاعهم مسالك متسفل الخلاعة ورذالة الرقاعة بدون أن ينكر أحد على أحد من الحكام أو غيرهم بل كل إنسان يفعل ما تشتهيه نفسه وما يخطر بباله وإن لم يكن من أمثاله :

إذا كان رب الدار بالدف ضارباً فشيمة أهل الدار كلهم الرقص

وأكثر الفرنسيس فى تلك الليلة وصباحها من رمى المدافع والسواريخ من المراكب والسواحل وباتوا يضربون أنواع الطبول والزمامير ؛ وفى الصباح ركب دوجا قايم مقام وصحبته أكابر الفرنسيس وأكابر أهل مصر وحضر إلى قصر السد وجلسوا به واصطفت العساكر بين الروضة وبين مصر العتيقة بأسلحتهم وطبولهم وبعضهم فى المراكب لضرب المدافع المتتالية إلى أن انكسر السد وجرى الماء فى الخليج ؛ فانصرفوا .

وفى خامس عشرينه طلبوا من كل طاحون من الطواحين فرساً .

وفى سادس عشرينه كتبوا أوراقاً ولصقوها بالأسواق مضمونها أن الناس يذهبون إلى بولاق يوم التاسع والعشرين ليحضروا سوق الخيل ويشتروا ما أحبوا من الخيل .

وفيه لصقوا أوراقاً أيضاً مضمونها بأن من كان عليه مال ميرى مازوم بغلاقه ، ومن لم يغلق ما عليه بعد مضى عشرين يوماً عوقب بما يليق به ونادوا بموجب ذلك فى الأسواق .

وفى سابع عشرينه كتبوا أوراقاً أيضاً مضمونها انقضاء سنة مؤاجرات أقلام المكوس وأن من أراد استئجار شىء من ذلك فليحضر بالديوان ويأخذ بالمزاد .

وفيه أفرج عن الأنفار التى قدم بها الفرنسيس من غزة وحبست بالقلعة على مصالحة خمسة وسبعين كيساً دفعوا بعضها وضمنهم أهل وكالة الصابون

فى البعض الباقى فأنزلوهم من القلعة على هذا الاتفاق بشرط ألا يسافر منهم أحد إلا بعد غلاق ما عليه .

وفى ثامن عشرينه تشفع أرباب الديوان فى أهل يافا المسجونين بالقلعة فوقع التوافق على الإفراج عنهم بمصالحة مائة كيس فاجتمع الرؤساء والتجار وترووا واشتوروا فى مجلس خاص بينهم فاتفق الحال على تقسيطها وتأجيلها فى كل عشرين يوماً خمسة وعشرين كيساً ، فدفع التجار خمسة وعشرين كيساً وأفرج عنهم من القلعة وأجل الباقى على الشرح المذكور .

وفيه ورد من بونابرته صارى عسكر كتاب من الاسكندرية خطاباً لأهل مصر وسكانها فأحضر قايم مقام دوجا الرؤساء المصرية وقرأ عليهم الكتاب مضمونه أنه سافر يوم الجمعة حادى وعشرين الشهر المذكور إلى بلاد الفرنساوية لأجل راحة أهل مصر وتسليك البحر فيغيب نحو ثلاثة أشهر ويقدم مع عساكره فإنه بلغه خروج عمارتهم ليصفو له ملك مصر ويقطع دابر المفسدين وأن المولى على أهل مصر وعلى الفرنسيس كلهم كلهبر « كليبر » صارى عسكر دمياط فوقع الناس فى لغط وهرج وتحيروا فى كيفية سفره مع وجود مراكب الإنجليز على الثغر وذهبوا كل مذهب .

فلما كان يوم السبت تاسع عشرين الشهر قدم كلهبر صبيحة ذلك اليوم ، فضربوا لقدومه المدافع من جميع الجهات وتلقته كبار الفرنساوية

وأصاغرهم وذهب إلى بيت بونابرته الذى كان ساكناً به بالأزبكية وسكن مكانه .

وفى ذلك اليوم قدمت طائفة من العسكر من جهة الشرقية وصحبتهم منهوبات كثيرة من بلد ضربوها ونهبوها ومعهم نحو السبعين من الرجال والصغار وبعض النساء وهم موثوقون بالحبال ، فسجنوهم بالقلعة .

وفيه ذهب أكابر البلد من مشايخ وأعيان لمقابلة كبير الفرنسيس الجديد والسلام عليه فلم يجتمعوا به ذلك اليوم ووعدوا إلى الغد ، فانصرفوا وحضروا فى ثانى يوم واجتمعوا به فلم يروا منه بشاشة ولا طلاقة وجه مثل اللعين الأول فإنه كان عنده مداهنة وطلاقة .

شهر ربيع الثانى

فى أوائله ابتدأوا بعمل مولد سيدنا الحسين وقهروا الناس وكرروا المناداة بفتح الحوانيت والسهر ووقود القناديل عشر ليال متوالية آخرها ليلة الأربعاء ثانى عشره .

وفيه طلب كبير الفرنسيس من النصارى القبطة مائة وخمسين ألف ريال فرانسة فى مقابلة بواقى سنة ألف ومائتين واثنى عشر وشرعوا فى تحصيلها .

وفى يوم الجمعة سادسه ركب صارى عسكر الجديد من الأزبكية

ومشى من وسط المدينة فى موكب حافل حتى صعد إلى القلعة وكان أمامه نحو الخمسمائة قواس وبأيديهم النبابيت وهم يأمرون الناس بالقيام والوقوف على الأقدام لمروره وكان صحبته عدة كثيرة من خيالة الأفرنج وبأيديهم السيوف المسلولة والوالى والأغا برطلمين بمواكبهم وكذلك القلقات والوجاقلية وكل من كان مولى من جهتهم ومتضما إليهم ما عدا رؤساء الديوان من الفقهاء فلم يطالبوهم لحضور ذلك الموكب ولما صعد إلى القلعة ضربوا له عدة مدافع وتفرج على القلعة ثم نزل بذلك الموكب إلى داره .

وفى يوم السبت سابعه ركب أغاة الانكشارية فى أبهة عظيمة وجبروت وأمامه عدة من عسكر الفرنسيس وأمامه المنادى يقول حكم ما رسم صارى عسكر خطاباً للأغا إن جميع الدعاوى والقضايا لا تعمل إلا ببيت الأغا ، وكل من تعدّى من الرعايا أو وقع منه قلة أدب يسفك دمه . وفيه ركب صارى عسكر الفرنسيس فى موكب دون الأول وذهب إلى بيت الشيخ الشرقاوى ثم رجع إلى داره .

وفى يوم الأحد ثامنه عمل صارى عسكر الفرنسيس وليمة فى بيته ودعا الأعيان والتجار والمشايخ وتعشوا عنده وانصرفوا إلى دورهم .

وفى يوم الثلاثاء عاشره كان آخر المولد الحسينى وحضر كبير الفرنسيس مع أعيانهم إلى بيت الشيخ السادات بعد العصر فى موكب عظيم وأمامه الأغا والوالى والمحتسب وعدة كبيرة من عسكرهم وبيدهم السيوف المسلولة

فتعشوا هناك وركبوا بعد الغروب وشاهدوا وقود القناديل وفى سادس عشره نودى بنشر الحوائج وكتبوا بذلك أوراقاً ولصقوها بالأسواق وشددوا فى ذلك بالتفتيش والنظر وأخذوا دراهم على ذلك وزاد عليهم فى هذا العام عسكرى فرنساوى يطوف مع المقيدين بذلك وهم جماعة من طرف مشايخ الحارات نساء ورجالا .

وفى عشرينه نودى بعمل مولد السيد على البكرى المدفون بجامع الشرايبي بالأزبكية بالقرب من الرويعى وأمروا الناس بوقود قناديل بالأزقة فى تلك الجهات وأذنوا لهم بالذهاب والمجىء ليلا ونهاراً ولا حرج عليهم فى ذلك والسيد على البكرى هذا كان رجلا من البله وكان يمشى بالأسواق عرياناً مكشوف الرأس والسوأتين غالباً وله أخ صاحب دهاء ومكر لا يلتئم به واستمر على ذلك مدة سنين ثم بدا لأخيه أمر فيه لما رأى من ميل الناس لأخيه ومحبتهم له واعتقادهم فيه كما هى عادة أهل مصر فى أمثاله فحجر عليه ومنعه من الخروج من البيت وألبسه ثياباً وأظهر للناس أنه ذن له بذلك وأنه تولى القطبانية ونحو ذلك فأقبلت النساء والرجال على زيارته والتبرك به وسماع ألفاظه وأخذ أخوه المذكور يرغبهم فى ذلك ويحكى لهم عن كراماته وأنه يطلع على المغيبات وينطق بما فى النفوس ويعلم خطرات القلوب فانهمكوا على الترداد عليه وقلد بعضهم بعضاً وأقبلوا عليه بالهدايا والنذور والإمدادات الواسعة من كل شىء وخصوصاً من نساء الأمراء فاجتمع عند أخيه أشياء كثيرة من هذه الأمور وراج حاله واتسعت

أمواله ونفقت سلعته وسمن أخوه من كثرة الأكل والفراغ والراحة وعدم المشى حتى صار مثل البوّ العظيم فلم يزل على ذلك إلى أن مات فدفنه أخوه فى هذا المسجد وعمل عليه مقصورة ومقاماً وواظب عنده بالمقرئين وأرباب الأشاير والمنشدين والمداح بذكر كراماته ومكاشفاته ويتواجدون ويتصارخون ويمرغون وجهوههم على شباكه وأعتابه .

شعر

وقالوا سكرنا بحب الإله   وما أسكر القوم إلا القصع

فهرعت لزيارة قبره النساء والرجال بالنذور وأنواع المأكولات وشموع الوقود وصار ذلك المسجد مجمعاً وموعداً ، فلما حضر الفرنسيس إلى مصر تشاغل عنه الناس وأهمل شأنه فى جملة المهملات ، وترك مع جملة المتروكات ، فلما فتح أمر الموالد ورخص الفرنسيس ذلك للناس لما رأوا فيه من الخروج عن الشرائع واتباع الشهوات واجتماع النساء والتلاهى وفعل المحرمات أعيد هذا المولد مع جملة من أعيد .

شهر جمادى الأولى

استهل بيوم السبت ، فيه اهتم الفرنسيس بعمل عيدهم المعتاد وهو عند الاعتدال الخريفى وانتقال الشمس لبرج الميزان ، فنادوا بفتح

الأسواق والدكاكين ووقود القناديل وشدّدوا فى ذلك وعملوا عزائم وولائم وأطعمة ثلاثة أيام آخرها يوم الاثنين ولم يعملوه على هيئة العام الماضى من الاجتماع بالأزبكية عند الصارى المنتصب والكيفية المذكورة لأن ذلك الصارى سقط وامتلأت البركة بالماء ، فلما كان يوم الأحد نبهوا على الكبراء والأعيان بالبكور إلى بيت كبير الفرنسيس فاجتمع الجميع فى صبح يوم الاثنين فركب صارى عسكر معهم فى موكب كبير وذهبوا إلى قصر العينى فمكثوا هناك حصة ، وعرضت عليهم العساكر جميعاً على اختلاف أنواعها من خيالة ورجالة وهم بأسلحتهم وزينتهم ولعبوا لعبهم فى ميدان الحرب ، وأخلع كبيرهم على الشيخ الشرقاوى والقاضى وأغاة الانكشارية كل واحد فرو سمّور ، ثم رجعوا إلى منازلهم ثم نودى فى الأسواق كلها بوقود أربع قناديل على كل دكان فى تلك الليلة ، ومن لم يفعل ذلك عوقب ثم عملوا حراقة بالأزبكية بمدافع وسواريخ ونفوط ولعبوا فى المراكب طول ليلهم .

وفى سابعه بعد الصليب نقص النيل وكان من أول زيادته قاصراً على العادة وزيادته شحيحة فضج الناس وانكبوا على شراء الغلة وازدحموا فى الرقع والسواحل وطلب باعة القمح الزيادة فى السعر ، فجمع الفرنسيس كل من له مدخل فى تجارة الغلال وزجروهم وخوّفوهم وقالوا لهم : هذه الغلة الموجودة الآن إنما هى زراعة العام الماضى وأما هذا النيل فلا تخرج زراعته إلا فى العام المستقبل فانزجروا وباعوا بالسعر الحاضر

وقد كاد يقع الغلاء العظيم لولا ألطاف الله حفت ونعمه العميمة الشاملة حصلت .

وفيه أرسلوا جملة عساكر من الفرنسيس إلى مراد بيك بناحية الفيوم فحصروه وأخذوا جملة عثمان بيك التنبرجى ووقعت بينهم وبين مراد بك أمور لم يتحقق تفصيلها ثم ترددت بينه وبين كبير الفرنسيس بالصعيد الرسل والمراسلات ووقعت الهدنة والمهاداة واصطلح معهم على شروط لم تعرف وانكف كل فريق عن الآخر .

وفى هذا الشهر كثرت الإشاعة باجتماع عساكر سلطانية جهة الشام فكثر اهتمام الفرنسيس بإخراج الجبخانات والمدافع وآلات الحرب والقومانية والعساكر وتحصين الصالحية والقرين وبلبيس .

(ويليه الجزء الثانى)

مجموعة "اخترنا لك"

تصدر نصف شهرية باللغات العالمية

ويشترك في تحريرها وإعدادها

لجنة "اخترنا لك"

المشرف على اللجنة

عبد القادر حاتم

سكرتير اللجنة

محمد عطا

المراسلات : ص . ب ١٠٩٤ القاهرة

دار المعارف للطباعة والنشر

ص
١٠